

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات آدمي

دار منوال للنشر

PARADIGME EDITIONS



صدر للمؤلف

الكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المندمج- الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995
- دليل المرَبّي في التثقيف الصّحيّ- الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التثقيف الصحي -الدار العربية- تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال -دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

- لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المرِيخ- دار الرأي -تونس 1982
- دع وطني يستيقظ- دار المغرب العربي -تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001
- من الخراب إلى التأسيس - المركز المغاربي -لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي -دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق-2006
- إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطة - تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
- ننصر أو ننتصر - من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطة - تونس 2014
- المراجعات والبدائل- المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022

الكتابات الفكرية والأدبية

- في سجن العقل -أقواس - تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الروية الجديدة - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان--دمشق 2003
- الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة-طبعة دار الأهالي- دمشق 2002، -، 2010، طبعة الدار المتوسطة تونس 2015

- شعراء بلا حدود- دار منوال، تونس 2018

بالفرنسية

- L'arrache corps:** Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- Arabes, si vous parliez !-** Ed, lieu commun. Paris 1987
- La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- Le mal arabe** - Ed le Harmattan - Paris 2004
- Dictateurs en Sursis** - Ed L'atelier - Paris 2009
- L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- Qu'est-ce que le pouvoir ?** - Ed paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت

www.moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمنة
وكل الأطفال المشاغبين

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل الشكر أيضا لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين وأخص بالذكر إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل وأملّي أن يكون قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كُننا من أجله الكتب.

الفهرس

توطئة

الكتاب الأول: الاحرام والوصول

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: المهمّة

الكتاب السادس: الغريب

الكتاب السابع: الرؤيا

معلقة باب الرحيل

توطئة

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طبّ سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000.

قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ -في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي- حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت رأسه وأشرف فيه على أبحاث مساعديّ ورسائل الدكتوراه للطلبة؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسنيني لحظة هموم السياسة وتروّح عن النفس كربها: الرواية.

قلت لنفسي لم لا أجزّب تحديدا رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لروايتي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمّرها البشر وانقرضوا؟

فكرة مبتدئين استنفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان. إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلتُ من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهرية لتزيين حدائقهم الفاخرة؟

لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّرتُ، ولم لا لبعثي معه حيّا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟

المشكلة أن هؤلاء التجّار-العلماء بأمرس الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.

ثم كيف جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبة داخل ذاكرة مثل مكتبة تكدّست فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبداً لتنظيمها؟

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زدت بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شينا فشيئا تراجعت فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتمّ التحلي عنها نهائيا في هذه الطبعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسرّ قل ليبررّ سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن السير الذاتية تدّعي دوما أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا أدعي البتة. أذكر حقاً أنني كنت عاكفا على لوحى في الكُتاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعيت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلّمها فصرخ في وجهي المؤدّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت ألعب لعبة المعلم مع والدتي القنّها الحروف التي اتعلّمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم بطلب منها لتتعلّم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟ أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كدت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدتي بأخذي لتعلّم رعي الخرفان عند أخوالي أو رعي البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمتها؟

لم لا، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملفّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يعالج به الفكر والخيال ملفّات الماضي معيدا قراءتها مضفيا معاني جديدة عليها.

أليس هذه حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟
من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفة التمعّن في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية سلسلة أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟

حقا توجد فيه جلّ عناصر الرواية أكانت اسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.

هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي.

هناك عقدة هي في قضية الحال بحث الراوي عن هدف رحلته في هذا العالم وهناك بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرفت من مصاعب خاتمة، بل وسعيدة أيضا.

لرسم صور أبطال الرواية عرفت كما يفعل كل الكتاب من بعض من عرفت وعاشرت من البشر، لكنني عرفت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعنتي بطابع لا يمحي.
يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة للعينة.

إنها إشكاليات إما غائبة تماما أو يقع التعرض إليها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه الفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم هذه القاعدة. العكس تماما هو ما يفعله أو -بالنسبة إلى البعض- ما يرتكبه النص. هو من البداية الى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إليليا أبو ماضي في طلاسمة الشهيرة. بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن النص بمجمله تأمل في هذه الطلاسمة وكل الأحداث التي يرويها الراوي لا هدف لها إلا اثبات آرائه بخصوصها.

النص إذن أطروحة فلسفية؟ طبعاً لا.

شكلا حافظَ النص في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكوّنات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجديّة".

مضمونا هو ليس ردّا على آراء فلسفية لهذا الفيلسوف أو ذلك وليس محاولة للتسويق لنظرية جديدة استنادا لكمّ هائل من الاستشهادات والمراجع لإبهار القارئ بسعة الاطلاع. هو فقط جملة من التصورات لفيلسوف عصامي أو هاوي.

إذن ما هذا النصّ الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية والتصورات الفلسفية؟ ما هذا النص الذي يرفض وضع الحواجز بين الواقع والخيال، بين الذاتي والموضوعي، بين الجدّ والهزل، بين سفاسف المشاغل الفردية والتفكير في القوانين العامة التي تسيّر الكون؟

صراحة لا أعرف كيف سيصنّفه النقاد والقراء.

خاصية أخيرة لهذا النص. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن.

كنتُ أعتنم كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين-للاختلاء به حذفًا وإضافة وإعادة تبويب الفصول ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.

نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم عليّ غيابا مرتين بسنوات سجن عديدة، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيّرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.

أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والكتاب في المطبعة. لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهّل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملئ كتاب "الأيام" وليس لمستكتبه إلا الورق والقلم والمحرّبة.

وأبضا لأن الحياة بتجاربها المتلاحقة لا زالت متواصلة ومن ثمّ ضرورة مواكبة النص لموضوعه إلى نهاية العمر.

كل ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة هذا النص بعض المتعة التي وجدتها في كتابته وخاصة أن يجد نفسه في كتاب طموحه أن يروي في المتغيّرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الاحرام والوصول

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقاً فَمَشَيْتُ
وَسَأَبَقِي مَاشِياً إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمِ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
لَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدّمة الكتاب الأول

اللهم أتمم هذه الرحلة على خير.

همس العجوز الفقير بالجملة ساهماً كأنه يحدث نفسه، ثم تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل وقد انتهى الفحص. كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء. أذكر أنني توقّفت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

وهوّن ما تلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر (المعري)

وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما ننفك في دأب سفرا

وقوله:

أنا بالليالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ فما بالك لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء.

ألم يقل عمر الخيام؟

هيا لندع غمّ غد يا صاح

ولنعتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء

ألم يقل ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى "الواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا مبني على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام"

الحياة رحلة وهذا العالم بكل اتساعه مجالها! لم لا؟

ألا ننزل من بين فخذي امرأة كمن ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟ ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنگادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟ أليس أوفرنا حقا

من ينهي حياته مالنا جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عاندا إلى صمت العدم بمعنويات السائح الذي اغتم كل الفرص ولم تغشّه وكالة الأسفار؟ ومع هذا...

ثمة في الصورة الشائعة المغرية شيء لا يستسيغه فكري فرحلة الحياة تجارب حسّية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهد ونقطة نهاية اسمها اللحد.

حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنقلا بالأقدام، لكن جَلّ استكشافي له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن لا غير.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها. أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرها بدلا من تصوّره منفى ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال أساطير سيئة الصنع؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والادميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفراش وقوافل الطيور في السماء.

وراء الوضع ظروف وأسباب قاهرة تفرض ارادتها على كل الكائنات.

فخصوص البشر هم تدافعوا في الأرض ذات الطول والعرض منذ انطلاق ملحمتهم جريا وراء طريدة أو هربا من صياد.

للرحيل وازع هامّ آخر هو التبادل: تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات والتقاليد وكل ما نتشارك فيه ويجعل منا بشرا بالخصال وبالعيوب التي نعرف.

ثمة أيضا واعزّ الحجّ لأماكن اصطفاها الأدميون لموعد مع المقدّس ناهيك عن كونها الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقلّ طيلة أداء الطقوس.

قد يكون أهم سبب الفضول وهو أفضل خاصية عند الأدميين.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا تعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى

غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائفة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلى الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أية آلهة علمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاھيهم بشر في التوحش والتحصّر! يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب!

لا غرابة أن اقضي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين، مغامراء، طالب علم، سائحا، حاجا، لاجئا، أشدّ الرحال إلى كلّ فيج عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما في الوجدان:

سافر تجد عوضا عن تفرقه واتعب فإن لذيذ العيش في التعب (الشافعي)
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الجو دائمة لملأها الناس من عرب ومن عجم
والأسد لولا فراق الغاب ما افترتست والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقى في معانده والعود في أرضه نوع من الحطب

كم شاهدت من صحارٍ وجبال وغابات وسهول يكحلّ جمالها عيون المسافرين المنبهرين! كم لاقيت على الطريق من كائنات تنبارى غرابة واعجازا ... التي تزحف على البطن، التي تطير في السماء، التي تغوص في أعماق الماء، التي تمشي على أربعة أو على طرفين، وأغربها على الإطلاق الكائنات التي تسمى البشر.

كم توقفت عند آثار رائعة كدسها هؤلاء البشر على طول هذا الطريق!

كل يوم جديد والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا واللامتناهي كبيرا واللامتناهي تعقيدا، أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.

لكن كم من عجائب وغرائب لم يقبّض لي الانتباه لوجودها فما بالك التمتع بها!

كم من روائع مرّت أمامي تهيني عطاءها ولم أنتبه لها، كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى!

هنا تتقدّم القراءة كحلّ لشعور الغبن وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكان وضيق الزمان المخصص لاستكشافه.

أليست بديلا عن السفرات التي لم يمكننا حسن الطالع التمتع بها؟

ألا توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر والمتاعب؟

ألا تفتح لنا ذوات من لا نعرف من الأدميين فنستكشفهم دون أن نُثَمَّمَ باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس؟

ألا نتأكد إبان هذا التجوال في الذوات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيراً، فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا مَنفذ لأحد، وأنا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعاً من بقية البشر؟

داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهم النصوص.

هكذا ارتحلت مع بحارة حنشبوت نتوغل في بلاد كوش وبونت... مع حنون نتبع الشواطئ الغربية لإفريقيا... مع أوليس بعد نهاية حرب طروادة طوال عشرين سنة نستكشف كل ما يزرع به البحر المتوسط من غرائب وعجائب... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمماً وجهه نحو الشرق... مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام

ارتحلت مع الشيخ الأكبر والشريف الادريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وابن الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

ارتحلت مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراضٍ بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف... مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة... مع ابن البيطار منقبا في أسرار النباتات... مع البيروني ابحت معه عبر ربوع الهند في معتقدات أدميها المقبولة منها والمردولة... مع المجريطي أنقب في بغداد والبصرة عن رسائل اخوان الصفا.

ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع الاميرال الصيني المسلم تشنغ خه بحثا عن طريق يوصل الاسطول الضخم إلى مرفأئ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق إفريقيا... مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحت عن العلماء... مع كولومب شعاره شعاري: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا... مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سَمَّاهَا الأوائل دمعة الالهة.

ارتحلت مع خوان سيبستيان الكانو ووصلت متماوتا جوعا ومرضا اشبيلية مع السبعة عشر بحارا الناجين من أفضع الرحلات لكنها أول رحلة طافت بالأدميين حول العالم.

ارتحلت على متن سفينة بيجل مع داروين ومع بيرري وماندوسن وشاكلتون أستكشف القطبين.

ارتحلت مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات " البدائيين" و "المتوحشين" ومعتقداتهم هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بما نسميه التحضّر.

آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا نساء قبائل التبوّ يتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل.

يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلى إلا عبر عيون الذكور!

-

تسلّم مهما سافرت بالجسد أو بالقراءة أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

ومع هذا! يا ما تراكم في الذاكرة من أحداث! يا ما تلاطم داخل الذهن من أفكار! يا ما جربت من أحاسيس ومشاعر على امتداد طيف يسمح كل الممكن من تفاعل الذات مع ذاتها مع الذوات الأخرى ومع العالم.

نعم، إنه حصاد تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوّعها أفصح لسان لأنبغ مفكّر أو شاعر.

تأتيني يوما فكرة التدوين لهذا الحصاد، للرحلة بمفهوم المعري لا بمفهوم ابن بطوطة.

أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفده وصف؟

من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سفّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أسارع الى رمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّلت ظروف الحياة بوأده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدججة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بذكركها الركبان وتتناقلها الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعد عنّي أخطارا كثيرة ووقر عليّ كم من مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟

وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي توزّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم؟" يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أخرج ألقينه على نفسي، ربما لتزايد حدة الشعور باقتراب الأجل المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهددة بالتفكك، أو لسبب تحركه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكمت في الذاكرة على صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 14 600 من الرحلة

**

عالم ... عالمان ... عوالم؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة ...أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نسافرها كل ليلة! ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها نثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدناها فيه من غرائب وعجائب!؟

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن رحلة الليل، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الردّ على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال، بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟

تتملّص حتى "ما" من الردّ عليه. لما تفضّل يوما "با" بالردّ، تفاقمت حيرة الطفل، بل اندلعت فيه أولى المخاوف وأعمقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحدّث عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلّت الطريق وهي تحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير التي رضي بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفاف متين تربط "ما" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجينّة العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

في بعض أقدم الملفات ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسويف والمماطلة. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدّة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومثي المشاكسة. أشعر به قد غير اللّهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام.

يسقط الرأس-المرّة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرّة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب.

يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأم ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تنفع في صدّ الكوابيس.

نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع؟! لماذا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!!

-

توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه.

أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً أمنا تستودعه بكل ثقة- جسدا فقد تأهبه للكرّ والفرّ دفاعا عن وجود على الدوام مهدّد.

من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل -قل الذي سترحل- إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.

حقًا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيادون في عالم اليقظة لا تحسبًا لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام. ثمة بالأساس ضرورة التخفّف من صدى هموم هذا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نوّد.

وفي ملف عن زمن قريب، يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرّع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الأدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي. تعطلّ المصعد الذي يرفعها ويرفعني عادة دون جهد إلى الأعال المجهولة.

مصعد؟ تغزو الخيال صورة أكثر حداثة.

تتشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافذ الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبـي.

يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البسمية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحريز يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث في هذوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المنتسج. تتحرّك شفاته بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايد الارتخاء قشعريرة برد لذيدة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤشّرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دميمة دائمة الصمت. تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسّط الأجساد الحيّة، تبعث فيها وتمتصّ منها ببالغ الحذر شيئا ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصّة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادّة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماجريت.

هل الفنّ صدى لما تكتشفه الذات في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ ... لم لا؟ ربما هربنا من فضاء الحلم أيضا فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا العادية ونحن لا نعي.

ها قد أصبحت الذات، "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له، شكلا تخفّف من خصائص الشكل، فكرة مبهمة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

قال واحد من أبنه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟"

الذات الآن وسط حشود من الدمى في بعض المتاجر الضخمة. تحقّق فيّ دمية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبتسم. تصرخ فيّ دمية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أعتنم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدمى؟

تندافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاقيع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوي في أرجاء العدم.

الديكور هذه المرة نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المراض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق يا سيدي سنأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقيل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطّة ليحيّيه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار في شكل وجه معوجّ لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي...النرويج! أين يوجد هذا البلد؟

تتعالى من اللأمحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء تبتت في أشداق الحوت. يصرخ فيّ البحر أن أهرب غضبا غير محدّد السبب. ترعيني قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك.

تحضر الذات مجددا أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض،

أرفض. كم مرة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الرد صمنا ساخرا ومهدداً من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرات. المهمة! أية مهمة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم.

يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر تثبتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجلل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلقين في الفراغ. يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت مروجع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا، ينزاح الثقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خيبا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر.

تنتصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفاها منجها الى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكةا في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القليل. أنحني لالنتقاط نظارات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحدقون فينا بصمت، أدعوهم للدخول فيتدافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فناجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدا السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من آدمي دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بالنار!

-

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهد على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا.

أغرب ما في هذا الذي "نحط" عليه ونعيش فيه جزءا هاما من رحلتنا أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغير من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرّة ثانية بأربعة شمس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد.

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل مسافر يتلاشى كل ليلة بالسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الابهام بعض الثوابت، منها أنك لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوبا وهي لا ترتمي بين ذراعيّ؟

لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعترض من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تماما أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمراء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... وذلك إلى آخر منعطفات الطريق.

وأیضا أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها.

ويبقى أهم سؤال: ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة التي نسميها الأحلام؟

ثمّة الأقاويل القديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وأخرى عن مخاوف وشهوات مكتوبة تفوح الأحلام بنتنها.

لا شيء مقنع فيما تدعي وخاصة لا شيء عن طبيعة هذا الذي نشدّ إليه الرحال كل ليلة.

ماذا لو كان "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه دوريا للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية.

تصوّر أياد خفية تستلم الذات حال دخولنا الإغفاء لتفرك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الخروج إلى الواقع والعودة للصراع.

فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمُّ فيها-كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم وفض الغبار عن الجبال لنجد كل صباح عالما معافى جاهزا لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والنام هو العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية.

من أين لي اثبات رأي كهذا؟

إغلاقا لملف شانك سأعتبر -دون أدنى حُجة أو برهان متين-أن ما نسميه العالم هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلِّ لي أتصوره -ببعض الشماتة- مُنهمكا في كتابة أشلاء جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط يتوجه بها إلى قراء من الأشباح وشاكيا من صعوبة مَهمة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

تقاطعات الطريق التي ترددت أمامها الأقدار

أين نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم؟ الولادة! كيف نقرر أنها بداية الطريق وكل بداية لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية، إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهوميين ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع الخيال والفكر؟ أولى المعطيات حسب ما بقي مترسّخا في الذاكرة هذا الحوار بين الطفل وبين دليله الأول وهو في الرابعة أو الخامسة من العمر.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بأقصى ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا تقولها أم لابنها.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيئا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، حدثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحت له ابنا؟

تمرّ الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

العهد على الراوية ثم على خيال الطفل والكهل لتجميع أهمّ المعطيات عن بداية رحلته.

إذن تحرّك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكانها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته.

العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قاعا في زنازة رطبة ولا حتى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا. لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته كأنّ الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحق في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها شيوخ القرية؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع حركات الطالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى الدّ أعدائه؟ أم هل اختاره - رغم حدّة طبع واضحة - لأنّه كان وسيما؟

يأخذ الشيخ قراره باختياره هو لا غير وحسنا فعل. مهلا. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قبل أن تأخذ القصة طريقها الموعود.

كأنّ الأدمي الذي سأسميه "با" يتردّد.

أول مشادة بيننا ولو أنها لن تقع إلا بعد عقود وفي مستوى من العالم غير الذي نسميه الواقع.

- ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف سأوجد؟

- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أتتصورني مؤدّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أديبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستتشرف بانتسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية باحتقارها التاريخي للماشين وراء أذنان البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "با".

ثمة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "با" لك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطا في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجنب تقاتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية عن انتصار الغزاة القدامى على الغزاة الجدد وبحثهم عن ساعدوا أعدائهم، عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان.

هكذا وجد الشاب المتهور نفسه رغم أنه مؤدبا لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلم في الجامع الأعظم وهو ساخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعا.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب. لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللأممكن ممكنا.

أيرضى الشاب المتعجرف بفلاحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنوبيا أنها أنت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقاتلت فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء؟

المهم في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الآخر الذي بدونه هو أيضا لن أكون.

هل تردت المرأة وهم يواجهوها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجرة توقّر لبعلمها أيضا متعة عابرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذاب أخيرا ربغ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟

أم هل اكتشف وراء عيني المها ذكاء حاداّ بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن الذكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أنها بما يخبئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدقت، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قرّرت مشيئة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلا ما أراد كائن لا مردّ لإرادته.

كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه، بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أصوّرها منكبّة على الطفل الملهب بالحمى تناجي نفسها للتغلب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتاتا، لكنّ ذلك لم يحصل، كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل، كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء الأعينة ذلك الصيف المشنوم، لكن ذلك لم يحصل، كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الآخر المشنوم، لكن ذلك لم يحصل، إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ.

بقدر ما كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب " أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار بقدر ما آمنت دوما أن العكس هو الأقرب الى الحقيقة.

في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزّمان اتجاها أوصلها إلى شفيتها بالرّغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية.

لكنني أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.

نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما.

ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي وُلد الفتح الذي ولدت منه أن يتخذ له مسارا آخر؟
ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

سل عصابة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

كم من تقاطع آخر كان بوسعه أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!

كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجدّة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النحاسون الصحراء في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاباً وكرهاً.
ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجدّة؟
أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذة قصتي وقد انتصر آدمي اسمه هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

ربما كانت قصتي مع "ح" تتخذ اغرب المسارات.

يعيد الخيال تصور انخراطها في مسار اختارته الأقدار مختلفاً.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية درشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينها على الأقصى، تحقّق باندهاش في النادل الأسمر المقرب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجاً. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموردين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدداً نصيباً وافراً من السوط وهو لسبب وجهه-متهم دوماً، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها.

الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائياً نحو شعرها كأنّ فيها حنيناً غريزياً لجدانلها الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفوا يا دكتورة، هل ضايقت هذا العبد السامي في شيء؟

- لا أبداً، أبداً.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئاً!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفثيها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في متاحف المدينة عن لوحات رسام ملعون اسمه كارافاج وفي كل كنانسها عن موسيقى راهب اسمه فيفالدي.

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربة فريكا. يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch يا ما تحت الإنسان.

كم من تقاطعات طريق كان بوسع القصة ان تترد أمامها ثم يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتجرف:
- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئا! إنها أشهى المرطبات الثلجة في كل فينيسيا.
- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.
يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسياذنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفليها. حذار.
طفلتان! تفاحة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدق لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، مخترقا ساحة القديس حانون في اتجاه معبد بعل إله أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحدّق فيه فاعرة فمها.
ثمّة أيضا هذا التقاطع....

يتعالى الصراخ من ممرضات عنبر الرضّع:
- النجدة، النجدة!
تتدافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليتسمرن مذهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!
- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!
- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لأنّذا بالفرار!

فجأة يدوي عويل يصمُّ الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بالسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعاينة الجريمة:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبية. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أديلفة، أه يا صغيري!

تتقيأ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع المفضل لديها في كل المحضنة، بل وكانت تنوي تبني اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمتم كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القمص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدًا من ضقة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة نبّه لها كل كتاب قصص الخيال العلمي التي تعاملت مع موضوع الارتحال في الزمان.

من البديهي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت "با" يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها "ما"، ومن ثم لما وجدت أصلا. ما أعرب أن أدين بوجودي -مثل الكثيرين في ظروف أخرى- لأكبر سفاح في تاريخ هذا العالم؟

الخلاصة وجودي نتيجة لسلسلة طويلة من الأحداث كان بوسعها ألا تقع أو بصفة مختلفة منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وتردد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.

كلنا ننبثق من تسلسل أحداث كهذه لم تكن يوما لا مبرمجة ولا حتمية.

كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا اللمكتوب.

كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه.

**

تبلور الذات في العالم، انبثاق العالم في الذات

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوقّر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدّعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة. هذا ما يضطره لتصور قطع ربما لم توجد يوماً لكن وظيفتها أن تملأ الثغرات المزعجة. أكبر ثغرة في ذاكرتنا كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألحّ عليك السؤال غير تفحص وصول أقرب الأدميين إليك والفرضية اننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تباينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي ساكون له الدليل الذكر والذي سيناديني بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "با". انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركا وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل.

أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علّها تؤدي إلى اختفائه أو حتّى على البحث عن قنطرة أخرى يعبرها.

هل أقول للشبح ألا يجربّ معي حيله، وأني غير مهتمّ بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخّل لديها لتقنعي؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القوم، وليس هو الذي يترجّانا استقباله؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع دقات قلبيّ النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح هذه الفكرة فعلا... الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

أما أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حقّ أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحيا
أعيناني على أن أعيش أحلامي
وأهوائي لأكون لكما
زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تبتسم الممرضة وهي تمدني بنتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترسم الابتسامة على محيا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متناقلة الخطى
ترصد نظرات الإعجاب وأحيانا نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهات الراكض، عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعت فيها نتيجة الفحص في جيبتي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحضانها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من توصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة، أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بفقاز من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرمة سعيدة؟

مثلي لا يكتفي بالليل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

من حوار متقطع أنا فيها السائل والمجيب.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورة! سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معها. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقرائي كيف انطلق الطريق.

قربت لحظة الوصول ومعها تتعاطم مخاوف مبهمة. لم الفلق فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلم مهنته. أتخيله طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جدّوا، آخر اللمسات هناك. كأنك أمام مهندس عبقري صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل جميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

في محطة الوصول وهي غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بأدب أن أنزاح إلى الخلف حتى انتهاء مراسم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمّة الأيادي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكوّر دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط خبط عشواء. تتعثر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق البيضاء وأعضّ على نواجذني لأمنع الصّراخ الذي في داخلي، فتهتّر لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرّاً على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزاً أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكاً.

ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظنّ أنه أنا.

هل تتلأأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتجوّل داخل ذاكرة "ما"؟ ربما أنت محق في تردّدك، أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سُدّفقك إياها تجربة الحياة؟

تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي، ادفعي!

تتصبّب الوالدة الأزلية عرقاً. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها إنني لميئة.

تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أهرب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً.

أه، صدقتني وقررت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره.

هل يمثل هذه الحجج أقنعتك بالمواصلة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة.

كأنّي بك تتحرّك أخيراً نحو باب الكهف السحري مدفوعاً بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العالم والعمّة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحثك مبتهلاً مشجعاً ناسياً قراري بأن أتشمت فيك في أول مناسبة.

تطلق الوالدة الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالثمرة الطازجة، ككتفاحة لذيدة، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزغرد القابلة الأزلية احتفاءً بمجنيك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.
ثم صرختك الأولى.

هل هي حقًا مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية كما يقولون؟

ليدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة... هل هي من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ ... أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ ... هل أروعك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي فجأة كم ستكون رهيبه؟ ... ربّما رفعت عقيرتك لتتنذر وترهب... كم مضحك أن تتوجّه بالتهديد لعالم مدجج بالسلاح، وأنت الأعرل من كلّ سلاح... أداهمك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قريانا... أم هل الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا... ربما هي صرخة الدهشة وأنت تبصر الوليمة التي تنتظر.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه، المؤكّد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتميز فيها صراخ كائنات لا تحصى بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح.
لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب.

آه، يا تفاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. ولم تكن هناك أية هالة من نور حول رأسك الأصلع.

تطلب القابلة مني ضاحكة أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنتظر إليّ باسمه نافذة الصبر لاحتضانه. أمّتك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبتلّي بها البعض لأن الأيدي الخفية أخطأت في شيء ما. براقو، هي

لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كلّ الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لآخر سبوحه دقة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كلّ هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسّعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليات المخيفة، هل آخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجره إليه مشيا وركضا؟ سأدعوه إلى مطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدث عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمال والنصوص الأولى... كلّ ما أحتاج لبناء الرويا.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعلّلا بحجج واهية فطر دوني بيتسمون. أذكر أنّ النوم كان مضطربا، أنني أفقت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن آخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول.

أذكر أنّني وضعته بكثير من الرقة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنّني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقي عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة. ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعينني!

أذكر أن أمه نهرتني كي أبقى منتبها لأخطار السياقة وأنّني افتعلت سببا للتوقّف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعيّ لأفاجئ بعينين بالغتي الاتساع تتأملان عينيّ المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخل في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجزّب فلا أكثر ابتداء من المعجزات

- مرحبا.

لا أحظى بردّ وأكاد أغضب لقلّة الأدب.

- قلت: مرحبا.

كأنّي بصمته تكنّف، بل مع شيء خفيف من التقرير ونكهة من التهكم.

لم أعرف من كل القادمين الجدد من أتى مسلماً معانقا ومصافحا. لم أعرف منهم من حدث عَمَّا شاهدته في الرحلات الأخرى وما جَرَّبَ فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزَّبة من عوالم ما قبل العالم يقايض بها شيئا ثمينًا. وهذا الأدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشدُّ عن القاعدة. كل الأجوبة مضمَّنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكَّ تنتظر زمن البروز الموجه ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين.

مواصلة العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

عفوا، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمج؟ أنا ألخُ ! أدردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديدا. مرحى، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنّي. هل هذا حقا أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أوّل لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكننت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ هل أنت حقا مولود جديد أم أنّك والد كل قديم وكل جديد؟

يحق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديّك السافر لأبيك، سأنتظرك في نصي بما أريد وما أنا بأمسّ الحاجة إلى سماعه.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به ومندمج. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُرّب في عالم آخر.

أليس من الأحسن أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة، غير محمّل بالأم قديمة وعادات لا فائدة منها، أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لفصل آخر من قصة القمص.

الإفاقة

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟
قيل عن الردى أنه يغيب لما تكون حاضرين ويحضر عندما يغيب. كذلك عن
انطلاق الرحلة.

لتمثّل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.
مثلا تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

أو تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك
جحافل من الأعراب ليسوا أقلّ ضياعا. تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة
الخلق. تسمع دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "نعلم المنتظرين لوصول
طائرة الحبيج أن الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام
بلهجة فيها نفاذ صبر: "الرجاء من الراحلين التوجه حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5".
لا أحد يعباً بذهولك أو يبدو مستعداً للردّ على أولى الأسئلة. فجأة تسلّم عليك امرأة
بحرارة مهنئة بحسن القدم. يدفّعك غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُقّم
في صفوف متراسة تدفع بعضها البعض قدما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير
الانخراط في السيل ولا فعل أهمّ من البقاء طافيا على سطحه.

ثمة أيضا صورة الإفاقة.

تستيقظ أنت البّحار المبحر على أمواج الوجود شيئا فشيئا على صرير الشراع، على
دويّ الموج، على صفع رياح أرست بك في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بينك
وبين الزورق والسماء والبحر.

عند شطّ الحياة ألقئث مرسى زورقي (نازك الملائكة)

في الضباب تحت الظلام

إنها أفضل الصور عندي ولو أنها لا تفي هي الأخرى بالغرض.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا
عالم اليقظة. لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا
تفيق لذاتك تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخطب داخله أو يتخطب داخلي. أضف لهذا أن
يقظة ما بعد النوم تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف دخلناه أكثر من مرة.

ممّا نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة
قبل الرحلة؟ كل الصور في الواقع عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي
ستبقى إلى الأبد جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها
ونهايتها.

كل ما بقي منقوشاً في أولى ملفات الذاكرة أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول- سمّ المنعرج ما شئت- أحاسيس ومشاعر انزعاج وتبرُّم بحدود غير مفهومة.

إبان هذه الافاقة، يتشكّل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها، كجملة من المظاهر الموضوعية حولنا وأماننا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوماً بالغة الجودة. تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أهوج مرح، يداهيك بكلّ حيويته، من كلّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.

أنت الآن داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطى بمنتهى البطء والحذر. ما أعرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!

يدرك العالم المنكبُ فوقك أنّك ما زلت هشاّ غصّاً قابلاً لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ.

يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلاً. يتجدّد مغص الفراغ وكأنّ لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشعب.

تشعر أنّه لم يعد لك من طاقة على تحمّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى النوم لتبرأ من صدمة الوصول. أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا لتوّهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأنهم يتمنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة.

أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا ويترجع داخلها وقد فاجأه البرق والرعد.

إنها عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكاناً جديداً إلا ويشدّك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئنّ إلى ما أتيته إلا إذا كنت واثقاً أنّ ما غادرت تحت الطلب توب إلى متى تشاء.

شيئاً فشيئاً تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها الكائن الذي كان المغارة السحرية وهو الآن الحارس والخادم الأمين، قريباً المرأة التي تعكس لك أول صورك. يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي

بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقاً بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الأدميين تفهم تلقائياً منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشعُّ الملامح بالنور وهو منكبٌ عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائياً معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود إلى الصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن تريتُّ بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوماً على نفس الشكل لتتنقش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية أبسط إيذاء.

تتعلم باكراً الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والخوف، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوماً لهيب المغص المتجدد.

هناك إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة.

قد يكون أهمُّ انطباع للقدام الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم ما هو بأمر الحاجة إليه، أو تقتر عليه أشدَّ التقدير مهددة وجوده إن هو لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم. آنذاك لا خيار غير التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكّل باكراً في أعماق الذات دعامة الأساطير والأديان.

ما أعجب أن ندين بأقدم وأعماق وأبقى تصوراتنا للعالم لأحاسيس ومشاعر رضّع يتحبطون في مشاكل المغص والبلل!

**

الخطوة الأولى

تأتي مرحلة الخروج من وضع المتلقّي السلبي للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

عن هذه المرحلة من الرحلة بعض المعطيات المتفرقة في ذاكرة الطفل، لكن كل المطلوب منها تحت تصرف النص وقد أصبح الجدّ الذي يرصد بأقصى الانتباه عند حفيده أولى خطوات الأدمي على الطريق.

وفي هذا الملف تتوجه تفاحة إلى أبيها.

- "با" أخشى أن تجننك هذه البنت إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاجه لموعد هامّ.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تتسحب تفاحة مسلّطة عليّ نظرة فيها إشفاق وشكّ في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته البعيع.

لا تنتبه رضيعة لم تعلق بعدها سنتها الأولى للخناقة الضاحكة. تواصل زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجتها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جوانتنامو".

أ توجه إلى رضيعة تحدّق في صامتة بفضول واستغراب.

- ها قد أخرجتك من "جوانتنامو". أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم في عمرك هذا.

تجلس الرضيعة على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق فيّ مطولاً. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب.

ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنتقل كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة.

تتنصب واقفة مترنحة ثم تدير وجهها بحثاً عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف عالم سيره بها يوماً اتساعه.

تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

يفترّ ثغرها عن ابتساماة أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمرها وأبيها. تقلّب ببالح التركيز.

تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف.

تغيّر الرضية اتجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه.

تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوّق العالم؛ فاللسان-بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنتبه حرّة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضية براحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني.

تلاحظ البنت تغيّر النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

تعود لتسلّط عليّ نظرتها التاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرّة منعا وتقريبا. يشتد الخبط. آه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت!

الحلّ إرجاعك ل" جوانتانامو" لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاق الجري وراءك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومن جرّ نباتات أمك على الأرض. ستحتجّين لحظة متشبّثة بالقضبان الخشبية تمارسين عليّ الضغط والابتزاز بكياء فيه كثير من التكلّف. لكنك ستجلسين سريعا لمواصلة أبحاثك المعقدة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة. لا، لن أحبسك وقد جنّت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بنتا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتني بانتظار أن أدوّن بعض الملاحظات على حاسوبي النقال.

كل العالم في هذه المرحلة من الرحلة مختزل في تجربة حسية شعورية قوامها استكشاف الأشياء عبر ما تثيره من أحاسيس البريق والبرد والحرّ والليونة والمقاومة

- "يا"، البنت تكبر بسرعة. هل فكرت بالقصص التي ستطلبها منك قريباً. تذكر أن تفيحة حذرتك في آخر عشاء لنا من إعادة استعمال القصص التي كنت ترويها لنا. نعم لا خيار لك غير تجديد مخزونك القديم.

- تقاحة، ما زال أمامي بضعة سنوات وفي الاثناء انتبهني لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.

- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وأذاك يا ويلي من هذه الفأرة!
الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفل والكهل تنتهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقفت على رجليك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغردت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأرة.

يوم يقف الأدمي أول مرة على رجليه!

إنه يوم أغرّ حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتتطلق الزغاريد وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من التار. ها أنت تواصل تحسس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت سرّ العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه.

كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشة التي تقصم ظهر البعير.

**

المعالم الحسيّة الكبرى

لو تابعنا القادم الجديد وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهقنا وهو لا يكفّ عن الركض والرقص والنطّ والتسلّق والهرولة. لكن أهمّ ما يميّز هذه المرحلة من الرحلة اكتساب أهم أدوات دخول عالم الأدميين والانخراط فيه: الكلام.

الطفل قادر الآن على تسمية الأشياء التي تتزاحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه. ثمة الحصير على الأرض، القربة على الحائط، القلة أمام الباب، كانون الشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الواطئة التي فوقها قسعة الأكل في ركن من الأركان. بخصوص الكائنات الأولى التي تمّ رصدها خارج وداخل هذه الغرفة ثمة العنزة والدجاجة والديك والقط والحمار والجمل. ثمة الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج خاصة أيام جني التمر. ثمة نوع ثالث من الكائنات لا مبرّر مقنع لوجودها اسمها الأفاعي ومن بين عاداتها المقيّنة الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيات الأمتعة بنية القتل وليس فقط كالذباب لمجرّد الإزعاج.

هناك أيضا الكم الهائل من الكلمات التي تمكّنه من تمييز مكونات العالم البالغة الحضور والتأثير: الريح، الرمل، النخيل، الشمس، النجوم والقمر. كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم.

المهمّ أيضا أن بقدرته تبادل المعلومات وحتى الرأي مع البشر الذين يحيطون به وكلهم يتشاركون في اتفاق ضمني على أن اسم المعزة هو لذلك الحيوان اللطيف الذي يعيش في الركن الغربي من الحوش وليس للحيوان الذي يركبه جده عندما ينطلق كل صباح لمكان مبهم اسمه الغوط لا بدّ أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرف لحدّ الآن أسمائها.

ترى أين هو هذا الحقل الذي يذهب إليه هو وحماره الذي قرر الطفل إطلاق اسم عنتر

تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدّة غير معهودة فيها:

- أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح!

يفلت الطفل من بين ذراعها هاربا من جديد لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثم كيف يضَيّع فرصة تأمل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟ هو الآن مختبئ وراء نخلة يجبل البصر مبهورا في اكفهار وجه السّماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالي بعصبيّة متزايدة كأنّ إليها يقدح ولأعة تعاكسه، أو كأنّ عفرينا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفّي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته

بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جدّه يساعده في سقي النخل. تعبّره لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال-خاصة هو-من حماقات.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا هذه المرّة وراء أطول نخلة الحوش يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوّة إلى الغرفة الصغيرة، تحميه من جنون الرياح تطمئنّه وتطمئن نفسها:

- هل تشعر بحرقة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يفتني الآثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الرياح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده: كفى الآن، لا خروج قبل نهاية العاصفة.

زارت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج الطفل لأحب أماكن الواحة الى قلبه حيث له موعد متجدّد مع أهم معلم من معالم العالم.

يصرخ في أمه محتجا، مهددا، مبتزا ومتوسلا:

- أريد أن أذهب للعين حالا، حالا، الآن، الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم ستذهب للعين بعد سكورن الرياح شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبّل الماء كما تفعلين عندما تلتئمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الابتسامة.

- حقا أنت "حُوف" كبير، لا يفونك شيء. لا، ليس عليك أن تقبّل الماء، أكرمه فقط بعدم تبذيره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحماره عنتر من عنت ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.

يقولون إنه بلا طعم ولا أطيّب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش. يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان. يقولون إنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء. يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشمّ.

هو في كل الحالات والأشكال القدوة التي لا تضاهيها قدوة.

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه فلا بيتنغي شكرا ولا يدعي فضلا (أبو ماضي)

وكيف يزّين الطلّ وردا وعوسجا وكيف يرّوي العارض الوعر والسهلا

تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الأيلا

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلي

لا خيار للطفل غير الانتظار إلى أن تنتهي هذه العاصفة ومواصلة سماع أم تواصل رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيِّتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تنتهّد الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن ينساها الطفل أبداً:

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

ثم تعود للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل رغم تواضع النتائج.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبداً لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحرزاني؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلاً لغير متعة الضياع!

وفي ملفّ آخر يؤكد "يا" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثّر عن الأنياب: لمّا هبّت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوماً كاملاً والريح تمحو الآثار. ولمّا بدأت الشمس ترميني بأشعتها كالصيّاد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلّني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. عند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياماً بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهاراً وأمشي ليلاً إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرّك يا بني- من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضاً لمن لا يرفع تحديها.

تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر من جديد وتحذّر عبثاً.

- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في العالم.

- يا بني، لا تنتظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤدي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگّسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "ما" هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار ردّه وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فهوت من علوها كالطير الجريح. ها هو في فضاء خياله يمدُّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يريق على الجمره الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سببت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران.

الطفل الآن حبيس الحوش. ممنوع عليه العودة للفضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟

يغمض عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع.

تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبتّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

الظلام أخيرا بعد طول الترجّي ونفاد آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار حب ابية للصحراء وبغض أمه لها خاصة وقد جاءت لها هي وطفليها مرغمة وديعة عند عائلة الزوج الغائب بانتظار رجوع لا أحد يعرف مواعده.

أفتح هنا القوسين لأعرب عن اختلافي التام مع "ما" رغم احترامي لرأيها وشرعية حبها لأراضي خضراء على مدار السنة تحمل أجمل بساتين الزيتون والعنب.

صحيح أننا كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ندخله ومن مكان لم نختره، لكن العالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تدخله وفي أي زمن تتبلور فيه. لكنني أقولها متحملا كامل مسؤولياتي أنه لا يوجد مكان أحسن لدخول العالم من بوابة الصحراء، شريطة أن يكون الدخول ليلا.

نعم الصحراء جهنم في عزّ الظهيرة وأروع مكان على سطح الأرض عندما ترحل الشمس عنها.

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قدها في الصحراء وتهجمها على شمس الأب والجد:

- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تتقلب فيما بعد إلى...!

تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع نغاء الجد الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- أه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي أطف وأرحم!

- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعا ويتشاركون فيها منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظا بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفيئا. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش البخنوق الذي تلبس؟ هل كان ثوبا سحريا تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.

- أنا و"با" وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخرا هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهر إذا حلا لك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المخيفة التي يتخذها عندما يتسرّبل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوايبس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللصوص والعشاق؟

هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وأنه من أوحى للشعراء بأرقّ وأجمل الأشعار.

من علمّ الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟

ثم أكثنا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم والمعلم؟

كم عمر القمر؟ (إيسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريبا

أهمّ من كل هذه المشاكل فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.
- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.

تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.
- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه شيء آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يتقطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهمّ الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمكّن به الكائن العطوف الذي تصلي له أمه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصدّ به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليجوّر-بكيفية جذرية-وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على

سطحه الكائنات الأئمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأعداء، ذلك المدعوّ في قصص قومه "إبليس".

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفّسوا الصعداء وهم يشاهدون بأمّ أعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنّح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار. يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقّف ابدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطبك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صدّقني، يا بني، لا أدري.

- سأقول ل "با" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس ومن أي شيء خلق الله القمر. سيكون متفقاً معي في كل ما أقول.

- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.

- "ما" أريد أن تروي لي أطططططط طول قصّة في الدنيا، أنا أحبّ القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدّتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدني...

تضحك "ما" بحرج.

- صحيح أنني لا أحبّ القصص... قد يكون لأنّ جئها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقت "ما" حقاً هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئاً من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعدت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. أليست هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الأدميين؟

يعود الطفل للكلام وهو مصرّ على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما يزخر به من إمكانيات لإشباع فضوله وخاصة لمنع التواصل مع أمه من أي انقطاع. تقاطعه الأم تضع اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

- أنصت لأي شيء؟

- للصمت.... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سيحلم به الكهل طيلة الرحلة وهو محاصر، مهّدّد، معتدى عليه بكل ما يصدره الأدميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرع وشخير وتسايب وهتاف... لا خوف حتى منهم ومن كل الكائنات التي تسكن الصحراء على رفع العقيرة بأي ضجيج منكرو وقارها يئنّون عن كل ضجيج بذيء وعن كل جذل

عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ نوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا... ففي ليلها الذي لا يشبهه ليل، في صمتها الذي لا يشبهه صمت، يتسوّع الجوّ إيحاء ووحيا لمن يعرف التقاط الإشارات ، هكذا يتجدد التواصل بين السماء والأرض... ولأنه لا الجبل ولا السهل ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء ليلا من أعماق الذات، حُكم عليها وعليها وحدها بإنجاب الأنبياء... لذلك وقف كم من آدمي منتبه في حضرة أبيه صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: نعم تنكّرت الآن من أنا، تنكّرت من نحن، تنكّرت ماذا تفعل كلنا في هذا العالم!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدبر ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سوءه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عتّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس ليريق ما يتلأأ في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها-في ظلمة الليل-عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سيورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقبيا في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمّه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لراه جالسا على عرشه. أه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقى هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتناجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صوروا مشوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق.

إنها آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إنه الفجر

تهزّ طفلها برقة متزايدة الحزم فينهرها صارخا:

- أتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألمج خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلون ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحول إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجمّد بعد في سبائكها.

ما من شكّ في فضل بناء معابد ماتشوبيبتشام على البشرية جمعا. لا أحد يعرف كيف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوند. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أنا ربما ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما اطّلت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات.

تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله بينسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسّم الطفل أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء.

إنها حالة يتخذها العالم الطاوس عندما يقرّر أن يفتن أنظار الزائرين. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. ألبهرنا بغناه وحسه الفني المرفف، أم ليعوّضنا عما سنلقى من عناء في دار ضيافته هذه؟

**

معلم الزمان

شيئا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي أفاق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله.

تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير.

وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج إليه بحثا عن "با".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال. فالشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ثم يعود.

يكشف الطفل يوما أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحيانا تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هو. أية دهشة كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب وهي تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصيدة بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حمايته من أخطار مبهمة.

ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحب هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبوب والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القرّ بعد طول المعاناة من الحرّ.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجمّ. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يوصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح ويواصل الكهل العمل عليها بالفكر والخيال في بحث لم يتوقف يوما.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي الفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا عندما نعود لأرض جدتك، بعيدا عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دوالي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضل عند الله؟

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدم الطفل لأول أيام الخلق مرحباً ومهنناً بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهش نافد الصبر-بعصاه وبيعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتصرف متأففة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرر خرقا لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجدداً عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جل المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلى بها وما يزال. هل عرفتم نهارة طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوفر على الدوام. صحيح أنه كان يوسع الفنان الأعظم أن يظهر مزيداً من الكرم أي مزيداً من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتى تتسارع

كلّ صباح للنافذة لنصرخ مرّة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفّ، ما هذه الصفرة الغيية التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنّه سيكون يوماً بطعم القرع.

تقول كفى دلالات يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحليّ والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتتدافع الكائنات من مخابنها، تنتفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها أنّها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أوّل عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع (ابسا)

حتى ظليّ

مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابنها. تسكرني ما تبتّه الحشائش والأزهار من رسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعلم عدم الانتباه مواصلاً الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعاً بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها- عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عبّاً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتّمان صفقة لا تريداني-ظلمًا- طرفاً فيها.

أه، كاد السيد ربيع أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطيّر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع.

نعم، ما من شكّ أنّ الربيع أوّل الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كلّ ساحات اللعب في عالم جنّاه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحباً بالصيف ومهنئاً بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متردداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قدت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بلقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأميين من شبق. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحب وتتمنى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغير الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكّد.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدم الطفل لأول أيام الخريف مرحباً ومهنناً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتثل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تذرّت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عزاء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيهها دوماً حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصة الموت. تمتلئ السماء بأشلاء وبقاياها وببقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحملة وروداً حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والنتني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيراً مسترسلاً ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلم الأبكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أروع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، لم تشاركوني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّباً ومهنناً بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدة البرد. تتلكأ حبات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقته تشدها بقوة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقدّة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتحمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

حتى لا يتعطلّ الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوما فضول مؤرّخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفادا اتخاذ أي موقف، الأول مكتف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّا في أذن الربيع: أنت الأوّل وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الصيف: اصطفتيك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم ورائك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرر نفسها بثبات عبثي مملّ وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة بداية أن تكون نقطة نهاية ولكل نقطة نهاية أن تكون نقطة بداية.

**

الدليلان

في بعض أقدم ملفات الطفولة ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسئوليتي. سأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل لأول مرة للفرق الهائل بين الصحراء والسهول الخضراء وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.

ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتخيل.

ثم ها هو يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين أمثاله.

يتفطن سريعا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفافة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأنى يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بغمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

ثم يأتيه ألدّ إرهاق فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنسوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخوارق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحباً تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شينا فشيئا تنقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أمّ وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.

ينصت الطفل الذي يفتعل النوم لهمس مسموم يعلمه باكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أكثر ايلاما من اللّكّات.

- أه، هذا هو الطفل الكبير! الله يخليه لك. نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحّمت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسماننا... أه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكننا الطيب! ...

تري أي مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محمّلا بتعليمات وأمان صامتة غير التي يحملها اسم ملك مقاوم سيموت مسموما ومنفيا اختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار. أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إدماجك في مشروع مبهم، في أمل واسع، في مهمة غامضة عليك الانتباه لها. لكن من أين لكل عمر أن يصبح الفاروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخّصا وإلها!

تنتهّد احداهن بصوت عال تفتعل أقصى التعاطف والأسى:

مسكين حقّا هذا الطفل. يقال في كل القرية أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس. أرجو الله أنه ما زال على قيد ...

لا تجد أخرى لإظهار فطنتها طريقة غير الاستشهاد بإحدى حكم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا في امه:

- لا أريد أن تموتي أنت أيضا، أتسمعين؟ إذا متّ لن أكلمك أبدا!

تحكم الأم ذراعيها، تمسح دماغا يتهاطل من عينيه ومن عينيها:

- اطمئن. لن أموت، هدئي من روعك.

- و"با" ... هل ... هل مات؟

- يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

تجمع النساء حوائجهن يتلعثمن ببعض عبارات الاعتذار لائذات بالفرار.

من قال إنه إذا كان بقدرة الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من السوء فإنها لا تتردّد أبدا؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:

- أبوك في مكان لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا...

عشاء... هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز

الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها. ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد.

يصرخ الطفل: "ما" لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا. تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كان بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجّر الضحك. تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاءت فكرة عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.

تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدر وصفير الثعبان راميا بأخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش.

تتخلّل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجّلي؛ ابني جائع.

فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أنت لنا بقفة فيها ما يكفيننا لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثارة، مرحلة تبرز من قريتها دوريا لتفقد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها، بالخيرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفطور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاويه يوما فطور. تلتحق بهما بعض نسوة الحيّ. جئن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط المدينة الصغيرة وقد أفاقت على حصار دبابات الاستعمار.

تصرخ الجدة في الطفل الهائج وقد نفذ صبرها من ضججه.

- إن لم تكفّ هرجك فإنّ العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما سترى.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما ستهدده الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبية بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يغض الطفل عينيّه، يترصد قلقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يغرق في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاء؟ يتعمّق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها

يصدر الباب صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هربها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجاتك دوما في الجيب؟

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبّيثة؟ أه، العبّيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جئا أو إنسا وأنه سيشرح رأس العبّيثة بحجارتة لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

يتوسع عالم الطفل تدريجيا ليكتشف كم فيه من روائع وأيضا كم هو زاهر بأخطار غير التي رصد لحدّ الآن.

- "ما" من أخطر؟ العبّيثة هنا أم الأفعى في حوش جدّي؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبّيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سرا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهمس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو عفاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب جهله، يريدون الشرّ به وخاصة "با".

هذا عالم أولى وأقدم العلاقات به الخوف فلا شيء متوقّر فيه قدر الأخطار أكانت أخطار الطبيعة أو الحيوانات لكن أخطر ما يتهددك البشر. لذلك كان وسيبقى البحث عن الأمان أولى الأولويات نترجاه من حماية الأقربين، من البيوت المغلقة، الشرطة في الشوارع ومن الجيش على الحدود.

يا للطفل المسكين لو علم تلك الليلة أن له موعدا مع البشر الذين تسميهم "ما" أولاد الحرام ويسيئهم النص الذين منهم كل نقمة!

يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تنتشج يدا الدليل الذي لا ينام إلا متحفزا حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لناأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلّمكم إياه.

يتردد زوار الليل. يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تنشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفَع أبرياء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أيما عند الجيران.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها أفضعها أن يبقى دون أب ككل الأطفال.

ترى أين هو والده وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوما ومتى سيعود كما تمنيه بذلك أم تبدو هي الأخرى جاهلة بما يريد معرفته؟

ذات يوم تدخل البيت امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "با".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملونة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خففي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير.

تطلق "الدقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.

- وهذا الطفل؟

- انتبهي، إني أرى عينا شريرة ترصده وإني أرى كارثة قريبة تنهدده!

تعود الأسارير إلى تجهّمها.

تندارك 'الدقازة' ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كل يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي. ضعها في كيس صغير واربطيه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمام. إنهم يريدون به وبوالده شرا عظيما، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصيبة.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حركك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما أحتاج وأعطيتها ما تنتظر.

توقّف على صورة الدليل الأول الذي يضطلع في كل القصص بأولى وأهم الوظائف: حماية القادَم الجديد من عالم يعجّ بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبداً له وتبرّكا! كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابة في الأمر؟ هو الجسر الذي يحملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود، مدير التشريعات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات، من يقود أولى خطاك في العالم، أول مرأة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يستقيل ولا يطالبك يوماً بخلّاص الساعات الإضافية الطويلة التي يحرمها قانون الشغل!

أي آدمي لا يدين بأجمل تجارب الحياة لدليله الأول؟

لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلا وأسمع صوتاً يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخروا به منّي لاقطة قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأمك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعاً وابتدالاً.

تري ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟

يا ما تعلّمت عن الأدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقدّمون كأطهار وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة!

لا أكره شيئاً قدر من أن أكون متعبداً لصنم حتى ولو كان صنم "ما".

تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختاً غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تتصاع مكرهة للأمر الجافّ.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحياناً... تضربني.

ما العيب في أن تفضّل أمّ أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتّر إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من علوّه والنهشّم إلى ألف قطعة.

ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائناً آدمياً بنواقصه على التعلق بصنم طلي بالذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تنازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتأملها من جهة فترى وجه "كوماري" ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت "كالي" تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة أساسية لفهم الأدمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه المظلم ابحث عن النور المظمور وراء السحنة البشعة. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!

عقوق؟ حقيقة مخيفة نرفض بشدة مواجهتها.

كم من دليل أول ما ان استلم القادم الجديد نازلا من أحشائه، إلا وبادر بلفه في خرق قذرة ورميه في أول صندوق قمامة وفي أحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على اعتاب مسجد او كنيسة!

كم من دليل أول منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق!

شواذ تحصى ولا يقاس عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة أم أو اب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القبول الذي تمثله كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي وبين النقطتين كل الممكن من الحالات والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة واغلب الوقت من مزيج من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي تكتب بخصوصه رسالة شكر للإدارة العامة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا)

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جدة وأم وخالات وجارات وكلهن يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة عالم انثوي بامتياز.

تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفت كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البطيء، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حادة.

لا تتعجّل الزمان يا فتى. يوم تعركك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتدّ الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلّل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمّني النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

الهاجس الآن ليس العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الثاني. على فكرة لماذا دليان وليس دليل واحد أو حتى لا دليل أصلا كما هو الحال عند بعض الكائنات الحية التي تولد وما عليها إلا تدبر أمرها وحدها منذ نزولها للعالم؟ ربما لأن مخطط الرحلات أدرك أن رحلة الأدمي هي الأخطر والأكثر تعقيدا أو انه انتبه لعيب أو هشاشة في تكوينه ومن ثم ضرورة اسناده أطول وقت ممكن بدليلين يتناوبان السهر عليه.

-

المشكلة في قضية الحال أن الدليل الثاني غير موجود في مكان شغله.

أين هو؟ كيف هو؟ أي ملابس يرتدي؟

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط أمام المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسودا كثيفا. ألم تقل له "ما" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتخصّص الطفل الأدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً.

يتعلم الطفل تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس دامج العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يولّد هذا الشعور عنده قلقا دقينا لن يفارقه يوما.

تري، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه

القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

لا ينفخ توّسل "ما" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد.

ثم تغلبه حيويته. لا بدّ أن هناك حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو- هذه المرة- عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد.

ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات. ألم نصنع أساطيرنا وأدياننا بهذه الطريقة، ننتقي أمام أصعب المشاكل الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وأخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغمّ. لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصّدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له... لكن ضدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضية.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأنّ الأقدار رأفت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشاكل كأنها تفنّقت عن مخيلة شيطان كالولادة مشوها أو أبان مجاعة أو حرب وحتى مصابا بأمّ تقترّ في حبّها أو تبالغ فيه. ما يفرّق بين قصص الأدميين نوع الصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهةها. كأنّ العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشفك يلاحقك بالمحن والامتحانات من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرني براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا الويل والثبور لك.

تقترب الأمّ من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوما وكأنّه مصنوع من الضباب. ترتفع يدها ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث.

تزججه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلّقة. كان لا يشعر بالأمان إلاّ واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كآته- على صغر سنّه-صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرحوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجبران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطّع الأنفاس، أخذنا القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنه لم يتكلف من العملية إلاّ أسهلها. كأنني به يتنفّس الصعداء وهو يتأكّد أنّ القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياء ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السريّة.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيطركني غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه. الرحمة!

-لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفقت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون لك الدليل الثاني وتدبّر أمرك معه.

توقّف الآن على صورة هذا الدليل كما حفظتها الذاكرة وكما لم يكفّ الخيال عن تغييرها إلى يوم الرحمان هذا.

كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لابس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغاً في عيوبه ومبالغاً في خصاله إلى أن تتقارب فتتمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان. كانت صراحته سلاطة لسان. كان احتقاره ناراً حارقة. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجراته، كفصاحته، كوقاحته، شيئاً خارجاً عن المألوف.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعاً ولا نراه عيباً إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهك حتى تكتشف من يخفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة.

سمعتة مرة يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة على الراديو لم يعرف لها ليل الصحراء مثيلاً، المغنية كوكب الشرق، القصيدة نهج البردة، الشاعر أمير الشعراء والمستمع عبدكم المتواضع.

ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتم من نرجسية رجل حفّظني باكراً بيتاً لن ينمحي من الذاكرة:

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أبّ مثل أبي (مهيار الديلمي)

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيد "أينفّاس"، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

كم من مرة سيجمعنا قل سيفرقنا في الواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصمّ وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

نموذجاً هذا الحوار وكيف أعادت المخيلة صياغته انطلاقاً من كلمات وجمل متفرقة زماناً ومكاناً علقت في الذاكرة إلى الأبد.

- "با"، لو تزحزح جنابكم قليلاً لأبصر شيئاً من هذا العالم، لا أرى إلا أظهركم الموقّر.

- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدلّيك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع فدلّيك بالحرب أحسن خبير. هيّا، أسرع لنغزوه ولا تضيّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجي من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنّى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تتشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

- "با" أريد أن أسألك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعصّ باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينبح. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا.

- "با" اسمعني أنت ولو مرّة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيادا حتّى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يقودونك إلى صحارٍ بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرارٍ بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها، لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي.

في هذا الفصل من القصة يحكم على الطفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار.

ينتهي به الأمر جالسا على عتبة الباب يأمر الله والعيثة والجن والغفاريات وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه-ككل الأطفال-من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تهمس الأم في أذنه لا تخفي قلقا متزايدا.

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد...

- لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سويا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة. تجرب الأم مخرجا آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأنّ...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبدا جبانا!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمّام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمّام الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن وفورا.

تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية، المخرج الذي سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. ثم يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصقّر وحش أسود صفيّر الرحيل. تبصر أم مطّلة بحنوّ اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينيّن دامتّين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا وتكرار على طول الطريق.

**

انقشاع الضباب عن الأفق

قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة. يشعر الطفل النائم بوجه جاف التصق بوجهه. تداومه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدفان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الشعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وبنفس الشعور البغيض إن لم يرحل. تسرّ "ما" في أذن الطفل أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها ستراققه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ، "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمّه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسرّ الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاحب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى اتركه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان "با" دوماً في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأن وقتنا جد محدود، يضيّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضّيع وقتك أنت نفاق منه ونبدّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلّمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخراً بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تنفتح أخيراً قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات. يصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظاً.

- "با هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟
يجيل "با" البصر حوله بعصبيّة مشيراً للطفل بغلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينقذ وصول القطار الأب من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل-وهو لأول مرة في جوف الوحش الأسود-ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه. يهرع تلقائياً للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنفه فوق الزجاج.

يتحرّك القطار على وقع الصغير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أيديهن أمام أنوفهن ضاحكات متأففات. تتسع حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريباً يومها ألا يعاب أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربة المكتظة إلى هوايته القديمة: التّفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با" لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبداً.

كان "با" لا يستقرّ في مكان إلا مكرها كله تحفّر لاستئناف الطريق. كان الحّل والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتا وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده.

تعرّب عن الأوطان في طلب العلا (الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

كان على الشاعر الحكيم إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقرانه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي والمساكين لا يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيدا أجنبيا بسيدٍ محلي و غاشم من وراء البحار بغاشم من وراء القرية.

ثم يعود للتركيز على نافذته متعجبًا من إعراض الناس عمّا يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوما كل المسافرين... أنه سيجلس يوما مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطلوع قمر.

ينتبه فجأة للتغيّر البيئي فيما يشاهد خلف زجاج النافذة والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراضٍ موحشة غيراء اللون تميل-كلما تقدّم الركب- إلى حمرة قانية.

تدرجيا تغرق المناظر العجيبة في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمرا بالجلوس أو الأكل. أخيرا يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متناقل الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.

- "با"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نببت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسب والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلّما هوى السوط وكأنّ ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ بوسع الثعبان الأسود الجري نهارا كاملا لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود. يجب التنبّث من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدًا جدا؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.
- وهل ستسافر إلى كلالللالل أمكانه؟
- يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.
- لا، لكنني أحاول.
- سأحاول أنا أيضا؟
- وهل أمامك خيار آخر؟
- يرتمي الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطيّر. ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:
- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.
- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
- يعود إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:
- استيقظ، سيفوتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:
- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنّه في خطر. يسأل الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثمّ ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
- يجرّ الطفل دليله المندesh يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟

- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.
- سأقول ل " ما" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنام قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بانحساره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجول بما أنه ما زال أمامنا وقت.
- في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللعنة.
- تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم اقل لك إننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد عن هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فالتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
- ينتفّس الرجل الصعداء.

- أعدك أن آخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن...الآن...الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفت عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟
- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.
- أخيرا الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة ويقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق.
- يحار لّيه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.
- يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.
- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.
- لا أحبّ الجلوس.
- افعّل ما تشاء.
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟
- تدوي قهقهة الأب.
- سنتعيني كثيرا على ما يبدو.
- نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبّة.
- تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبرّ تتكدس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحمّاماتة الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمائها الفؤار كل الأمراض.
- ثم تغوص الحافلة المتزايدة تعباً في مبهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.
- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركّاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحائر كانت تستأهل يوماً اسمها ذلك لأن الصحراء التي لم تكن دوماً بحار الرمل التي نعرف. كانت هذه الصحراء لأربعين مليون سنة خلت جزءاً من محيط اندثر سبحت فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان.

قلّ من ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضاً سينمائياً وليس على الشاشة إلا صورة للعالم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقشع الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعاً من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

كعادته يجب على الطفل القاء أغرب الأسئلة.

- "با"، هل البحائر بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- إذن الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو فجأة في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصاناً.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "با".

يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلاً على جرح بسيط وحوله العالم بكلللالل غرائبه.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر !

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدين أن أنظر إليه؟

- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟

ما لا يعرفه الطفل ويعرفه كل ركاب الحافلة قدرة هذه الأراضي القاحلة أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء متعة للناظرين. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيدة، قوية أشهراً

وأحيانا سنينا رحمة الغيث لتعود الأرض ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.

يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.

- "با" انظر، انظر!

- إلى ماذا؟

- لسائيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.

يضجّ الجمع مجدّدا بالضحك.

- إنّها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟
احمد الله أنّها تصل بنا.

فجأة يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنّهم رفضوا الانتظار. يدهم الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت، "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

- فالّ الله ولا فالّك.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمّت متجمّهم. يأتي الطفل لأوّل مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم.

تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس. أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.

إنها آخر محطة قبل الوصول. يتسارع الركاب إلى الباب كالفران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.

يضع مجهول يده على رأس الطفل متشبّثا بيد الدليل: إنّها بركة هذا البريء.

يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

- أنت، تعال معي.

يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:

- انتظرني هنا حتّى أكملّ الإجراءات.

- أية إجراءات؟

- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا. لا تتحرك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيراً، يده على خده، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفصولي. بدهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوماً عن المزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي هنا غداً.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكاً، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عنيّ واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكرّ دوماً يا بني- أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء....

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوماً رجالاتنا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفاً.

مما بقي عالقا في الذاكرة من خطبة طويلة أعادت المخيلة صياغتها وترصيعها باستشهادات شعرية ترفع من قيمتها: الخاصية الأساسية لأشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خدبة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحرّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوماً جباناً وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلماً بنسبي. إياك أن تشبه يوماً هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.

ها هو يغلي بالتهكم وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استنعجوا" وجعلوا من الحروف واستكانته للمقصد والسكين نموذجهم الأعلى...

-إنه شعب من الرعايا لا يبحثون إلا عن يراعهم كمن يرعى الماعز والغنم. لن أَرْضَى أن أكون من قطيعهم ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب.

كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية تافه. لكن كل كرهه كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغى شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد آتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا "خير أمة أخرجت للناس".

يواصل زمجرته وهو يجذبني بكاد يخلع كنفِي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وآه، أي ذنب ارتكبت لأكون من هؤلاء القوم!

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفترّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور يا فتى-جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

كيف لا تطبعني نظرتَه للعالم وطريقة تعامله معه ونحن لا نصنع نواتنا إلا بما نأخذ من الذوات الأخرى؟ ... إنه هو الذي تعلمت منه قاعدة القواعد: عندما تصل أهم مقترقات الطريق، احذر اتباع الأسرع والأسهل والأكثر أمنا فليس في نهايته إلا الطعم... أما الطعام ففي نهاية الأطول الأصعب الأكثر أخطارا وفاز باللذة الجسور.

- "با"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدًا جدًا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مدنه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهجرها، ذلك أضعف الإيمان.

هذا الرجل هو نفسه الذي سيردّ لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفياّ إلا لهذا الوطن مهما جافاك وظلمك... وتدبر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقفين هو الذي يجب اتخاذه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "با" وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكتشف هو الباهر الذكاء أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنًا ومنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بدّ لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونًا أو ميتًا. يتوقّف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.

- لا أريده. لا أحبّ لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضًا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.

- قلت لك البس.

متوجها للبائع: بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الإكراه.

- لا أريده، لا أحبّ لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه "با" بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوة.

- والآن البس بسرعة، وإلا فاتتنا الحافلة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

إنه مشهد لا أكثر منه ابتداءً في علاقة الأدميين ببعضهم البعض.

القانون الأول في هذه العلاقة سعي كل ذات لتطويع الذات الأخرى بغية تفويضها واستعمالها وتوجيهها في الاتجاه الذي يخدم مصالحها... ترى مظاهره في تصرف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم... حتى العلاقة الدينية ليست إلا إرادة الخالق تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، وإرادة المخلوق تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد

بالكفر... كل الفوارق في تباين إستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرقّة، الصّدّ والوصال.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضريبا. ثم يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. تتباطأ سرعته وقد جاءه التردّد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.

- لا أريد أن تقول لجذّك أنني ضربتك....

- بل سأقول له أنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول

ل " ما". نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!

- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدّك.

- وسأقول أيضا لله.

- لا تقممه هو الآخر، يكفيني مشاكل مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟ يتمسّك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تندافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

- بعد المرطبات وزيارة جدي، نساfer معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكللللل الأماكن التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجال؟

- شريطة ألا تقول لجذّك أنني ضربتك.

- كلمة رجال.

يعود الطفل إلى الصراخ:

- جدّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخّر منه مجدّدا كل حسن استعداد:

- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار. كفتّ عن الجري، كفتّ!!

وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل ليطغى صوته على صراخ الريح:

- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إته أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الورا، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن والده لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل. كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، ساخطا، لا يحلم-وهو منفى عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدث عن كئيبها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يردّد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانيّ أن امدّد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرّة الأخيرة في "العرق"... أن أجيل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل سترى جدك. انتهى عذاب الطريق. تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمل العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأدمي مثلما تتعكس في الأدمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذاك من هذا وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلفّف الطفل صدر عجوز مبتسم الشعر، داعم العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستبطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلّم من سفرة ستطبعه إلى الأبد...أنّ الواحة

محطة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهامّ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

اعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرناندو بيسوا)

هب لي الطفولة مرة أخرى وخذ معك الله.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجده واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه الجدّ كما وعد إلى مكان اسمه "طينية" ليبدرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسي والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود ليلا وهم وراءه. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

حقا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلا. حقا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها.

كانت "ما" تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولا له فضلّ الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري حرجها:

- تكبير، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

تبتسم "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هائما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوماً.

في ركن منزوي من خيال الذاكرة يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق. قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات. بين أشجار اللوز والزيتون تواصل طفلة متقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من سذاجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم اتمم رحلة هؤلاء الثلاثة وبقية المرتحلين في هذا العالم على خير، إنك السميع المجيب... أحياناً.

**

الكتاب الثاني

العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متّيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟
هايكو لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

مذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. ما الداعي إلى القلق؟ طبعاً أنا آدمي عقلائي أرفض التطير واسخر من المتطيرين لكن هل تتابع نفس الرقم وهو من الأرقام السحرية مجرد صدفة؟

من الممكن أنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام سيندافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، سيغادره القادمون القدامى بنفس الصعوبة وسيواصل المرتحلون فيه التخبط في المشاكل المبتذلة التي جرّبوها جيلاً بعد جيل.

لكن من يدرى؟ لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟

ربما السلطات على علم بأمر ما لكنها فضّلت إخفاء الخبر حتى لا تضيف مزيداً من الفوضى إلى الفوضى العادية.

حتى أقطع الشكّ سأقطع الكتابة لحظة للتأكد من عدم وجود أي ظواهر شاذة قد تنبؤ بقرب غلق هذا السيرك العظيم.

أنظر إلى ساعتى بحذر بين الفينة والأخرى فيطمئنني أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحدّ الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك السواد.

يجب الخروج إلى الحديقة لمزيد من التنبّط.

يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثيراً-تدوين ما يلي: مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعنتني نفس الهوام المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة ووثّرت أعصابي أعراس الجيران ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر مشبّعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصفتها. لم ألحظ أيضاً ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بأسماء النجوم جهلي بها البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنتي تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق.

كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكان الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظّ (أو لسوئه)، فالיום-بالتأكيد- ليس النهاية حيث ولّى الأدبار بأرقامه المثيرة للريبة منذ أكثر من دقيقتين، والعالم لم ينته.

ما زال لي إذن بعض الوقت وبعض الأمل في فهم ما هذا الذي ارتحل فيه وفي تحسين نماذجه الأولى التي بدأت أتلهى بها منذ الطفولة.

تعود للذاكرة صور طفل في السابعة أو السابعة معاقب بالنفي في آخر القسم يداوي مله بخربشة ما يخطر على باله من رسوم وهو لا يعرف أنها أولى تصوراته لما سيرفقه لاحقاً تحت أسماء العالم، الدنيا، الواقع.

كل ما كان متأكداً منه في تلك المرحلة من العمر أنه يعيش هو وبقية الكائنات والأشياء فوق طبق صلب أفقيّ جلّه أصفر أو بني اللون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر وبُقع خضراء صغيرة متناثرة منها واحة الأب والجدّ.

فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه ثمّة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحناً أجوف من البلور على طبق الطعام لتقيه من الذباب.

على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر.

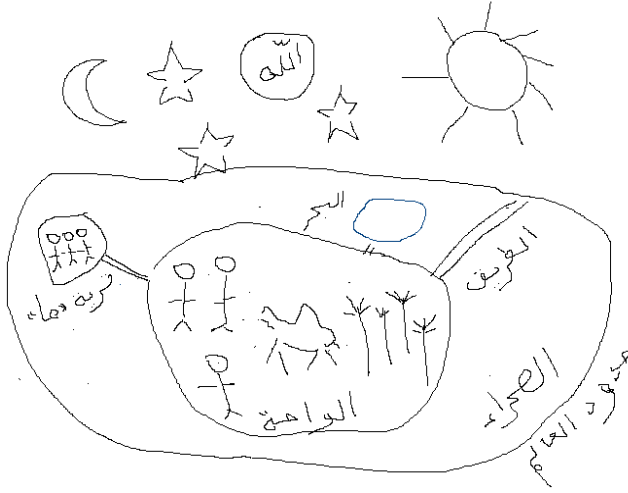
فوقها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه العرش شيخُ كلّ الشيوخ اسمه الله.

بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "با" و"ما" والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران والكلاب والماعز والحمير والبعير.

من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كلّ ذاهب وكلّ عائد.

على جانبي هذا الطريق ثمّة مدنٌ وقُرَى لا يُعرف عددها وأسماءها.

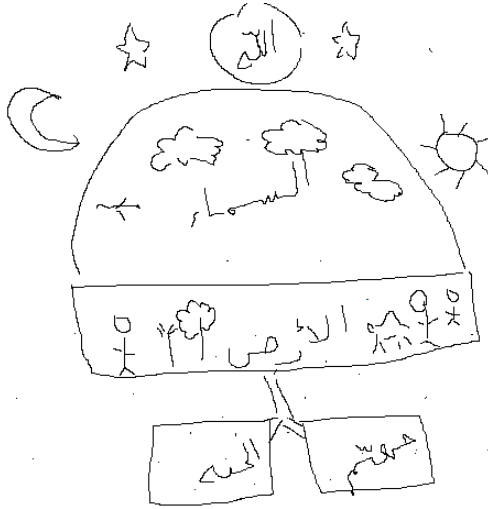
أمّا الحدود فعندما يرتطم الطريق بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريث والأشباح، من بينهم "العبيثة".



ماذا عن الآخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!
هل يُعقل أن ينسى معلّمًا كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على
يمين الله أم على يساره؟

طبعًا هي موجودة تحت الأرض. ألا يحفرون للميت حفرة في أديم الصلب؟
ووفقًا لما سمع من "ما" التي لا تكذب أبدًا، هي مكوّنة من الجنة والنار.

لم يبق إلا إضافة مربّعين يرتيطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه
الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان اقامتهم الأخير. المربع الأول أخضر
اللون لأنّ الجنة كما تقول "ما" واحة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياهها
أوفر وأعذب، يذهب إليها من عمّلوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمر بلون
النار المخصّصة لشواء لحم الكفار والمعلّمات الشرّيرات.



خُلّت مشكلة طبيعة العالم. لم تبقَ بالنسبة لطفل في أول سنة له في المدرسة إلا حلّ مشكلة الزمان. ما معنى أن يكون لليوم كما يقول المعلم تاريخ هجريّ وآخر ميلاديّ؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من “الهجرة النبويّة” وأخرى من “ولادة المسيح”؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

الأهمّ من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفّار؟ حسب زماننا طبعاً، فالهنا هو الإله الحقيقيّ. ولكن في أيّة سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ أوّل يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء؟ لكن أيّ يوم من أيام الأسبوع؟ الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفّار اليهود، الأحد يوم الكفّار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحقّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنّه دون شكّ يوم الخلق، خاصّة أنّه أوّل أيام الأسبوع.

لكن، ماذا كان موجوداً قبل أوّل يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيدا عن فهم انه كان يعيث بجزء مما انتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركابهم وأنه سيجلس يوما لنماذج أخرى خلقها خيال أقوام أخرى فلا يرضيه أي منها.

المهم أن موضوع البحث ما زال موجودا وكذلك الباحث.

كأني بشيطان ساخر يهمس داخلي نعم هو لم ينته هذه الليلة أما أنت فقد تنتهي بأسرع ما ترغب. عجل يا غبي؛ قد لا تتوقّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! بلورة الرؤيا للردّ أخيرا على أسئلة الطفل حول هذا العالم الذي يعيش فيه وهل قدّت الشمس حقًا من ذهب قرطي أمه والقمر من فضة خلخالها؟

**

لبنات الحواس الخمس

في بعض ملقّات الذاكرة ذات الصلة بهذا الموضوع، تهمس "ما" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.

- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غير رأيه.

يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.

- يا الله يا فتى، تحرّك ما لك تنتظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيّعه.

تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجنّي من القمقم.

- "با" أين ... أين كنت؟

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره فرحا. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدّدا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- كأنك تريد إغضابي! هيا، لا تضيّع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحّمّام وزيارة الحلاقّ وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. لا بدّ أن أبحث عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حتّ الخطي.

يتبع طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هامّة حتى في الآخرة.

تتلقّانا بعد ثلاث سنوات مرت كلمح البرق نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجّها نحو الشمال.

- "با" وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

- لا توتّر أعصابي من الآن، حتّ الخطي لنصل الحمام سريعا.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:

- "با"، ما هذا الشيء؟

- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".

- لماذا يقف أمامه الجنود؟

- حتى لا ينسفه رجالنا...

- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟

- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتلّ وكفره.

يزمجر "با" كعادته عندما يصب عنده منسوب الألم أعلى الدرجات.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سمّوا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير، شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا-جبروتنا نحن.

- أريد أن ألمس ال...

- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. هيّا أسرع ما لك تجرّ قدميك!

لا يريد الطفل شيئاً أكثر من الركض مع الراكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم إليه.

يصرخ فيه "با" يكتم ضحكته وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.

- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه فجأة مثل قثّة طافية على أمواج نهر صاخب وجدران الشارع الضيق مثل سود تردّد من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.

ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.

- "با"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟

- شيخ ينسج الجبب. سأستري لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.

- انظر "با"، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

- هذا سوق الشواشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.

- "با" أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "با" لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب "سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.

يعود الطفل للصراخ:

- "با" ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمّونه "الكسترو". يوم نخدع عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "با" ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

فجأة يُداهمه قلقٌ مبهّم.

- بخصوص الحّمّام والحلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشَّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصَّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبُّ يجر ابنا، وابنٌ يجر أباً، لحَمَام اسمه “القشاشين” يقول عنه الأب إنه أفضل وأرخص حَمَامات المدينة العتيقة.

- "با" لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهادى داخله أجسام مترهِّلة تحمل حَوْل الخصر فوطة باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي “الطياب” كالفأر بين مخالب القَط. يسلم جسمه مكرها ليديَّ المهنيِّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقرير.

لا يبقى له غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال ملِّ حمام النساء الذي يذكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحَمَام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمل، وقد أعمى البصر الماء والصابون وروغوة “الشامبو”.

- عيناى تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والذك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل أنشَّفك. المرَّة المقبلة ستذهب إلى الحمام مع أمك ككلِّ الصغار.

- أريد الخروج ! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلقِ على هذا الحصير فلا بدَّ من الراحة قبل العودة للشارع. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".

يأخذ الطفل الثمرة، يقوِّبها من عينيه يطيل النظر وكأنه يرى برتقالة لأوّل مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحَمَام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنَّها جميلة جدًّا، خاصَّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، "با" هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان

في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلِّ برتقالتك واطركني أغفو لبعض الوقت.

- "با" لا أريدها...إنها شديدة الحموضة.

- اذن كل القشور... ربما يعجب سيادتك طعمها.

يغض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأول.

يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام منذرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكرهها لسبب غير مفهوم.

ومن الملقّات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحت لك عن غيرها، إنك تخيفني.

هو لا يريد أن يستقرّ "ما"، لكنه سيعود إلى العالم الغريب بعيدا عن عينيه. أليست اللعبة الغبية - كما كانت تصفها أمه ظلما- بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟! هو يتذكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسميه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصر" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استتفر فيه طاقات مجهولة.

ها هو "يستنشق" روائح يفوح بها شجر النخيل.

ها هو يسمع دبيب النمل على الأرض كأنه ركض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزرخ به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسر للضرير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "ما" إذن هذا الأعمى كما يقول جدّي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاحصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجّه إليه كل الأعين. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو أيضا سيجربّ مراهقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة الناظر.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزعج أمه.

- "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- سبعة أطراف وبعيد الشَّر على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفائه ولا تفلح.

كيف لا يأتيها التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعا تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنّه نائما.

- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت أرتحل لو لم تكحل عيني خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح! ... في أيّ عالم كنت أرتحل لو أفقت فيه دون حاسة الذوق لا أتمتع بحلاوة التين، بمرارة القهوة وحموضة الليمون... لو أفقت فيه دون حاسة السمع لا أعرف كيف هو خربير الماء، أذان الفجر وضحك الأطفال!... في أيّ عالم كنا نرتحل جميعا لو أفقنا فيه ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة اللمس؟
يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر.

في أي عالم كنا نعيش لو ولدنا بحواس غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها ارسطو؟

ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشمّ ما تعجز عن شمّه الكلاب والقطط، أو ترى بعين أكثر فعالية من عين النسر والصقر.

تستحثّ فيّ الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء البنفسجي؟ تحسّس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية التي كثر الحديث هذه الايام عن اكتشافها؟

قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟

ثمة إذن عالم لا يعرفه إلا المبصرون... وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش... وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم!... كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!

يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب ثم يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له الكمين.

- "با"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك لن تتهرّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية. أهذا اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص الطفل وجهه الذي في المرأة كأنه يراه لأول مرّة.

يرجع له سطحها القذر وجها عابس الملامح مع مسحة من كآبة، مستديرا أسمر اللون، بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيه الوجه الغريب، قلقا غامضا.

- "با"، انظر، هذا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا!

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتأمّلك في المرأة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "با" هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتقرّب الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفت للنظر غير صورته تتأمّله بالحاج.

يعود إلى تأمّل أدوات الحلاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثم يشده ثانية الوجه العابس في المرأة. يغمض عينيه ثم يفتحهما أملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدق فيه كل مرة، يستقره بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، بقرّر تخريفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "با" هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفض الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسها فيها "با". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل قرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصة الطائشة من بدقية الصياد المبتدئ:

- "با" هل أنت أيضا قرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغض من الصفع! ترى هل ستترك كالمرة الفائتة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشجّح طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أتاه الهدوء ومعه الندم. قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "با" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا. محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذنيّ عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج "ما" ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البنائة التي تواجه الحمام.

للضروريات أحكام كما يقال خاصة أن كان من بينها الجوع؟

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلّم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحاميين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانِب كانوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوماً، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نيال الشمس الأسقفُ المرفوعة فوق شارع حافِظ منذُ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شارِد يجبل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما". يرفع إصبعه مشيراً إلى بناية مهيبّة تتوجه إليها الجحافل.

لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلالل كلام الله، وحيث سنصلّي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!

قد يكون المبنى شيئاً هاماً بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهمّ هو ما حوله.

- "با" من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له "رَبِّي ينوب" ولم تعطه شيئاً؟ هل رأيت النادل؟ إنّه إنسان ظريف حقاً، يهرول بحقّة بين الطاولات، إنّه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كلّ، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟

- قلت لك: كلّ، أتريد طبقاً آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "با" لم أكل الذّمّ منه من قبل، رائحته أيضاً طيبة، سأقول ل "ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصبّتني بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرشا.

- "با" أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللّعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقوي. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاد الصبر أمام زمان يتلأأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور. يتوقف مجهول، ينفض عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

إنه أهم سؤال يليق به الأدميون على بعضهم البعض وكل إجابة فح.. إن أنت تجبرت في الشكوى من مصائبك أزعت سائلا غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحاليتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقتص عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضربات الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال غدائه. فجأة يجلس لا هئا إلى نفس الطاولة شيخ بدين بئرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحول انتباه الطفل للقادم الجديد.

- "با" انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبوس" وجبة "قمرية" مثل أبناء المدن.

يهب الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بد لك من إثارة الانتباه مرة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه للهجته. الرجل كان يتهمك علينا. هل تعلم كيف يسموننا أهل هذه المدينة الكلبة: الأفاقيون؟

- "با" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في

قدومنا إلّا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... آفاقيون، آفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقتع أحدا منهم أنهم هم سكان الآفاق بالنسبة إلى جدك ومركز العالم واحتنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورتنا الخدم لخدمهم واليوم يورثوننا لحراس الخدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثم تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمّر الطفل شاخصا يبصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة ببيتٍ وتلقيّ الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الأذان الذي يتعالى من المؤذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صنع الأدمي أم من صنع الطبيعة إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه "البوسفور" والمطلة على نهر اسمه النيل وكيف يتلوّن في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تفرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه "الراين" أو نهر آخر يُدعى "السين".

آخر تحذير عديم الجدوى من اب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه. - أنتهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تقارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنّما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحّمّام الطائر، الراقص، الماشي، القافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما" الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب

إنّها تتوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّفها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم أيضا أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -والى الأبد-من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلا فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادهما الكثيف، والثريا العملاقة تتدلى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدر الجري للوصول إلى الصفت الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا القلق المبالغ والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظرائه تقول: لا تخش شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقف الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمّر بصره على قدمي الساجد أمامه. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزق يبرز منه كعب القدم كأنه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متاكل. تأتيه فكرة شدّ "با" من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترفع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "با" هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهّد الرجل المتزايد توترا.

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكأ وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشیان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنبنا لجنب فذلك ما سيأخذ زمتنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

- تحرّك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "ما" إنني صليبت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟
يتنهد "با". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أماننا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

ياخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس باتجاه آخر محطة زيارة المدينة وأهمّها بالنسبة ل "با".

من أين لي أن أنسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبّر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق آخر عطر لها.

حقا لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به المكتبات.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با" هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كلللاللّ الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس الأب في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعَمّك ما تريده أنت.

- أريد آخر عدد لمجلة سندياد وقصة لجورجي زيدان وأيضا كلللاللّ القصص الهندية.

يفتح البائع فمه محدقا في الرجل المتوتّر.

- القصص الهندية؟! كم له من العمر!

يغالب "با" زهوه:

- يبدو أن أمه توحمت على عجزية، هات له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتبتي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.

هات ما عندك، يا للرجل المتهوّر! يصرخ "با" وقد امتقع لونه:

- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟

يتدخّل البائع بلطف:

- لا تحمّل والدك فوق طاقتك، ما أخذته زاد لأشهر من القراءة.

يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضريّة:

- ولا تحمّل والدك فوق طاقتك...

يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:

- ما دام والده حيّا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.

يفرّر الطفل تجاهل علامات الامتعااض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالٍ بالبائع يخفي سروره وشماتته.

إنذار صامت أنّه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.

أخيرا الهواء الطلق والعودة إلى الركض والرجل والطفل محمّلان بكم محترم من المجلات والكتب.

- "با" هذه بناية جميلة، أحب شكل بابها، هل تعرف ما هي؟

- لا أعرف، لا أعرف، كفت عنى اسئلتك خمس دقائق وأسرع حتى لا نبات الليلة في العراء كالمتشردين.

في عربة الدرجة الثالثة لأخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.

- "با" هذه المرّة أنا الذي سأختير معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كلالل الدنيا؟

يرسم الرجل على محيّاہ ابتسامة التهكّم ثم يصرخ.

- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوما أراد الحياة؟" لو قال على الأقلّ

"إذا هذا القطيع يوما أراد الممات"، لكان من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...

- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.

- هل ثمة غيره يا مغفّل؟

- "با" أريد أن أكون مثله عندما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.

- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقّرت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي

يمدحون.

- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريقتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلاً. كن طبيباً والآن اتركني أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده. آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغامض وكل ما يريد العودة مجدداً للمدينة العجيبة لمواصلة استكشاف كلاللّ أزقتها، جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها. هو لا يعلم أنه سيمشي كهلاً في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزاً عاهرة تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط... وأنه سيواصل حبّها رغم كل شيء.

مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب نداء باعتها
أزقتها
أغانيتها
مآذنها... كنائسها
سكاراها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا -بحمد الله-
راضية بما فيها
ومن فيها
بآلاف من الأموات
تعلقهم مقاهيها
لقد صاروا مع الأيام
جزءاً من كراسيها
صراصير محطّطة
خيوط الشمس تغميها
فلا الأحداث تنفضها
ولا التاريخ يعنيها

يومَ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسّي، سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يمكن. كيف لا والرّجل لن يعرف مكانا على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتها منه المدينة العتيقة وهو طفل يركض أمام أب يتلجأ أو يجرّه ليحثّ الخطى حتى لا يضيع عليه لحظة من أروع الأيام.

كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بما تزخر به من ألوان، من أصوات، من روائح ومن حراك محموم العالم كله أختزل في أزقتها الضيّقة.

**

على خطوط التماس

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرني وهي تقلّد لهجة دليل سياحي أمام كل مبنى نصله:

- هذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. المكتبة الوطنية تكنة للجنود الأتراك. هذا حيّ البيغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أيّاماً؛ إرهابُ دولة ذلك العصر.

- جنّت بكِ لتقول لي فقط اسم البناية التي كان "با" لا يعرف شيئاً عنها، وبعدها قد يتفتّح مخّي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوماً ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟

- بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلّب مني تفاصيل أدقّ، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسماً بأغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهباً بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة المنتبهة الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تغيّر مرافقتي الموضوع أو هكذا تتصور.

- على فكرة ما ذا تكتب حالياً؟ أنت لا تنفك عن الخربشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيّره منك بعض الوقت.

- لست متأكداً أنك ستستخرجين منه شيئاً، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتبتُ.

- خطّ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحياناً وقوفاً وسط حافلة مكتظة وحنّياً مشياً.

- مادّة لنصّ جديد؟

- نعم، نصّ شبيهه بالتقرير النهائي الذي يكتبه شخص أكمل مهمته يضع فيه كل ما مرّ به من أحداث وكل ما استخلص وتعلم من التجربة... آه كلمة تقرير غير موفقة لما فيها من ايحاءات بيروقراطية غير مرحب بها... إذن لنقل شهادة لكن لا عن حادثة أو مرحلة من الحياة وإنما عن رحلتنا في هذا العالم من بدايتها إلى نهايتها. تهزّ مرافقتي كتفيها ساخرة.

- وفي أي شكل سيكون هذا التقرير العظيم... عفوا هذه الشهادة الجامعة؟

- في قالب رواية عن شخص -هو مزيج من الأنا وشخص خيالي- يختلي بنفسه وهو في آخر مرحلة من حياته يتفحص كل ما اختزنت ذاكرته وكل ما وصل إليه من استنتاجات حول ذاته، حول هذا الكائن العجيب الذي تجسّد فيه وأيضا حول طبيعة العالم الذي انبثقتنا فيه وحول ماذا نفعل فيه ولماذا جئناه أصلا.

تضحك مرافقتي تظنني أمزح.

- كنت أظن رجال العلم الذين تدّعي أنك منهم لا يتعاملون إلا مع مشاكل بالغة الدقة تاركين مثل هذا المواضيع الفضفاضة للشعراء والأدباء والفلاسفة.

- سأترك للمختصين ولعهم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. لا بدّ من هذا النوع من الشغاليين الفكريين. لكن ليتركوا لي ولأمثالي وظيفة استكشاف ما وراء تفاصيلهم وما معناها المخفي.

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي للسخرية اللطيفة:

-وإلى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غياب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفّل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستقزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العاثر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.

جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.

- متى ستشرّفني بأن أكون أولى قرّاء هذه الرواية العصماء؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأغامر يوماً بنشرها.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاراتٌ عديدة لست متأكداً من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موحّشة يجب فتح مسالك المعنى داخله بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليه طول الوقت بالصلق والنقش... مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقاً.

- عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في كل هذه المهارات؟

- الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطراً: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم للإيجاز قد اكتفي بمذكرات أدمي.

- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!

- هل غلطتي أن البشر لم يتركوا عنواناً لكتاب إلا واستعملوه نكايّة فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيلة قرونا قبل أن أولد؟

- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حساباً لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوماً، سيُخرجون جُملاً من سياقها، سيَقُولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بالشيء ونقيضه... كل هذا تعسفاً على النصّ وتحاملاً على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيداً، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحبّ مطربة لِكَلِينَا:

"كتبتنا ويا ما كتبتنا"

ويا خسارة ما كتبتنا

كتبتنا مية مكتوب

ولها ما جاوبنا"

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبتنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا.

أقول لها أن هذا النص تصفية حسابات قديمة.

يشرد البصر وتتكفى الذات على ذكريات فيها من الألم ما فيها من المتعة.

يصرخ المعلم في صف تلامذة مدرسة ابتدائية في حي فقير: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفقت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك لفسحة صيف ما شاهدت وما فعلت ذلك اليوم.

يُنكبُ الطفل المتهور بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقع حبر يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أول نصوصه يفيق بطل قصته على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفرط في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانيات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتتخّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وترعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يبسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل توقّفت السيارة فُرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أككككبير طبيب وساتيك بكلللكل الأودية التي تحبّ وستروي لي كلللكل قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنتره وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكين دوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوز السابعة من عمره لم يبك رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يومها ختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكتاب الناشئين نصهم الأول: ورجعتُ إلى البيت فرحا مسرورا.

يضحك المعلم باستهزاء:

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوماً سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأنمّر بأوامر سيادتكم؟ كيف تتكلّم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّرٌ مبين؟! لا تعدّ إلى مثل هذا الكلام أبداً.

ينتهد بصوت مسموع قائلًا: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم. يكظم الطفل غيظه واعداء نفسه أنه سيكتب يوماً إنشَاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شكّ أنّ هذا النص انتقام للإنشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كُبر كثيراً وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية طول وموضوع إنشائه: أُقِفْتُ ذات يوم في هذا العالم، صِف كلّ ما شاهدتُ وفعلتُ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

أفبق من ذكريات لذيدة موجعة على صوت مرافقتي:

- ألا تخشى أن تكون كتابتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر وذلك ما نسعى دوماً لتفاديه ونحن نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

أهزّ الكتفين:

- الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر، العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة، الفلسفة في خانة والشعر في خانة أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والدينئة خلف الستار الجد حيث لا مجال إلا للجدّ والهزل حيث يسمح بالهزل. أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لذلك أريد لنصي -كما هو الحال في الحياة العادية أن يختلط فيه الجدّ بالهزل، التفكير الموضوعي بشطحات الخيال، سفاسف الأمور بكبرى القضايا الفلسفية، مشاكل الشخصية مع مشاكل الكون، كما هي الموضة اليوم في جريدة النيويورك تايمز التي تجدين فيها على نفس الصفحة آخر التوقعات عن الاقتصاد العالمي والتحليل السياسي المعمق عن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة جنباً لجنب مع وصفة الفاصوليا المكسيكية بالبهارات الحارقة للقم وأحسن طرق اعداد أرز البرياني الهندي.

- المهمّة أن تجد في عصر الاستهلاك للسريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكتاب هذه الأيام أكثر من القراء. على فكرة، أي نوع من القراء تأمل لمثل هذه المحاولة المحكوم عليها بالفشل؟

- بصراحة كل أمني معقود على كائن آت من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدت للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزجج سيادتك.

- لا خوف من انقراض جنس القراء الحقيقيين حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض شيئاً من هذا الذي نبحت عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا اثبات الذات في هذا الزمان وتخليدها فيما تبقى منه.

- الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي تلوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يلده الفكر الذي لا يجب أن يتوقف ابداً.

- قل ما تشاء، نصلك هذا ولو تحت ألف قناع سيرة ذاتية أخرى، الا يكفي من هذا النوع وطوفان النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

- يا ستّ الكلّ، نسيت مقولة فيكتور هيجو " عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدّث إلا عنك".

- لا تتحدّث إلا عني؟ فرصة لتقول لي أخيراً رأيك فيّ.

- رأيي في الأدميين عموماً والإناث خصوصاً: كائنات يستحيل العيش بدونها ويستحيل العيش معها.

- وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

- تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. هي التي ستتكفل الآن بالصمت وبخيار لحظة انهائه.

- سهوٌ مجدّد، كلّي آذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظراً أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك. كل كائن

مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ مثل شمسٍ تدور حولها كل الأفلاك، ومثل فلك يدور حول ما لا يحصى من الشمس؟... أيّة علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته؟
تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبداً.

- أحياناً، أوقات الانتباه وهي جد نادرة.

- طيب والآن إلى أين تريد الذهاب؟ بدأت أتعب.

- إلى المكان الذي كان "با" ينتظر بفارغ الصبر وصوله... المكان الذي لعب هو وأمثاله دوراً أساسياً في حياته وفي حياتي... لم أتعرّف عليه لحد الآن رغم أنني واثق انه كان في هذا الشارع.

فجأة أتسمّر وأنا أرطم بالواجهة الجديدة لحنوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين وقد تعرف الوعي الباطني في لمح البرق عما كنت أتشوق له منذ بداية الجولة في أزقة المدينة العتيقة.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با". جلّ هذا الشارع كان مخصصاً للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدعي الفن وتوهم بالقداسة!

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك. المكتبات بالعشرات وهي أيضاً محلات تجارية تبيع مواداً للاستهلاك اسمها الكتب.

- يا امرأة تحدثي باحترام عن أماكن لا تقلّ قداسة عن المساجد والكنائس والمسارح والعلب الليلية.

- استفزاز باستفزاز، قل لي يا فهميم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتباً أغلبها لا تصلح حتى لفت السمك.

أقول لها أن المكتبات في نموذج العالم الذي ابحت عنه منذ سنوات هي النقط الحدودية التي تفصل وترتبط بين أهم الفضاءات التي تشكل تداهنا عند دخولها روائح الورق وألوان الكتب ويأتيها من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف... مما يعني أنها تنتمي كلياً للفضاء الحسي للعالم، لكنها بوابات لدخول فضاء آخر ينبض

بالحياة والكائنات الحية التي تسكنه اللبانات اللامادية التي يرتكز عليها عالمنا والتي اسميها الفكريات.

- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟ شعرت بك دوماً غير راغب في الحديث عن نهاية الزيارة.

تلك الليلة وصل البيت أبٌ مرهقٌ وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيراً.

افتعلت سجيناً البيت السرور بما جلبا لها من الحلوى.

سارع "با" إلى كتبه ورحل إلى أحبّ فضاءات العالم إليه.

سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.

عادت المرأة الوقور لغسل الصحون ثم للجلوس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتاباً أصفر رثاً تطيل النظر إليه ثم تغلقه واجمة.

كانت مثل سجين أضيق زنزانه والمفتاح للخروج إلى الحرية معلق في السقف تراه بعينها وبشغاف القلب ولا قدرة لها على الوصول إليه.

هذا المفتاح هو الذي سأروي الآن ظروف تملكه.

**

الفتح المبين

- تهمس أم في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:
- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!
 - إلى أين؟
 - إلى الكتاب. هيا، لا تتأقّل!
 - الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.
 - تغالب "ما" نفسها حتى لا تنفجر ضاحكة.
 - سنذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيّام ما عدا الجمعة والأعياد.
 - إنّها نيرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحمّام، أي أنّ الموضوع غير قابل للمساومة.
 - لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة؟
 - لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلأأ.
 - تجرّ امرأة طفلاً أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.
 - تذكّر ما قلّته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً. استوعب ما يقوله لك، قبلّ يده عندما يدعوك لتمثّل أمامه، لا تكن وقحاً ولا تتكلّم صارخاً أمامه، أطعه في كلّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكرهه ولا ترضى. لا تنس أنّه سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلّمك كلام الله.
 - إنّها عادة الأم الأزليّة المتماديّة في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد.
 - بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة مشبّعة بالخيال.
 - لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلّاعي الجديد.
 - تجذب "ما" يد الطّفّل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:
 - لا تكرّر أبداً مثل هذا الكلام، خاصّةً على مسامع الناس.
 - يصل الطّفّل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركّز من جامع المدينة الصغيرة التي قدفتها على ضفافها أمواج النروج.
 - تدفع الأمّ طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بداخلها يحثّ على الفراق وآخر يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرنس من الصوف البني وعلى رأسه شاشية حمراء يلقيها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترناً بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفًا مترابطة في أعجب فوضى.

يومَ غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليبصره عن كثب فوجئ بنظرته الجانيبة مصوبة نحوه، وكلاهما يقدر حظوظه -خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الآخر لمأربه.

يومها داهم الطفل شعور بالتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوح بها طوال الوقت، ومن ثم قرّر البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسميه اللغة "الفلقة".

الفلقة! وما أدراك ما الفلقة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لمحاولة تسييره في قوافل المرؤضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكلّ العيون، جاهزة لكلّ الاحتمالات وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصاً طويلة لن تبقى طويلاً دون استعمال.

على ذكر وسائلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصقر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فأضربه بالطويلة، فيفرّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إليّ ويخلصوني منهم".

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

يعود الطفل ذلك اليوم المشؤوم إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر وكلّ همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تفادي حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنّه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنّه قام ليجلس بعيداً عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلّا من نفسه، أنّه لم يقل للعجوز: "سيدي

الشيخ” وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تتظاهر "ما" بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقي أيّ سؤال. تتعافل -على غير عاداتها- عن حصّة غسل القدمين الإجبارية مظهرة مزيدًا من الحنان.

التجاهل! إن تعهدت هذه القدرة سنكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم توفر على نفسك عبث معارك تافهة مع تافهين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي يوما كم من أصدقاء اكتسبتهم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.

يؤرب الطفل إلى فراشه لأول مرّة دون تسويق، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصا طويلة وقدمان دامتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا.

وفي الغد تهز اليدُ الرقيقة الطفل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه بـ "سيدي"، قبلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلتِ وفعلتِ.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّبًا؟! كم سيكون رائعا أن تشبهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صبيّة قرينتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدبًا. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!

تأخذ الأم طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب صغيرا موجوعا وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أول عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويلُ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدها لك "با"!

نعم، كم هو شاقّ طريق الأدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم يأت إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع غاليا وبالمستحق.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام.

- رأيتك في المنام عالمًا بارعًا باللسانين! نعم، جاني في المنام -وأنا حُبلى بك-ملاك بشرني بهذا. هل تكذبّ ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ لكنه أتاها وأتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالماً بارعاً باللغتين.

محكوم عليك دوماً أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتها لك طاولة القمار وأن تلعب -شئت أم أبيت- الدور الذي قرره لك "البخت" أو سوء الطالع.

لم يعد مطلوباً من الطفل سوى التطبيق، إذ لا حق له في إفسال مخططات سرية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديةٌ للأمل ورغبةٌ عارمةٌ عند الأب في الثأر.

كيف مواجهة تجدد كابوس البارحة؟ موجة من الرفض الباكي. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في بداية البداية؟

تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تقاوم.

- تعلمتُ بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفك رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيني بالبقية. آنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد تغيرت فجأة كامل الوضعية:

- أنت لا تعرفين القراءة وتريديين أن...؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محملاً بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه:

- سأذهب لأتيك بها. وسأوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كل ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

ذلك الصباح لم يركض صبي في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -بمحض إرادته- مكاناً كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد ألقت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادراً ما تحصل فيه على ما تريد، كأن به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردداً خلف المؤدب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا أظن أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.

ثأرهم وهو يردد كاللبغاء -أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الرب، ما العالمين، ما الخناس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه النهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خناس ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر- من باب المطالبة بالحجة أي من باب البدعة في نظر كل الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفتن إلى أن الطفل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوماً بأقبح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجرًا في الدنيا وثواباً في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقه في الفهم. يعاود الكرة والشيخ أحسن مزاجاً:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبتّ يداه؟ وما معنى تبتّ؟
أخيراً يستبطن أهمّ ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة: تقادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمّق كرهه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون -ككلّ سلطة- إلا بالفلقة والعملاء. كان همّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قامّة وأكبرهم سنّاً، أن يصقّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسف العريف، عقوبات كافية لتثنتي الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يدي من هو بأمرّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدار كلّ مساءً مثقلاً بالأم غير مفهومة السبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "ما" لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟

- صبراً أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءً مع حرقه الإحساس بالذنب والقهر.

ها قد بدأت "ما" تتخوّف بجديّ من صدق وعد الملاك. تنتشج أصابعها وهي تمسك بكفّي ابنها:

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ ملياً. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟ يجب ألا يحصل هذا أبداً. أبداً!!!

...

- كم سأكون فخورة بك وقد حفظت السنين جزبا! كم سيكون "با" فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسر منها!

...-

أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا سثفّرَج بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكر والسّمّن. وأنت أيضا لا تكن سلبط اللسان كعادتك. لا تكابر، فلست دوماً على حق. سأصليّ الليلة كثيراً ليهديك الله.

ولأتأنا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصاً وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التظلمات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدقّق العصيدة بالسكر والسّمّن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفّل ويتخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرّعيين.

ربّما تدخّل الملاك حليف "ما" بحزم وإلحاح لدى مكتب التظلمات الكونيّة. قد تكون علاقاته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفّل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.

ذات صباح يتنحّج الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتبت بها كتاب الله.

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسّي جسمٌ سليم، حواس نشيطة، ثيابٌ تقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أمّا عن استكشاف فضاء الفكر فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطّفّل: قصبه مذنبه بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد.

فضاء الفكر!؟ توقّف على الصورة... أي شرعية لاستعمال مفهوم الفضاء عند ما نتحدث عن الأفكار؟ فضاء الحواس هو الفراغ الممتد حولنا... الذي ترصد حواسنا ما يتكدّس داخله من كائنات مثل البشر والشجر وكيانات مثل البيوت والبراري... والذي يمكننا أن نمارس فيه أفعالاً مثل التنفس والمشى والغوص وحتى الطيران عند توقّف متطلّباته... في أي امتداد وفراغ تتحرك الأفكار حتى نربطها بفضاء؟ عودة لسياق القصة.

يبدأ الطّفّل رسم الأشكال التي أمرَ بها الشيخ. لا بدّ من التحكّم في تشجّع اليدين حتى لا تنتطلق العصيّ الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملاً، فصُورا، فأفكاراً تتراحم داخل عقل نهمٍ يقظٍ.

من أين له وهو راكع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-الوعي بأنّه وضع أولى خطّاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

كم كان بعيداً عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراتهِ لذاته وللعالم!

المهمّ في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفاتيح السحرية التي ستفتح أمامه أبواب كمّ هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ ابوابه ونوافذه.

يتعلم الطّفّل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راqدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها!

ها قد تعلم من سيدي الشيخ، خمسة أحرف دفعة واحدة. أليس ألم الفلقة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "ما" وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفّل من تفحص العصيّ والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السيّطرة.

تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قِبل القريب والبعيد، تارة بالغرّيبه وتارة بالاستفزازية. نعم، لماذا لا نستعني عن الفاء بدائرته وعصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه "ما"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعاً بوجاهة الاختيار. لم يبق إلاّ عرض اكتشافه على المؤدّب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيراً على "ما" حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبّية الحمقى حماقة.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم خلسة؟!

المهم أن الطّفّل تحصل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصرّ عليه المؤدّب.

يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضاً:

- "ما"، اليوم تعلّمتُ كلللالل الحروف! إنَّها أجمل من كلام الله.
- كم مرّة قلْتُ لكَ الآ...

- اللّيلة سأعلّمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "ما" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطّفّل عُود حطب رقيق يلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّماً ومُهاباً إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليّاً. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.

- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- انظري جيّداً إلى هذا الحرف الذي هو عصاً واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هذا، يا سيّدي الشّيخ.

- حسنٌ جدّاً. والآن الحرف الثاني. انظري ملياً ولا تتبسّمي. إنّه عصاً قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلاً إلى الأمام. إنّه حرف الدال.
قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمتِ الفرق؟
- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن إذا وُضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيّدي الشّيخ.

لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفاً فهذه التي ستنال العصا هي "ما" وعلى كلّ حال هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علماً بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث إنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟

- حسناً، لنراجع كلّ ما علّمته اليوم.

الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفّل سوى الانتظار إلى الغد، علّ "ما" تنسى حرفاً أو حرفين وأنّ ذلك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمثّع بسلطته الجديدة.

- ستواصل تعليمي بقية الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادرا.

- إياك أن تبوح لسَيِّدِي الشَّيْخِ أو لأحدٍ آخر، حتى لو والدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟! -

- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ "ما"، والطفّل مسكون بهاجس طبع بقيّة الرحلة. هو لا يتعلّم لحسابه الخاصّ وإنما لحساب الآخرين وقد شاعت الأقدار أن يكون صاحب رسالة ومسؤولية.

-

ذات يوم تغتم "ما" لحظة هدوء لتُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غداً سيكون يوماً أغرّ في حياتك يا بنيّ. سنذهب إلى المدرسة العصرية. إنّها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في الذهاب والإياب. ساعدك لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتاب قراءة جميل.

- لن أذهب إلا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر منّي في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. سترى أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشَّيْخِ والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظهر؟ كلّاً، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوفّره. جُلّ خرّيجيه ليسوا سيوى رُعاة قرية جدّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوفٌ مبهم أن تكون عصا الشَّيْخِ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا.

تستمع الأمّ إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضّحها ثمّ تقدّها، تخاطب في ابنها كأنها له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ الغرض قد يكون في مصلحته حقّاً، خاصّة أنّه من "ما" ثمّة أيضاً أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "ما" بحرص شديد، لا تخرّجها إلا نادراً، تسمح عنها الغبار وتقلّبها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر:
- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتم ذلك بنظافة تامة.

يصرخ الطفل المتهور:

- إنها كلمات سهلة، أعرفها كلها، فسيدي الشيخ علمني كيف أقرأ.
تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، اكتبها إذن وتذكر أنك تكتب على الورق وليس على اللوح.
ذات يوم تتوجه المعلمة متجهة لطفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليك معك غدا. وبالمناسبة، من الآن فصاعدا عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحقق الأم في طفلها كأنها تراه للمرة الأولى. تمرر يدها على شعره ببالغ اللطف.
يتسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبه الطفل.
- أريدك أن تعذني بعدم مضايقة "سيديتي". إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظت كلللكللكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.
- لا تقل أبدا عن أقرانك أغبياء وإلا كرهوك وأدوك.

يلعب الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه له ولا امتعاض "سيديتي" منه وهي لا تبتسم إلا للأطفال الآخرين. يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.
- والآن انقلوا في كراساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيديتي" لحظة فينهض من مكانه متوجهاً إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بفهقهة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلي لإله مبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في غدوٍ ورواح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وقضاء الصيّد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيديتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيديتي...

- عد إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

كم من الآم ومصاعب لاستكشاف فضاء الفكر وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي!

يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمّن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفرها لهم اللغة.

لمثل هذه الوضعيّة التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغص عليه عزلةً موجعةً لذيذة.

مما يزيد الطين بلة استدعاء السيد المدير ونبرته وهو يقول للطفل:

-لا يمكن أن تأتي للمدرسة بهذه الثياب؟ على الأقل أن تكون ملابس نظيفة... وإلا

....

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنّه بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تهزّ الأمّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تنوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلّمة، مستغرقاً في خربشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت داج؟ يا إلهي، متى يعود، علك تعود أنت إلى رشدك؟!

يرفض الطّف الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائق المرميّة في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلّمة وكل ما تقول.

تُطأطي "ما" رأسها، تنكفي على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

- يا بني، كنتُ أظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفاً، تمسك بيدها المبلّلة عرقاً
يدَ طفلٍ يتملص ضامًا يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟
يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكلّف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معاذٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال
إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطير ومسلّح.

- يا سيّدي...

- اسمعي يا امرأة. ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلفٌ ذهنيًا. يضابق المعلّمة
ويعطلّ القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من
الصحراء تحديداً، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سببا أو معنًى؟ هل فُتح هذا العالم
للعوم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوّار؟

- أقسم يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا.

- كفى! إنّه متخلفٌ ذهنيًا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهاراً، إنّه شبيه يتيم يا سيّدي.

- حسناً، حسناً، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّداً ينتج أحسن الزيوت!
ليُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبداً.

يبيع الطفل غصّة بكائه ويتبع أما تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمّة في أقدم الملقّات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيّدي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا
أنّ ابنك لا يرى جيّداً. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئٍ للقسم ينتقل من
مكانه إلى السبورة لينقل ما تطلّب المعلّمة كتابته. حقاً إنّه طفل غريب! لماذا لم يُقل
من البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته
يرسب. أما الآن فخذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه
حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفلي
واحد لقصّر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة - الكشف على عيون كل أطفال
السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصتي -بما فيها من حقيقة وخيال-يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوه من معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيًا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّمني يوماً في رقبكم لترحمت على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرهب وأمه تُذلّ وتُهان ولم تذبحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رمياً بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرّروا هذا الاضطيل الكبير الذي تسمونه الوطن!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنفذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل هو أيضاً؟

- بالتأكيد أجنبيّ مُتخفّ فضحّته أخلاقٌ انقضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيًا؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديراً لأنّه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيًا؟! أسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمّد الزعيم في وجه الغزاة الملاحين؟

- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئناً ومسانداً؟

- قلت له: جنّناك من المقهورة إلى القاهرة طلباً لسلاح تفهّر به أعداءنا وأعداءكم.

- أسّعتم؟! والآن علّم هؤلاء الجهلة اسم العبد النائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينياتا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الماو ماو.

- رأيتم؟ إنّ هذا الطفل كاد يوماً يُفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّي وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنيًا يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنّه يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يقدر على فهمها ويقولون لأمه خذيه ليرعى الإبل! ابني أنا يرعى الإبل! ابني أنا، إلخ... إلخ...

ثمّ يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسن وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيف عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟
- ابني أنا يبكي! ثمّ ماذا أيضا؟! تعتقدون أنّه من طينة أطفالكم! ربّئنه على الشدّة حتى لا يشبهكم يوما، يا مَنْ إذا حَكَمَكُم كَلْبٌ مدحمت الكلاب وإذا حكمكم بغلٌ تغنّيتم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التين والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...
من يوم وُضعت على عينيّ الطفل نظّارات أصبح كارنب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

وفي ملفّ آخر عن مراحل فتح الفضاء الذي تعيش فيه كائنات حية غير حسية اسمها الفكريات، يتوجّه المعلّم لقسم هاتج على الدوام.
- انظروا جيّدا لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللّغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنّها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "ما" في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضا واحدا من الحوّنة الذين يتوّعدهم "يا" بالوَيْل والثبور؟ مبدئيا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة باكثّر من تمرّد عقيم.
يفغر المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تقَلّ أذى عن فلقة سيدي الشيخ.
بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفحات مُحكّمة كان يستحق!
الأدلاء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضّة كلالل حروف لغته الأمّ فيزِعج من أهدها أعلى وأثمن الهدايا.

يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزا إضافيا- فيتأفف ويُعلن العصيان.
هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصر غير عصره، وبلد غير بلده وعرف باكرا مثله قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ من جنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّا خلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيّه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلّم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا-ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلاث الحروف.

جُنّ جنون الطفل همّة الأوحاد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

كان بداخل اليتيم إحساس أنه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلاث الألوان.

ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه-ماذا بعد حرف j؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القسّ: من فضلك -يا سيدتي-ماذا يوجد بعد حرف j؟ فتركه صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى مَنْ يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف j؟ فيصفه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقا: يا بنيّ، اسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا نعرف كيف وَضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة j، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسّموّ t، u، v، والعظمة w، x، y، z.

كل ما نعرف أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب المسائل... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه؟

ألم يعدّ الملاك "ما" أنّ طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟ ربما دفعت الثمنَ مسبقا، وكانت كمّية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يخدع الملاك "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تنهّمه بالغشّ والتحايل، وحتى لم لا-تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بزاهته ويشهد المعلم ضده.

لهذا السبب، يقرر الطفل متأفقا إيقاف أول عصيان مدني له.

كم من قرارات هامة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق.

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللعنة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسلم عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عِصِيّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاً ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأم إلاّ عصاً واحدة منتصبه مكتفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منتفخ كالطاووس بعِصِيّه الثلاث بالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بدّيل قصير كدّيل فأر قضمته أنياب القطّ.

لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غبيّة كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفَرطوا عليه بالضرب والنفي إلى الركن.

تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعات تتبارى صعوبة وخطرا.

كان مسيو فيدال المعلم الجديد للّغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل.

كان يردّ على السؤال المحرج تلوّ السؤال الغريب، تلوّ السؤال السقيم، تلوّ السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

تأتي مرحلة فكّ الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من كلمات تجمعت في صفحات كتب ملأنة أيضا بالصور الجميلة.

يصبح تعلّم اللّغة الجديدة وما تزخر به من كلمات غريبة لعبة ممتعة. يأتي يوم يمتلك الطفل منها ما يكفي لتتشكل في ذهنه صور مشوشة ثم متزايدة الوضوح تخرج من تتابعها صور لبلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنية من الخشب، سطوحها حمراء وشكلها كحذبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض ومتماسك كالقطن يفرح بقدمه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه المدفأة، فيه توفد النّار ويلتفت حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدّتي قصّة جميلة عن رجل طويل بدين، له لحية بيضاء وثوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقية بنفس اللون. هو يأتي مرّة في السنة فقط عندما يشتدّ البرد ويغطيّ قطن السماء الجبال والبراري، ممتطيا عربة تجرّها حيوانات رشيقة كالغزلان مثقّلة بالهدايا. ينزلق الجنّي الطيّب داخل المدفأة محملا بخيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول الليل، لكن النوم أثقل جفونهم ثمّ أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعباً باحتجاج ضعيف، محكمة الغطاء فوقهم وطابعة قبلة خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدّات.

ها أنا أراقبه متسلّلا عبر أنبوب المدفأة، أفاجئه يضع اللّعب والحلوى والأقلام الملونة في جراب الأطفال النائمين. أراه ينسحب على أطراف القدمين يواصل جولته حتى يحصل كل طفل في المدينة على حقه من الهدايا والحلوى. هل أغتتم فرصة نوم

إخوتي للاستيلاء على هداياهم؟ لا، هذا لا يجوز؛ فأنا كبيرهم والوصي عليهم في غياب "با". طيب، لكن ماذا عن النظر في هداياهم والتأكد أن الجنيّ الطيّب لم يخطئ فأعطاهم أحسن مما أعطاني؟ ألسنت الطفل الذكر الأكبر، ومن ثمّ نائب الرئيس، ولي حقوق خاصة منها اختيار ما يعجبني من الهدايا تاركا للبنات والصغار ما لا أريد؟ لن أفعل شيئاً كهذا فقد تنتبه "ما" للأمر فلا تثق فيّ مستقبلاً.

أذكر أنني سألت أيضاً مسيو فيدال هل يعرف بابا نويل سندباد وعلاء الدّين وهل سيأتي يوماً بلدنا وهل سيدخل بيتنا من النافذة حيث ليس لنا مدفأة؟

يومها طمأنني قائلاً: يا بني، كل شيء وارد في مثل هذا العالم.

متى قلت ل "ح" بلهجة التحدي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردّها متوقّعا، بل يمكن القول إنني قرأته في ذهنها وهو يتشكّل: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجئتكم بقائمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحرج الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني... لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنّك ستكون من فنان المكتبات.

كم كان حدس الرجل صائبا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدسٍ وتوسّم خيرٍ، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "ما" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيحاء بدل الصراخ بالأوامر.

ألسنا كلنا كائنات متخيّلة ومتخيّلة نصوغ الآخرين ويصيغوننا سرّاً وجهراً بما في داخلنا من مخاوف ومن آمال؟

**

لبنات الحاسة السادسة

- "با"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كلاللها عندما أكبر؟
يحدّق الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سنتها السادسة تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغربية التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟

- سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتبني كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كلالل الكلمات.

تريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الاعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب، دمية، عصا، حلوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنات.
تستعجني تفاحة.

- "با" هيا اكتب قائمة كلماتك.

قطعا لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تتبارى بشاعة ومزاجي كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالعرف منه ومني.

تكتشفنا تفيحة منمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض بكلالل الكلمات التي تعرفها تفيحة. تحتج باكية لا تدري إلى من ستتوجه بالتقريع.

- "با"، تفاحة شريرة تأخذ دوما أقلامي الملونة، أنت تحاببيها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.

وهذه البنات الكبرى التي لا تحرك ساكنا، هي التي تتهمني دوما بأنني أحابي تفيحة وألعب معها جل الوقت لأنها الأصغر!

- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف.

تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، اكتب لها كلماتك أنت.

تتطور الخناقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يجب إطلاق المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...

لم لا مواصلة اللعبة الممتعة مع البنات عني اظفر بملاحظات جديدة عن التشكل التدريجي للعالم في ذهن المرتحلين.

- والآن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصدناها؟

تصرخ تقيحة:

- الكلمات تحبّ أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلّم وتلعب وتخاصم.

حقاً؛ ما ألدّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

عندما تعود الكلمات إلى بدايتها (روبرتو جيواروز)

يعود الإنسان إلى أصوله

ويبدأ كل شيء من جديد

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض...كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تريد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف....

تتدخل تقيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تقيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خفّف عني اللعب مع البنّتين الكثير من الكرب.

لتهديّة القطّتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفاحة، تقيحة، ماذا فعلت بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تقيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق، يجب أن نحرك الكلمات لكي تصنع لنا قصّة، ما الذي ينقصها؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تضيف حتى لا تفتكّ أختها الكلمة.

- "با" أنا من سأكتب كلللكللكللكل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ فيّ أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟ ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، صرخ، غضب؟

ماذا عن الفعل الأول الذي تولدت عنه كل الأفعال؟

تعضّ تفيحة على لسانها وهي تصفّ الأفعال التي تعرف. يصفّ الأب على كتابته حصيلته هو منها. يعضّ على لسانه هو الآخر وقطع "البوزل" مفروشة أمامه تتحداه بالفوضى المغلقة على نظام ما يزال للاكتشاف. تتناثر النجوم في السماء في فوضى رهيبة فيطوّعها الخيال ليرى المنجمون طيوراً وأسوداً بل منهم من يكاد يسمع سهيل الحصان يتعالى من جزء محدد من قبة الليل. لا ألبث أن أرى مثلهم أفعالي تصطف وفق شكل ما زال يتلمس الشكل ثم تنتظم كالكواكب حول الشمس... حول بذرة كل الأفعال... أولها والذي دونه لا تنطلق السلسلة.

نعم، لا مجال لغير هذا الفعل الزاخر بكل الإمكانيات... مهلاً، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أوصل الاستكشاف قبل أن أنشره بين المأ وأن أعلن بكل ثقة أن فعل الأفعال هو...

تأتي الأوامر العلية من الصالون لتذكّر أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها حالا دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يمؤه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. فجأة تصرخ تفيحة وهي تنظر للورقة المرمية جانبا:

- أنا قرأت كلماتك... أنا قرأت كلماتك كلها... إنها كلماتك قبيحة لا أحبها. تتدخل تفاحة.

نعم لنحتفظ لقصتنا هذه الليلة فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي. الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسخ التي لا تروقنا؟ لعلها وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة! أية كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألينا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس أهم الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحده، مجلس الداخلية العرب، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جين، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب، احتباس حراري، عواصف، حرائق، حروب أهلية، انقراض أجناس....

بربك أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلّة.

لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجرّة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يقوضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بأكمله.

هذا ما يطرح علينا إشكالية ضخمة: ما الكلمات وما علاقتها بما تشير إليه وتسمى أو تصف؟

ثمة من الأدبيين من يعتقد أنها مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخر الذهب الذي يغطي قيمتها والرائد في كهوف البنوك المركزية.

ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغامض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) أيضا كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بأننا حبيسو لغتنا مثلما نحن حبيسو حواسنا الخمس الأخرى.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد.

يضحك مرافقي ابن تلك الغيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والثلج. أعابته بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها وهي واضحة وضوح الشمس أمام عينيك... عفوا أمام عينيّ.

بشبكة العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقّة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتختفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبكة" اللغة على وجه التحديد المفاهيم والأفكار التي تصنعها- شموسا مختلفة.

كانت شمس آدمي اسمه أختاتون إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطينة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه اينشتاين. من أعالي هضبة وسط غابة استوائية مترامية الأطراف ها أنا أتأمل بحيرة جبلية أعبت برميها بحصاة أتابع تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تأملتها في كثير من أماكن الفضاء الحسيّ.

لكن سگان هذه الأماكن من قبائل المايا كانوا يرون في هذه البحيرة باب "الشيبالا" أو المدخل إلى العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. لذلك كان أجدادهم يرمون من هذا العلوّ بالأطفال والعذارى قربانا لها.

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم لكنت تسمع -خاصة ليلا- حفيف أجنحة الجنّ والعفاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالفرايين والصلوات.

ذلك لأنّ الذهن ليس مرآة تتعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهمة أصلي يتجلى بنفس الكيفية لكل البشر. هو مرآة نشطة التي لا تتوقف عن معالجة معطيات الحواس تنتقي وتصنف وتسمي وتضفي المعنى والأداة دوما للغة.

أضف لهذا قدرة هذه الحاسة السادسة على خلق معطياتها الخاصة بغض النظر عما ترصده الحواس الخمس.

ألا تضيف للعالم كائنات غير حسية مثل الشياطين والملائكة والأشباح والآلهة تصبح جزءا من الحياة اليومية أي جزءا من العالم؟

أنت طوال الرحلة كمن يشقّ طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم لكن أخطر ما يترصد بك ليست هراوات قطع الطريق الحسي وإنما أفكار ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة مثل الحرب المقدسة والوطنية والقومية والعدو الوراثي والكفر والشعوب المختارة وكلها أفكار من صنع اللغة، هذه الطاقة العجيبة التي يستعملها الذهن لبناء عالما وهي مثل شبكة الصياد التي تظفر بكل ما تقدر عليه من أسماك، لكنها قادرة على إعادة تشكيل الأسماك التي علقت في حبالها بل وحتى جعل خيوطها تخلق أسماكا لم تسبح يوما في محيط.

ألا يعني هذا أن الحاسة السادسة تلعب دورا أساسيا في بناء العالم الذي يعيش فيه كل مرتحل؟

هي لا تكتفي بتسمية ما هو ضروري لوجودنا وانتشاله من الابهام والتعقيد والتحرك وبفئة خصائص العالم المعروفة وإنما هي تنسج بالكلمات التي تتوفر عليها تصوراتنا له ولكل ما نرصد من مظاهره.

التصورات؟

هي طريقة فهمنا -أفرادا أو جماعات-للصور التي تنقلها لنا الحواس الخمس عن العالم ومكوناته المختلفة.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها من الثقافة التي ننشأ فيها أي من نسيج الكلمات التي تشكلها.

هي ما يتبلور شيئا فشيئا في الأذهان بحثا عن أحسن الحلول في معركة البقاء وتحسين ظروفه.

هي منطلق التفكير المجرد عندما يقدم الذهن في تحديد معاني الكلمات بأكثر دقة.

هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبتكر من فرضيات حول طبيعة العالم وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

إنها كائنات حيّة لامادية اسمها أيضا الفكريات وهي التي تبني وتتعدّد الدعامة الأخرى أو المكون الآخر للعالم: فضاء الفكر.

**

سفرة في فضاء الحروف والكلمات

تتداخل الملفات وفي إحداها تتوجه طفلة باكية لا تتجاوز الخامسة إلى أبيها تتشبث بأهدابه تشبث الغريق بالقش:

- لن تسافر مجدداً، أليس كذلك؟ "با"، سنبقى معي دائماً، دائماً، لا أريد ان تغيب مرة أخرى.

من قال من شبه أباه فما ظلم، كم كان مخطئاً

تواصل البنات وهس تمسح عبراتها:

- "با" أريد هذه الليلة قصة جميلة ومن أطووووول القصص وأنا وأنت وتفاحة نتناوب عليها

القصص! أي غرابة في نهمننا إليها أطفالاً، كهولاً وشيوخاً وهي توجه دقة حياتنا من حيث ندرى ولا ندرى... ما الأساطير والأديان التي تحرك شعوباً بأكملها سوى قصص كتب لها أوسع رواج في المكان وأطول بقاء في الزمان!

تضع الأخت الكبرى يديها على خصرها لتعطي أوامر الجديده، هي التي لا تحب شيئاً قدر الأمر والنهي.

- "با"، هذه الليلة القصة عن الأميرة والصفدة.

تتدخل تفيحة:

- وعندما تنام تفاحة نواصل أنا وأنت وحدنا.

تصرخ فيها تفاحة:

- لن أنام أبداً وأنت التي ستنامين وأبقى أنا و"با" نروي قصة الأميرة إلى الصباح، هياً، عجل، لقد لبست البيجاما وغسلت أسناني.

تقاطعها أختها مسلطة عليها نظرة الاستفزاز:

- أنا أيضاً غسلت أسناني.

تنتبه تفيحة لأمر بالغ الأهمية.

- انتظر لحظة. نسيت "إيتي". يجب أن تسمع القصة وإلا فسأضطرّ لروايتها لها.

- "با" تفيحة تغسل أسنان "إيتي"!

- وما دخلك أنت؟ إنها دميتي أنا أيضاً وأفعل بها ما أريد.

لا بد من تدخل السلطات الأبوية العليا. لمجرد المحاولة.

- أعقل واحد في هذه العائلة العصبية "إيتي"، والآن أريد منكما انتباهها وصمتها. سأبدأ أنا كالعادة، وتأخذ كل واحدة دورها كلما جاءت فكرة. لكن رجاء دون مقاطعة أختها. إذن، كان يا ما كان، في قديم الزمان وسالف الأوان، أميرة صغيرة اسمها تفيحة، وتفاحة عندما كبرت، وكان لها عيون مثل...

تصرخ الأختان بنفس الحماس وقد تغلّبت الحيوية المكبوتة على ثقل الجفون:

- المها، المها!

إنها بداية كل قصصنا والويل ل "با" إن لم يحترم تقاليدنا الراسخة.

تعطي تفاحة إشارة انطلاق الأحداث وهي تعطي لنفسها الكلمة.

- أرادت الأميرة الخروج إلى الغابة لقطف الأزهار لكنها كانت خائفة من الساحر...

تصرخ تفيحة: أنا أقود القصة الآن، دائما تفاحة هي التي تقود.

تردّ تفاحة بعصبية: لا، "با" هو الذي يقود.

المسارعة إلى القصة ننقذها من تجدد خصومات الأدميين.

- إذن شجّع "با" الأميرة على رفض الخوف فخرجت إلى الغابة دون تردّد تبحث عن...

- وخلف الأشجار كان الساحر الخبيث يترصدّ وهو عاقد العزم على مسخها ضفدعة لينتقم من الملك الذي...

أهمس في أذن تفاحة: الأدمية كلها وحتى تفيحة سمعت بقصة مسخ الأميرة إلى ضفدعة، وكيف خلصها الأمير بقبلة مدوية. الرواية ممجوجة ولم يعد فيها أي تشويق. يجب أن تجدي شيئا آخر.

تهمس في أذني: في أي شكل نمسخها؟ ثم كيف سنخلصها فيما بعد؟

أهمس في أذنها: لنبدأ بموضوع المسخ، ثم سنرى فيما بعد كيف نخلص المسكينة.

تصرخ تفيحة: أريد أن أسمع ما تتهامسان به.

- كنا نقرّر في أي شكل سيمسخ الساحر فيه تفاحة ليوافق الأمير بأكبر صعوبة في إرجاعها إلى شكلها، فنتشغلنا القضية بضعة ليال.

تفتح تفيحة عينيها على أقصى اتساع فهمت بحجم التحدي. تضع إصبعها في فمها ثم تصرخ:

- بعوضة!

- البعوضة أنت!

- قردة! سيمسحك قردة!

- "با"، واصل أنت وقل لهذه البليدة ألا تتدخل في قصتي.

طيب، لكن من أين لي تصوّر أي شكل يجب أن يمسخ فيه الساحر هذه البنّت وقد استنفدت المخيلة الجماعية كل الأشكال المرعبة والمقرّزة التي يمكن للأدمي أن يمسخ فيها؟

تأتيني فكرة لم تخطر على بال قصّاص. أليس الأدمي مصنوعاً من الأفكار مثلما هو مصنوع من الدم واللحم؟ لم لا أمسخه في صورة كائن من الحروف؟ ... لماذا لم يفكر أحد بهذا الحلّ، الشيء الذي كان سيسهل علينا عمليات القصّ والفسخ والفرك والرمي في سلة المهملات لإعادة كتابة نصّ أمتع من الذي نقرأ والذي نكتب.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرة مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف. هكذا ذهلت الإنس والجن وهم يرون طفلة تمشي في الغابة، والرأس كلمة رأس وفوقها كلمة دماغ، ومكان الصدر كلمة صدر، ووراءها كلمات قلب ورتنين وكبد وطحال ومعدة وأمعاء، والأطراف الأربعة مصنوعة من أسماء العظام والعضلات والأوردة والشرابين والأعصاب التي تشكلها.

يذهل الأمير، هو الذي خرج من رحم قصة أعدته لضفدعة يبعث منظرها على التقزز. ها هو يحكّ رأسه لا يعرف ماذا يفعل. هل يقبل كلمة وجنة؟ من هذا الغبي الذي تدخل في السيناريو وجاء بمثل هذه الفكرة؟ أنا غبي؟ استح يا ولد، وإلا ستري هل سأزورك تفاحة، وما المهر الذي سأدفعك إن رضيت بك أبا لأحفادي.

تحتج البنّت:

- "با" لا تقل عن الأمير أنه غبي، إنه جميل وأنا أحبه.

- لا أغبي منه حتى ولو كان على ذوقك. ألا ترين أنه لم ينتبه إلى أن الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!

تدرك تفيحة أن أختها مهددة بهذا الذي أنقذ به الأمير حياتها.

- يا غبية، ستبتلين ويسيل حبرك... سقف، شمسية.

يجب تحويل الانتباه بسرعة قبل تجدد الشجار.

- أشهر الساحر كلمة مقصّ. لنهرب جميعاً، نركب كلمة زورق.

تصرخ تفيحة: ونضعه على كلمة نهر.

ترقص تفاحة على السرير صارخة: فتأخذنا كلمة تيار.

تأتي نفس الأوامر من المطبخ بوقف الضجيج المعتاد. لا أحد يحملها على محمل الجدّ ولا حتى صاحبها. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقلد الرقص. تحدد لهجة أوامر نافذة الصبر فأنصح البنتين بالحدز. تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبية من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشة وقرصا وتجادبا بالأيدي.

تهمس تفاحة وعلامات التأمّر على وجهها: "يا" أين سنصل بزورقنا؟ سؤال وجيه. نعم أين يحملنا الطريق الذي رسمناه بالكلمات وبدأنا استعماله منذ تعلم فكّ الحروف؟

طبعا للمكوّن الآخر للعالم الذي تسميه الرؤيا فضاء الفكر.

لمتسائل أن يتساءل كيف يكون للفكر فضاء وهل هو مكون من أثير تسبح فيه الأفكار كما تسبح الأسماك في البحر... طبعا لا إنما هو قياس على فضاء الحواس بما هو مستوى الأفعال الحسية مثل اصطاد وحارب وبنى وضاجع وولدت وأرضعت الخ... ومن ثمّ شرعية استخدام نفس الصورة في المستوى الذي تبنّيه الذات بالحاسة السادسة بأفعال يأتيها الذهن مثل فُكر وحسب وتصوّر وتأمّل وانبهر الخ ...

يتصاعد التنفس البطيء من البنتين. أغوص في الأريكة واضعاً رجليّ على فراش البنتين، مستمعا لتنفسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تأتيني إلا وأنا على تخوم النوم واليقظة.

أغمض العينين أغفو وأستيقظ على همس البنتين والزورق السحري ينساب على نهر من الكلمات يأخذني إلى فضاء جبّالُه نصوصٌ، غاباته نصوصٌ، أنهاره نصوصٌ ومستنقعاته نصوصٌ.

أخيرا الفضاء العابر للزمان والمكان الذي حلمت باستكشاف كللّ ما فيه.

“هنا” جبال من الملفات التي أودع فيها الأدميون آلامهم نثرا وشعرا.

“هنا” حروبهم في الفكر وأكثرها تحضّر لحروبهم بالساطور والصاروخ،

“هنا” حمى الصراع بين المجلدات الدينية والمناهضة للدين في معركة يسيل فيها الحبر أنهارا.

أصخ السمع للصراخ المتصاعد من الصمت المريب: "يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدو الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أو من بما أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا نؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائيون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل

الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيديوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيدا وفهمنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أوباش، حقا لا نبي في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن خلافا للأغراب نعلم عنك كل شيء.

“هنا” تشريعاتهم المترامية المتزايدة عددا وتعقيدا والتي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين، مرتشين، متمعشين من الاتجار بالنساء والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبال من التشريعات لا تعري إلا حقيقة اجرام الشعوب واجرام الدول واجرام الأحزاب واجرام البنوك واجرام الشركات واجرام العصابات واجرام الأشخاص منهم –إيه والله- رجال دين لا يرون تناقضا بين وعظ المؤمنين كل يوم أحد واغتصاب الأطفال وراء الستار. كل هذه الجبال من التشريعات لا تفصح إلا فشل الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر... أو إن أردنا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

“هنا” تواريخهم، أي روايته المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفصوح والتضخيم والتزوير والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفكرون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح مموليهم، وآخرون يفككون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملانهم أو خدمة لمصالح ممولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمائهم التي صقلتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور يسهر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعشون من صيبتهم.

“هنا” ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكسد كل الأدميين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم وأغلب المرميين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة روجها الأعداء ومن يتمعشون من تواصل العداء.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

“هنا” معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، زبدة علومهم علومهم لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمة الإبداع الفني عند البشر.

المؤكد أن هذا الفضاء ورشة مفتوحة منذ انطلاق الملحمة الأدمية وأنها لن تغلق أبوابها قبل نهايتها. أما الطاقة التي تشغلها لإنتاج كم هائل متفاهم من الفكريات فهي مزيج من الحيرة والفضول وإرادة الردّ بأي وسيلة على أسئلة ما هذا العالم وكيف يمكننا التحكم فيه ولماذا نتقدم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة،

نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا يبقى أبو الهول الذي قد يكون المسؤول عن كل هذه القصة صامتا لا ينطق عبر الدهور نحن مصرّون على أن نَنطقه فلا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

يجب أن أخرج من الأروقة وجبال الملفات إلى ساحات الفضاء حيث الصراع الذي يغذيها على أشده.

آه هذه الواجهة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاغوريون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير الأثرية.

آه هذا سرادق الآلهة المكشرة وكهنتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكافؤون بكثير من الملدات الرخيصة وإن عصيتمونا سلخنا جلودكم دنيا وأخرة. لا، شكرا لست معنيا بمثل هذا البرنامج.

هذا سرادق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلمنا أئمن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.

هذا سرادق ديمقريط وبروتاغوراس وبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيرا وحكيما ومعتدلا، وعاقلا وصبوراً ونافعاً! لماذا يصرّون كلهم على أن أضيّع وقتنا ثميناً في مهمة بعثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جئت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي؟

نعم إنها نفس البضاعة البائرة على مرّ العصور... كلهم يريدون من الآدمي أن يصبح خيرا والشّرّ جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الساتورى أو النيرفانا أو الحكمة والحال أنه لا شيء في هذا العالم يثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بالواقع العنيد لتنتهي طفوسا يتعيش منها المخادع وأوهاما يعيش بها المخدوع.

القاعدة أن جلّ الساهرين على تغذية الفضاء أو القائمين على حراسة ما فيه من منتوجات متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المساكين، بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والنبور.

لا غرابة في الأمر والكائنات اللامادية الحية التي أسميها الفكريات والتي تتولد من عقولهم بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي وإلا فإن فكريات قاتلة تتربص بها لن ترحمها.

يتعالى من حولي صراخ الباعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكُلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من القرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجديّة على الأسئلة اللعينة... لا عَشْ عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقرب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعتُر أخيرا على ما بحثتُ عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ بمزوّري النصوص وبمهرّبها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسفّط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولةً جُلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بهُدَى وتوفيقٍ من الشيطان.

آه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم - ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة - أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسبّه وأخبره أنني سأختم به نصّي إذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل - اللهم إلا إذا كان امرأة-تدبّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إمطة اللثام عن هويته(ها). كتاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجدام!

قد ألقى صاحب مخطوطة فوينيتش. كم قضّي من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستمتعون ستة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر. نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

هل من الممكن أنّ كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثرثرة مجرد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلُّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد

فجأة أسمع البنتان تصرخان بالاحتجاج:

- "با" لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنَّها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحمَّلة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٌّ أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا- أمل كل المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحممحسن الأجوبة عن أسئلة لا يهَم أن تكون فاسدة الصياغة أصلا. ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصيح مغنِّيا أو أغنِّي صائحا "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيه مجانا "المدخل إلى الطب" شرط ألا يستعمله للفت السمك.

تتخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: مَنْ لم يقرأ رحلة "با" مات غيبا، ها هي تفاحة تغنِّي: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو ترويها لكم أحسن راوية.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأدميين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أما ما يدعونه من أثره وعمل لوجه الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطِّ المكاسبُ ثَمَنَ تحريك العضلة أنفة الذكر.

فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كتفي.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.

- نعم، نعم، أيتها البنات الأناثية التي لا تهتم لا بالإشهار لقصتها.

**

"مسافر زاده الخيال"1

في ملف الطفل وهو في بداية استكشاف فضاء الخيال يصرخ "با" في امرأة على عادتھا مغرقة في الصمت: ولدك هذا سيذهب بعقلي، أمكذا تربين أطفالي؟! ثم متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس "ما" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس "با" ما كان يجمع علي طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للفأر.

كانت أولى محطات الإقلاع التي وُجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ المفضل.

حتى أعصاب "ما" قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أطعه... إلخ.

يستثيب المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يعلق الطفل الكتاب مُكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي يتأمر كل من حوله لمنعه من اتمامها.

تدافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا بطل وحده من يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل أخيرا بفراشه متنقّسا الصعداء استعداد كتابه من قبضة المعلم.

يرتفع صوت "ما"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثا، لن تمنعه حتى أمّه من مواصلة القراءة لمعرفة إلى أين تقود وكيف ستنتهي القصة التي استحوذت على لَبّه.

1 مطلع قصيدة للشاعر المصري محمود حسن إسماعيل (الناشر)

إنها عن أمير اسمه “راما” رحل مع زوجته “سيتا” وأخيه “لاشكمننا” إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبتها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي “لانكا” تبكي “سيتا” قومها ووطنها، لا تخفي رعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

“سيتا”! “سيتا”! خطفوا “سيتا”، خطفها “رافانا” اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص الدور. نعم، هو الذي سيحرر الفضيلة ويعيد الملك إلى صاحبه والأمور إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- “ما”، أرجوك. لا بد أن أنهي الفصل الأول على الأقل، أرجوك.

- طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمه أنه واثق أن قبلاته عبرت حاجز الورق وتسلفت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. آه يا سيتا، يا “جاناكي”، يا ضفائر سودا علي الظهر تدلت، يا عيون المها، يا بسمه الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعة، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إن “ما” لا تعي ما تقول. ألا تعلم أن الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكتمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهرَب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربما تتهددها أشياء أخرى أفضع بكثير؟ لا تقدر “ما” كم هي حرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيداً، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بد لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزاً عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليط اللسان حتى مع أمك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن “ما” تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم يسر في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من “واقعها”: لا تقفلي، هو لا يلعب، لا يضيق وقتاً، لا ينهك عقله، إنما يتمرن ويتعلم أهم ما يجب تعلمه. اتركه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكراً ككل “الأبرياء”، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث. كانت تظنّه نائماً وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه.

ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلَّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيّق عليه الخناق في كل مجرة. تكشف السماء عن أنيابها وقد توسّطتها شمسٌ بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم.

أن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملف، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم المويوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تترك ان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: أه يا راماً، قتلنتي لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرباً بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يميناً وشمالاً أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه ... أنا راماً... أنا سيّد الأسياد!

بالمناسبة، ماذا عليه أن يفعل بالحبيبة وقد نجاها من الموت ومما هو أفضع من الموت؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلاّ الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة.

لم يكن الطفل واعياً تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقرى اسمه فالميكي، أنه سيقضي جلّ رحلته يتجوّل في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم جلّ واقعه خيال وجلّ خياله واقع.

يكشف الطفل يوماً بوابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلّم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها " الشرقية".

ها هو يدفع بالمنابك لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه العالم لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الأدمي تعلقا وإعجابا؟! يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطي حائطا شاهقا تتجه إليه الأنظار توجّه المصلين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينعف فيه صراخ المعلمين طلبا بالهدوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجهه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة مناظر لحقول وجبال تخرج من اللاشيء ثم لأدميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريث، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجب. هل ثمة ألد من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنه لا يفوت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنها العدوى.

تتوقّف الصرخة فجاءه قلقٌ مبهم، هل سيثب الفرسان من الحائط إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنانك الخيل؟ ترفع الفكرة آليا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الدهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا يبنثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يبنثون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية للألام بالوكالة؟ هو شغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصياد والصيد لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قدّم العالم تحركت داخل قطعان

من الكواسر الصغيرة، أو كأن رائحة دم آتية من أعماق كل ذات عقيت في القاعة تذكر الأدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتل ويدودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهديين بالقتل.

لا شك أن "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابية جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشية جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرون من كرّ طفل مغوار يُعمل في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهتد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابية عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله: أين البشر والخيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغيب، هو أم هذا الذي يقول إن الكائنات التي رآها بأم عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أي طريقة لإرضائه غير التكتّم والخداع، فالأمّ مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف وقتل. كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسيّ، كفضاء الفكر، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والأدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه كل أحلامها وكوابيسها.

يتهامس الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيق يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان الذي سيفضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على "ما".

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو "العبيثة" التي ما زالت الجدة تهذّه بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار نريد الشيء ونقيضه، نجري وراء ما نفتعل الهروب منه، والحدود بين ما نحبّ ونكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج الطفل مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال.

المشكلة الآن ماذا سيقول للأُم بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش "ما". لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعا للأمر الأبوي الصارم التحلّي بالشجاعة، أو على الأقلّ افتعالها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكّل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانة إله الآباء والأجداد والاستنجاد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما" ثومها المنقذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويذاه منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيذ القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبهراً البوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للآدمي. ينطلق الكائن من قبره باحثاً عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت.

اللعنة، لماذا يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت دّمته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وقتّس عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟

القاعدة في هذه الحياة أنّ الخوف من خطر ليس دّفا له إنّما دلّه على أقصر طريق إليك وأنك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

هكذا وجد دراكولا منفذا إلى طفل يهبّ صارخا والبول -لا الدم- قد أغرق الفراش. ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الأدمي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة.

ثمة أيضا تصور العالم كمغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض.

لكن ماذا لو كانت اسطورة دراكولا تذهب إلى أبعد من هذا وهي تقول بشرعية ممارسات شائعة في بعض المجتمعات قوامها فتح القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

-

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلق نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سلم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنيات بنجاح المهمة. تركب الذات مطية الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحركات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرف له جفن، وإنما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط - حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريخها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنه أنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان لبعل ولدعوات "ما" وللطيار الهُمَام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفّرت لحلّها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يواصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقّل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيّد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعماق المغارات يقتل الساحر والثور

ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثاً عن نبتة يتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

تمرّ السنين. شيئاً فشيئاً يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنبت يوماً للطفل بداية لحية وتنفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

كفى من المعارك مع الشياطين وأشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبية بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنات الجيران: الحبّ أجمل من الحرب.

يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستيق الأحداث.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قيل لك بتصوّر متاعبها.

تُرفع حواجز الحياء والحرج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

يهمس الصوت الساخر:

ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

تمرّ المراهقة لتدخل الرحلة مرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا جذريا.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقّحة وفيه كل الأجوبة على كل هواجس كل آدمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنّه “لا نبيّ في قومه” وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب لأنّ السوّق زاخرّة بالمتقدّمين لأقدم المهامّ، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدى نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدّت له الخشبة والمسامير وعُين الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالّين. يغيب المصطفى عن الأنظار وتوآح حواريهه يرنّ في الأذن. آخر

فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيّبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجارياً كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف مُلحقٍ صحفيٍّ برؤجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملّة، وعلى طاولات المعارض للكتب البانّرة، إلى أن يتعلم الخزائير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيراً من المطابع السريّة لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلاً على أكوخ المعدّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في برائن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذيها للولادة إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلاً إلا وسارعوا إليه بتمائم مأخوذة من جُمّله المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتهم، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. ها قد دام خريف الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحاً تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكأبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحرناً، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلع بدين. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخريّة وعطف جزئها الراكب فوق حطام حصان.

- ضع حدّاً لهذا النيه. أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع.

يهزّ الشيخ الكنيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فمهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها الهامات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجدل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعلمنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الدنيا".

يتنهّد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبّة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

على فكرة كم لنا من أنا؟ ... أنا للمعروض للخداع أو للإبهار... أنا المخفي عن الأنظار... أنا الذي يعيش بعض قصته في فضاء الحواس... أنا الذي يعيش أهم فصولها في فضاء الخيال... أنا الذي يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام... أنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحباء عند الموت... أليس من الأصح أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن، وليفسر البعض هذا بجنون العظمة... ألا يعني كل هذا أيضا أننا لا نعيش حياة واحدة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وإنما "حياتات" عدة التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، التي نقضيها في فضاء الحواس وأجمل "حياتاتنا" المتعددة التي نعيشها في هذا الفضاء المبارك بين كل الفضاءات.

-

الموضوع الآن وظيفة هذه المكون الآخر من مكونات عالمنا. يا لها من كارثة لو لم يوجد فضاء الخيال هذا نعوض فيه حرماننا المتواصل الذي هو قدرنا في فضاء الحواس وفي فضاء الفكر. لذلك نحن نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء عند القرب من الواحة. هناك من يرفضون مفارقتة أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية.

هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفصح فيه أعماق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها وكل المطلوب عدم الإدمان.

لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان. إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.

يقرر أنه يريد أرنبه ناطقا.

- أريد أرنبًا يتكلم.

تستجيب القوة المجهولة فوراً:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كأننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقبّل العالم شفثيه وتلمح في عينيه ابتسامة مآكرة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كأننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.

تتصاع القوة المجهولة كأن لا همّ لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقرّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.

ها هو الأدمي منكبّ على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذنب وذلك على امتداد أيام واسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من عاجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم آدمي والفنان يضيف لكائنات العالم كائنا جديدا هو خالقه.

كم من فنّان مثل شوبرت عمل على الأصوات يعيد تركيبها لتضيف للعالم كيانات صوتية لم توجد من قبل وتنافس في جمالها الأذن أصوت تدفق الماء في الجداول... وأيضاً كم من فنّان مثل شونبرغ صرخ كفى من موسيقى النغم والوزن والتناسق فلتنطلق الأصوات بحثاً عن أشكال لم تنظمها الطبيعة يوماً.

مع بيكاسو وشاجال يدير الأدمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد من قبل.

مع أبو ماضي وإيسا وبوشكين وهولدرلين تضيفي الكلمات في تنظم مفاجئ على العالم صوراً وحالات لم يعهدوا ذهن من قبل.

فضاء الخيال هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحات الرسام وأنغام الموسيقى وأفكار الفيلسوف وعالم فيزياء النسبية والكم.

اعتبر كل الطفرة العلمية التكنولوجية التي تقلب حياتنا رأساً على عقب وقل لي أليست أحلامنا وكوابيسنا تحققت كلياً أو جزئياً؟

القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوماً أحلاماً في هذا الفضاء.

حلم الادميون قروناً طويلة بشفاء كل الأمراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على سطح القمر.

تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام في فضاء الحواس بفترة طويلة والأداة الوحيدة السحر.

ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتحقيق أهداف السحر بوسائل العلم.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبداً بحثاً محموماً عن الجدة والظرافة والتنوع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطيها التكنولوجيا في هذا العصر امكانيات غير مسبوقة.

إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأنّ العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها باستمرار ليكتسب حالات وأشكال جديدة وفق خيال الادميين لا وفق خيال الخالق الأعظم ولسان الحال يقول له انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضاً.

**

لبنات الأرقام

وفي هذا الملفّ عن استكشاف فضاء لم يعرفه الأوائل ثمة معطيات قديمة تسترجعها الذاكرة والطفل يصرخ في معلّمه في حصة الحساب:

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد بعد عشرة ومائة!

- طبعاً، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العبث؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثم صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!!

سيّدي!! بؤسعي أن أملاً الكراسة بأكملها بالأصفار!

- يا مجنون، هذه آخر حماقاتك، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدّداً أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتتسبب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دوّماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفار. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها اللانهائي دوّخت قبله كمّاً من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جنّ كَانطور من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرّك؟

ما كان يجله الطفل ذلك اليوم -شأنه في هذا شأن كل المرتحلين- عمق الثورة التي سيحدثها في عالم الأدميين هذا الصفر رمز اللاشيء برفقة الواحد رمز الكمال وقد أصبحا الرقمان الأداتان لبناء آخر فضاء لعالم يبدو أكثر من وقت مضى أنه مشروع متواصل البناء لا كيانات ثابتة مهما بلغ من الاتساع والتعقيد!

تصوّر دهشة ابن فضلان وابن بطوطة وهما يكتشفان صحاري جديدة لم يعرفهما أحد من قبل. تصوّر دهشة كولومب وماجلان وهما يكتشفان بحراً غير مرسم في كل ما عرفا من خرائط. تصوّر خاصة دهشة الأربعة وهم يشاهدون التمدد المتسارع في كل الاتجاهات للصحراء وللبحر.

هذا الفضاء الذي برز فجأة مغيراً بصفة جذرية جغرافياً وطبيعة العالم المألوف هو ما نسميه الفضاء الافتراضي. هو ليس جزءاً من فضاء الحواس حتى ولو كان بحاجة إلى أشياء محسوسة مثل الحواسيب ليوّجد. هو ليس جزءاً من فضاء الفكر رغم أنه يعجّ بالفكريات ولا هو امتداد لفضاء الخيال رغم أن الخيال من أهمّ أدواته.

هو فضاء لبناته من صنع طاقة للعقل غير متفق على طبيعتها ولا على طبيعة الأدوات التي تستخدمها ألا وهي الأرقام.

فهذه الرموز هي التي تصف العالم أدق وصف، تحصي، تقيس وتصنف جلّ مظاهره.

هي التي ترصد له حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معيّن ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصنع ملامحه فلولاها لما حلّقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بإحصاء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصاره منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر وللشعر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قافلة المرتحلين وأنت معرف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض التي لا تشتغل إلا بها.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطوّرها إلى ابعاد نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فوضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات والأفراد. حدّث ولا تسئل عن انهيار البورصة وشلل جلّ دواليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالا للشك من اللبنة الأساسية للعالم الذي نعرف ومن أهم العوامل المتحكمة في رحلتنا فيه.

ها هي اليوم برقمين لا أكثر تضيف للعالم الذي عرفه الآباء والأجداد فضاء جديدا أصبحنا نقضي فيه استكشافه جزءا متعاظما من رحلتنا وتكتسب الرحلة فيه جملة من الخصائص تقلب مفهومنا وتجربتنا لها رأسا على عقب.

تصوّر مرتحلا في الفضاء الحسي، لا يضع خطوة أمام أخرى إلا والفضاء الذي أمامه يتوسع في كل اتجاه وكأن المشي هو الذي يخلق مزيدا من الصحراء المراد اختراقها.

بخصوص الأماكن التي يعجّ بها أغرب فضاءات العالم والتي قد توّد السفر إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو

“أكسيت دوت كوم”. لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسي.

خاصية هامة مرحب بها أن المشي على الطريق في هذا الفضاء هو دوما بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصات التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسي مثل بعوض المستنقعات الاستوائية وذبابة القطب الشمالي وأسود الأحرار الإفريقية وضباط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضا أن تعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقي يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الفضاء الجديد يتغير أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر بئينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحول من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفلبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

لا يعني هذا أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل خالٍ من المطبات والأخطار. هو أيضا -مثل الفضاء الحسي- ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جزالات بخمسة نجوم يُعدون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيب فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخ برامج محمّلة بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

الفضاء الجديد مجال يلوّثه المرتلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهايار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بfonoغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو قمامة تصبّ فيها مجاري صرف صحي تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في الفضاء الحسي، حيث يختلي كل واحد بمراحضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمّة التخلص منها بعيدا.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهول فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليلٍ وليالٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

لا مجال لأن أضع عليه أيّة صورة أو أيّ اسم على العدو الخفي.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب. أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعمالقة التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسي والذي أستودع فيه ما أكتب علي أنخطى رقابة البوليس السياسي. لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يحاورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتتم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد أيسنقظ من قبره ويعود إلى مضايقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والمثلم وطرزان وأزدروبال؟ ثم لماذا اختار المقتعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتقام من الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقفي آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكتابونني ويشتمونني ويهددونني ويعلمونني بأني ربحت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، ويملؤون موقعي بالتفاهات لتدمير سمعتي.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعتني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما يشاء من الألقاب، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتفعله أو لسرقته أحد، وربما يعيش ما لا يوحى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات تقاسمنا بعض خصائصنا البشرية دون أن يمكن حساباتها من جنسنا البشري وهي تستعد لتأخذ مكانها بيننا حتى ولو كنا لا نعرف ما المساحة التي ستحتل.

لقد بدأت قصص الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الافتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

سؤال لا أحبه كثيرا: هل قطعك كل هذا الشوط من الطريق لاكتشف وأنا في آخر مراحلها أنني كنت مجرد رحالة بدائي حبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين...وأنتي سأغادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبغ كتاب الخيال العلمي.

أتخيل رحالة يتصفحون كتالوج زاخر بأجود الرحلات لأروع العوالم ووكالة الأسفار تحاول اغرائي بواحدة منها. لا شكرا والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقبة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة في الكتالوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورَّع متاعب الرحلة وملاذاتها بأكثر عدلا مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دَفَع فيها أعلى الأثمان.

على كل حال هنيئا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات أو تجولهم داخل المجرات وشوارد الذرات وهم مستلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمغتهم. نعم، هنيئا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص.

لكن أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أي لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

تقول ربما ستعطي البرامج التي سيضعها المهندسون أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر.

لينفروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضّل الأصل على صورته، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصل، أم أن له ما لا يحصى من الصور والأصل نفسه واحدة منها!

**

النموذج المستحيل

العالم إذن خلافا لما كان يتصوره الطفل ليس طبقا من الصلب وُضعت فوقه قبة السماء كما يوضع صحن أجوف من البلّور الشفاف على طبق الطعام. يتضح أيضا أن لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي أمه ولا القمر من فضة خلخالها.

يتبلور في الذهن تدريجيا تصور جديد له وأنه فضاء تبلوره الحواس الخمس وسمّيناه فضاء الحواس... وفضاء تبلوره اللغة سمّيناه فضاء الفكر... وفضاء تبلوره المخيلة سمّيناه فضاء الخيال... وفضاء تبلوره طاقة أخرى للذهن هي الحساب سمّيناه الفضاء الافتراضي... والديناميكية لهذه الفضاءات هي التي تصنعها الأفعال والتفاعلات حسب الأدوات المتوفرة وداخل الحدود التي تسمح بها طبيعة هذا الفضاء أو ذلك.

هذه الفضاءات الأربع ليست طوابق مستقلة كطوابق العمارات، الطابق الحسي هو الأول وفوقه طابق اللغة وفوقهما الطابق الخيالي وآخر طوابق البنية الطابق الافتراضي.

هي طبقات مترابطة لا توجد إلا ببعضها البعض. قلنا إننا لا نرى الأشياء فقط عبر قرنية العينين وإنما أيضا عبر "قرنية" اللغة. هل من الممكن أن يوجد فضاء الفكر على الأقل كما هو عليه اليوم دون كيانات من الفضاء الحسي مثل الورق، والقلم والكتاب والطابعة؟ هل كان بوسع الخوارزميات أن تتحكم في الفضاء الافتراضي دون الحواسيب وشبكات الاليف في قاع البحار؟

القاعدة أن مختلف الفضاءات تصنع العالم على تباينها كما تصنع الألوان السبع لقوس قزح النور الذي نعرفه واحدا.

المشكلة كثرة الأسئلة التي يثيرها هذا النموذج.

فالقول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ الذات يعني أنه ليس له وجود خارج هذه الذات التي تخلقه.

صحيح أن عالمي سيرحل برحلي وسينتهي بنهايتي وأن العالم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه كما انقرض عالم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء.

لكن ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر آدمي وجود شيء كان موجودا قبله اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية؟

ثم، إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه كل التحكم بأفعالي الحسية والفكرية؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو

اختراق الجدران أو العيش قرونًا؟ لماذا عليّ اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع استعماله ولو بعض الشيء؟

أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل آمنًا به أم لم نؤمن؟
لسنا هنا إلا في بداية الصعوبات.

إذا قلنا إن العالم معطى حواسٍ /فكر/خيال / الذات فهذا يعني أنه موجود داخلها.
لكننا نعيش في هذا العالم كما لو كان أكبر حاوٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا.
ألا يعني هذا أنه موجود خارج هذه الذات؟

كيف يكون العالم موجودًا داخل الذات وخارجها؟

كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن أمواج المحيط بكل ما يحتوي تتلاطم في جوف هذه السمكة!
ثمة مشكلة أخرى: هل العالم واحد أم عدد لا متناهي.

اعتبر الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الأربعون كيلومتر انطلاقًا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف ولم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يذرع الأرض طولًا وعرضًا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصويين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفًا في رحلة هذا الأدمي أو ذلك.

شتان أيضًا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على "فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي... التي انقضت... التي سترى النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي.

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟
وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على إدراك
كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن.

لقاتل أن يقول حتى هذا الكائن أيا كان الاسم الذي تعطيه له هذه الديانة أو تلك
موجود كمصطلح من مصطلحات لغة آدمية، كمفهوم من مفاهيم الذهن الأدمي،
كتصور من تصورات المخيلة الأدمية مما يعني أنه جزء من عالم الأدميين فكيف
يمكن للجزء أن يحتوي الكل؟

والآن هل العالم واحد حتى بالنسبة لنفس الذات؟

نحن نعرف أن هذه الذات ليست مرآة تنعكس عليها الصورة "الموضوعية" للعالم.
نحن أساسا كائنات حساسة تلعب المشاعر دورا محوريا في بلورة هذا العالم.
يا لروعته والذات رائقة المزاج حتى بغض النظر عما تلاقي من صعوبات
ومشاكل!

يا للتحوّل عندما ينقلب مزاج الذات إلى النقيض لا يهم أن تشاؤمها مبالغ فيه
وشكواها بالغة الظلم!

عن أي عالم نتحدث إذن وهو يتخذ داخل نفس الذات حالتين على طرفي النقيض
تارة كأرواح حالات الوجود وتارة أخرى كأفطعها.

ثمة مشكلة ضافية تزيد من تعقيد المعقد وتصعيب الصعب.

انظر إلى الفضاء الحسي للعالم كما هو اليوم. لقد أصبح من المعروف أنه كان جد
مختلف في العصور السحيقة: جليد يغطي قارات بأكملها، غابات استوائية في
مستوى القطبين، براري خضراء تمرح فيها الغزلان والفيلة أين لا نرى اليوم إلا
كثبان الرمل التي لا تأوي إلا بعض الأفاعي والجرذان، جبال شامخة اختفت أو
تسطحت لتعطينا ما نعرف من هضاب بعض الأماكن، الخ.

كذلك لا أحد يدري كيف سيصبح المشهد بعد مليون سنة. كل ما نحن متأكدون منه
أنه سيكون هو أيضا جد مختلف عن حاضرنا وعن مختلف أحقاب ماضينا.

حدث ولا تسلم عن التغييرات المتواصلة للأجناس الحية من نبات وحيوان التي
شهدها هذا العالم والتي ستتواصل إلى نهاية رحلته هو الآخر.

العالم إذن العالم مشروع لا معطى. وبما أننا لن نستطيع معرفة ما مصير هذا
المشروع وما طبيعته وأهدافه فإننا سنبقى دوما في محاولتنا فهمه كمن يتصفح كتابا
ضخما لا يفهم منه إلا العنوان ولم يقرأ منه إلا بضعة أسطر وسط النص.

ما الذي يمكن أن نقول إذا طلب منا أحد أن نلخص له القصة التي يحتويها الكتاب.

أخيرا وليس آخرا.

سواء كان داخلنا أو خارجنا أو داخلنا-خارجنا، ثمة شرط أساسي لوجود أي فضاء: الوعي به وإلا كان وجوده والعدم سيان.

ما الذي نعني بالوعي؟ إنه الحالة التي نكون فيها ونحن نعرف أننا نعرف.

أنا واعي بالقمر لأنني أنظر إليه وأنا أعرف أنني أنظر إليه. أنا واعي بتفاعلي مع الآخر لأنني أعرف أن هذا الشخص غيري وأني بصدد التفاعل معه. أنا واعي بألم الأسنان الذي ألمّ بي فجأة لأنني أعرف أن إنذارات تأتيني من داخل الجسم وأعرف أن عليّ أن آخذ موعدا قريبا مع طبيب الأسنان.

لكن حالة الوعي هذه منقطعة أو غير موجودة أصلا جلّ زمن الرحلة وفي المستويات الأربعة. ففي الفضاء الحسي جلّ أفعالي وتفاعلاتي مع العالم لا واعية: نموذج عمل خلايا أعضائي التي لا أعرف كيف تشغل.

نفس الشيء بخصوص اللغة التي أتعامل مع قواعدها آليا دون أن أكون نحويا أو أن أعرف كيف تشكلت اللغة ومتى وكيف ولدت وتطورت كبرى المفاهيم التي تتحكم في أفعالي وتفاعلاتي مع العالم.

إذا كان جلّ هذا العالم موجودا تحت سطح الوعي فمعنى هذا أن العالم إلى الأبد مجهول.

يا للحصاد البائس!

كل محاولات الفهم للوصول لقناعة استحالة الفهم!

كل هذا الجهد لمثل هذه النتيجة!

من قال هذا؟ لم نتحدث إلا عن عالم في المطلق كما لا يستوعبه إلا فكر إله -علما أن هذا العالم في المطلق قد لا يوجد إلا في أذهاننا-لكن إذا قنعنا بالعالم النسبي الذي نعيش فيه فسيُضح لنا أننا نعرفه كأحسن ما تكون المعرفة.

ألا تعطينا عنه أحاسيسنا ومشاعرنا التي لا تكذب أغلب الوقت أصدق المعطيات عنه للتمتع بروائعه وتفادي أخطاره وإلا لما تواجدها فيه ولما تواجدها فينا؟

إذا كان له طبقة لا واعية لا ندركها بفكرنا، فإنه لنا نحن أيضا طبقة لا واعية من ذاتنا تتعامل وتتناغم وتتجاوز بصمت طول الوقت مع لا واعي هذا.

لكن لماذا نواصل الاستماتة في اعتباره لغزا للفاكّ والحال أنه أيضا أفخم مأدبة ونحن من كبار الضيوف؟

**

الكتاب الثالث

الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرّق شوقاً لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني يا إله الآلهة ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا تأملني يا أرجون في أشكالى القدسية، إنها بالمئات والآلاف نوعاً ولونا وشكلاً، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

استمع إلى الشعر بأية لغة تعرف. لن تجد في أجمل قصائده إلا انتباهها لعلاقات تبنيها الذات مع العالم لا يتوقف عندها إلا أصحاب الحسّ المرهف.

أحصد القمح (ناكاتسوكا)

وفوق ظهري

كلّ السماء

الرسّامون هم أيضا من كبار المنتبهين. موني مثلا وهو يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيّر الطقس وتبدّل اتجاه أشعة النور للعودة إلى معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية الخلق أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل. أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انتباهه في الذات، أنك تفيق فيه للمرة الثانية.

لما تنتبه للشمس تتجاوز الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس ولما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر يخيل لك أنك تشمها لأول مرّة.

أهمّ فضل وخاصة للانتباه تفرّغ الذات للحظة العابرة وللحظة العابرة وحدها وقد تخفّت من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.

ليس من باب الصدقة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" أي المنتبه.

ليس من باب الصدقة أيضا أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.

على الطرف النقيض التبدّل.

إنها الحالة التي تجرّبها الذات انطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر، زال التهيّب وتبخّر التعجّب والإعجاب.

كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)

إلا أن الحياة لا تتنوّقها كل الأنفس

كي لا تعبر العالم مثل السائح التائه في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تنغلّق عليه القاعات والأروقة من روائع، لا بدّ من تعهّد الانتباه لأنه الحالة اليتيمة التي تستنفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليّا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز بينهما.

دوريا أشعر بأن التبدل أصبح كبعض الهواجس مزمنًا. لا بدّ من العودة إلى بعض تمارين التخلص منه والتي أحرص عليها حرصي على التخلص من زائد الشحم بالجهد والمشى.

على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا شاغل.

يتسّم البصر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثًا مصيرا لم يعد منه مفّر.

ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟

الورقة الآن معلقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرًا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص. هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحمي أو تشكر أو تودّع.

تحطّ بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبتي ثم أغيّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الحياة التغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة.

أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة بما وراء المألوف من أسرار تتعلق على أحاجي تسكن الغازا تحير أكبر العقول.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصامتة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون. من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

آه، ماذا عن زقزقة هذا العصفور المختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر، هذه الزقزقة اللطيفة التي يتعنى بها الشعراء والعشاق؟ هل هي دعوة الانثى للجماع أو تهديد للذكر الآخر بأن يبقى خارج حدود فضائه والويل له إن خطاها؟

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة الصغر التي تختبئ تحت قدمي. ففي هذه السننيمترات القليلة التي تدوس عليها قدمي أجناس لا تحصي ولا تعدّ، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة. كلها تتبارى غرابة وتباينا وتعقيدا. كلها في حرب لا تتوقف

وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل ومأكول، طريفة وصياد... كما هو الحال في المستويات المرئية من العالم.

عند انحسار التبليد وحضور أقصى الانتباه يتضح لك فجأة أن أهم شيء في هذا العالم موجود وراء ما يرصده البصر وأن هذا المجهول صندوق أسود من الغرائب والعجائب يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبداً.

أفتح العينين أسارع بالعودة للمألوف المطمئن منتبهاً لكوني أتجنى أكثر من اللازم على التبليد بادعاء أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل.

أنت لا تتخذ عضلة لتتقبض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتاً كافياً للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الردّ احتجاجاً على كثرة الوخز.

أليست حدة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لا نستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام مظاهر العالم في حالة أشبه ما تكون بالتعبّد.

محكوم على الرحلة إذن أن يكون لها نبض كنبض القلب: انتباه فتبليد فانتباه فتبليد وذلك إلى نهاية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين للتمتع بكل ما توفره لنا من روائع إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقلّ أغلبه.

**

عندما يضع العالم كل ما لديه من حُلي وحُلل

من ممّا لم يعد أكثر من مرة لتفحص ألبوم الصور العائلية مسترجعا ذكريات ماضيه.
المطروح أمامي والنص في بداياته أكثر من هذا.

داخل هذا الكومة الهائلة من ذكريات استكشاف معالم العالم، ما الذي بقي منقوشا في
الذاكرة عن اللقاء مع البحر، مع النهر، مع الغابة ومع الجبل؟

في أقدم الملفات تسأل "ما" ابنها ألا يبخل عليها بتفاصيل لقائه مع البحر أول مرة
و"با" بنفسه من تكلف بمراسيم تقديمه إلى البعبع المرعب المبههر.

ليتها فتح الطفل ذراعيه علّه يبئغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متنّسح، كم هو
ملآن بالماء فسقطت الذراعان والعجز عن التعبير الشعور الغالب.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى
الأفق؟ كيف يصف هيبية دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يقنع الأمّ أنه رأى
بأم عينيه سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانه ثم اختفائها فيه!

كم يكره أن تظنه أمه مبالغاً أو كذّاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجددا أم هل
سيحتفظ بها نهائيا فتعدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيس.

من الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤرّد لها، أنه اكتشف أين تذهب
الشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلّق الأمر بالبحر.

يتجدّد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذة العوم في موج هادئ أيام
الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو
كان هو الآخر سمكة جاهلا أن الأسماك خلافا للبشر لا تموت غرقا.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه
مصرا على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلوّ الشاطئ
من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صاخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق
السطح، أنه يخنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ: النجدة! النجدة!

ذلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة
الواجبة انتشله من أشدق البحر يرتجف بردا وخوفا ويسعل كما لم ولن يسعل فيما
بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخير في بعض الصحف الشعبية عَرَقَ طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأنف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها بقيت أوراقا بيضاء والكتاب مات قبل أن لم يخط عليها حرفا واحدا.

منذ ذلك اليوم وفوييا البحر ساكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبدا للبيع المخيف لا سباحة ولا سياحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم ألبس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراءه الذي لا يقاوم.

هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يترتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جامعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

في ملف آخر هذا أول لقاء مع المحيط وقد غلب فضولي لمعرفة أروع مظاهر العالم أعماق المخاوف.

يحدّثك الأقارب بتهيب وجَل عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة "ما" مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مقدّس كان سيدهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا الذي يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكف عن الصعود والهبوط.

لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستنزّل منه أمام بيتك تترنح فيصنّفك الجيران بعرييد وضح النهار.

هل تقدّر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.

يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلعا أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الأدميين... وأنه مستعدّ لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

لله درّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا ينتهيهم كم من مرة ألقى بهم في غياهب البمّ. حقا إن شجاعتهم لضرب من التهور أو الجنون! لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البيع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون من ثبات قرطاج إلى حراك البحر مزة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مزة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي الغرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجِي من ذاكرته كل ما عانى، عاندا لأحضان الغول، بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضتُ إلى أبعد نقطة أحتمي من البحر بالجبال أضع بيني وبينه وسع بالبراري.

عاد إليه حانون كما عادوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم ير أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشحه طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتنوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشحذ كل ما في جعبتهم من مهارات، من نكاه، من فضول لا يقاوم ومن جراءة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار.

الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أية قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية الصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

آه، إذن الحوت الذي ركبتُ هذه السفينة الصغيرة عليّ أظفر منه بنظرة هو الآن في مرمى البصر. إنه يسكن فضاء خيالي منذ قرأتُ له رحلته في قصة هو بطلها تحت اسم موبديك.

أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقنا عليه بكل حرص خوفاً من أن يكون للسماء أيضاً صعودٌ وهبوط وكل أملي أن ألقى نظرة خاطفة عليه.

يحدتُ الدّوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجّر من الفم قبناً كريها.

تعود المرأة إلى الصّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان!
كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان مفليل. نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغتُ كل ما في معدتي على فستانٍ عجوزٍ أخرى أشبعتني نظراتٍ ساخطة.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سميك السائل!

ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضاً صحراء، لكن من الماء لا من الرمل وبدؤه الدلافين والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضاً يرحلون بحثاً عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعبة يجدون فيها الكلاً والمرعى وجماعاً يُجدد الحياة. ما يقال أيضاً إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كانتات تنباري في الغرابة والإعجاز تندافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان...أو ما تعيش من أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا.

ألم تسجّل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك؟ ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء المحيط الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟

ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلوها، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكّي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إرباً إرباً.

جميل، لكن ما يهمني أنني أنا الطريدة والبحر الصيد على وشك أن يعمل فيّ أنيابه وأظافره السائلة.

على فكرة، أليست هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدّاقها لانتها منا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها نقيّاً على بعضنا البعض؟

أخيراً المرفأ.

لا تصدّق أبداً من يتشدّقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضاً بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم بنينا على ضفاف بحاره كم من

موائى نغادرها ونعود إليها بيننا وبين أشداق الموت سنتمترات من الخشب أو الصلب!

المهمّ انتهاء هذه السفرة اللعينة التي دفعت فيها ثمننا باهظاً لأقضي يوماً من أثقل وأغبي ما عرفت من الأيام. أخرج من السفينة الصغيرة أمشي على الرصيف وكأني خارج لتوي من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتاناً أنني من روادها الأوفياء.

أدير الظهر للبحر وقد قرّر القرار. نعم لن أعود له ما حبيت.

ما أكثر القرارات التي نأخذها وتتكفل الحياة بالسخرية من السحنة التي اتخذنا ونحن نجدل بها على أنفسنا وعلى الآخرين.

ها أنا مجدداً بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقاوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعبث بالسفينة عبث القطّ بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برّاً وبحراً على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة السويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى أنا الطريدة والبحر صياد على وشك أن يعمل فيّ أنيابه وأظافره.

أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وأبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل على وشك الموت غرقاً وكأني الحادثة وقعت البارحة.

أليس صحيحاً أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بدّ أن يلحقنا يوماً ما؟

فجأة ينكب عليّ رجل ملثمّ يحمل مدفعاً رشاشاً ليقول سيدي، لا نريد بك شرّاً ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن نهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعوني فيها عنوة أحدّق طويلاً من النافذة في قوافل السحب متمتعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بجذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلت من براتنك للمرة الثالثة، لا تعوّل على فرصة أخرى لست مثل المجانين الذين يحبون استفزازك المرة الواحدة بعد الألف ولا يتوبون.

من أين لي الوفاء بالوعد واغراء البحر دوماً نفس الإغراء؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقتي الخاصة. من قرّر أنّ على الأدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله

الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون الشاطئ لا يحيون عنه إلا اضطرارا، ياكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟ نهجا على سنة أوائلنا كرم الله وجوههم وتيمنا بسيرتهم المباركة وانتفاعا بحكمتهم وحنكتهم فإنني سأواصل استكشاف البحر لكن مشيا على رمل شواطئه. يُسمح لي بملاحظة نهم كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصل لاستكشاف هذا العالم من المشي.

من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أي وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات.

لا أتذكر أن فكرة هامئة أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن القوضى التي بداخلي اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتبهة الوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أوائلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يندوون أفخم مأدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصوا ببعضها أحيانا.

هكذا سأطوف حول البحر الذي عشت سنينا على ضفافه ونعلاي بيدي بنطلوني مرفوع إلى الركبة وقدمي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملا عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لندوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرع في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم اكتفي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظرا لصيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمد من يتوجب له الحمد أنني لسْتُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلبل.

*

وفي هذا الملف الآخر عن التجوال في الارض ذات العرض والطول صور تنطق بالحياة عن مضيقي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طبقت شهرتها الأفاق وهو يجذبني من ذراعي.

- هيا ، الولية تنتظرنا للغداء ، يكفي ما تأملت هذا الهرم.

- لا تستعجل عليّ، يا للمهندس العبقري الذي أمر الصخور أن تتخذ أشكالا هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فن خلق الجبال.

- الأغرب أن الذين هندسوا وشيدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من عناء ومن حوادث مروعة فقط ليتمتع حفنة من الفراغة بالخلود.

- ربما الحقيقة أن الذين شيدوا هذه الأهرامات لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات ذواتهم وسعيًا لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير السلع الضرورية وخاصة الخبز والجمعة؟

يهزّ الرجل كتفيه مستهجنًا فكرة لم يدافع عنها يوما أحد ثم ينظر لساعته.

- طيب ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة أعددتها لك كمفاجأة.

كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر وأن السفر عليه يأتي المرتحل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبر الحياة: جلوسًا على كرسي مُريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد - وفي أمان-روائع العالم وفضاعته.

أضف لهذا أن هذا الذي أنساب فوقه نهر ليس ككل الأنهار. إنه نهر ارستقراطي بكل المقاييس ومن ثمّ شعور التهيب الذي يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.

هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

مقيقات كل العصور

راحل أبداً باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفتيه السؤال

يقطع عليّ انتباهي للحركة البطينة للفلوكة صوت مرافقي.

- هيّا يا صاحبي، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسمّيها اللهجة العامية البحر. أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حدّث ولا تسل عن طولته وكم أرق أكبر المغامرین وهم يبحثون عن منبعه.

- المنبع! لماذا لا تدبير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد وولدت معه حضارتكم.

يمازحني مضيقي:

- أخشى أن نتأخر كثيرا حتى على العشاء فتزعل "الولية مراتي" كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

- الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأن ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. لكنه شيء جد مختلف هو يتشكل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلنت لنفسي أخيرا وجدت الجزء الآمن من الطريق وتقول لي لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيب، ماذا سنفعل الآن بالأدميين في بحثهم عن المنبع وقد توقف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصدهم تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- أي خيار لهم سوى السباحة بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نافذ الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

-الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجئا أخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نعالهم!

- عفوا!

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تأنهون في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية نكاد نهلك فيها لعلنا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفوا عن التريديد: سنكتشف من اين يأتي كل هذا الماء ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من أين يأتي كل هذا الماء؟ ... قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر للذهن الحائر المنبهر هو الذي وأد فيه أسئلة من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم، من أين أتى الزمان؟ ... أليس النهر هو من أوحى لنا بتصوّراتنا الأكثر انتشارا عن هذا

الزمان وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تشييته أو جعله يعكس مساره عائدا إلى النبع.

- لا تقل لي أن الروّاد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السرّ؟

- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتمّ منذ قرن تقريبا اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من المغامرات.

أعود لممازحة مضيّف كريم.

- لا تُطل، اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟

- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "البوزل" ولتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرم أمرا كهذا.

- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أغلق.

- طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأمّ وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة وموثقة.

- وقبل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟

يضحك مرافقي.

- في السحب طبعاً.

- وقبل تجمعه في السحب، من أيّ بحر تظنّ أنه انطلق؟

- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر. محكوم علينا أن نجعل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه والبحر الحقيقي ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر. في طباع هذا النهر شيء يذكّرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومع كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

- لست متأكدا أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة حبّة للتعرّج واللفّ والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطّا مستقيما؟

- طيّب، لننّبِع بتعاريجه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوماً.
- أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلياً الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن “الولية” تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.

*

هذا ملفّ آخر عن تحقيق حلم رجل يا ما تمّنى أمام صحاريه القاحلة التجوال في أراضي تغطيها الغابات على امتداد آلاف الأميال.
يعترضني قبل دخول الطائرة التي ستحملني إليها شرطي آخر لكن في زيّ مدني.
يطمرني بأسئلة غريبة وهو يقلّب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّيتستان؟ زرت قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان ونفاقستان أيضاً! ماذا فعلت في هذه البلدان؟

كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم في بلادي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل تحمل مخدرات في مخرجك؟

لم تكن الرحلة يوماً سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان... كان رحالة العصور القديمة عندما ينزلون بشاطئٍ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم... كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفاً يقتربون من بضاعتهم يقلّبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدورهم ليعودوا يوماً -إن عادوا- بأعلى ما يملكون يبيعون... هكذا كانت تبدأ أولى علاقات التبادل وطقوس حقن الدماء... بالكاد تغيّرت هذه الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف العنصر القارّ الثابت في العلاقات بين البشر.

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطة تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهّم هذه المرأة بدهاءة تقدير مدى خطرتي على أمن شعبها ووطنها المفدى.

من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطتها البيروقراطية المطلقة لقادنتني مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة التأمّر على الوضع الفكري -السياسي- الروحي للبشرية جمعاء.

تنوّجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليباً وتمعنا.

- انتظر...

تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والنقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:
- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.

أخيرا المدينة في عمق شمال الفضاء الحسي التي جنتها متعللا بالبحث عن مزيد من الخبرة في مستشفياتها والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غابات قريبة منها سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار.
أتوجّه للزميلة والصديقة التي قبلت أن تكون دليلي مداعبا ومستقرًا ونحن ندخل أقربها.

- من الظلم أن تتمتعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطئ للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح- تحسبًا لغزونا؟
فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظ أن مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!
- حذار، هذا الذي ذقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قل لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

-بعوض! تسمون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة -على الأقل- ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك.

حقا هذا عالم رائع، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك كائن يخدش أو يقضم أو يعضّ، وإن لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنينًا مزعجا فقط للإزعاج.

- لا تعجل بالاتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرني حولا كاملا وأنه ترصدّ قديمي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئنيني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدداً إلا مسلحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تغيّر الموضوع.

- تعال، طلبت أن أريك الأماكن التي جنّت من فيافيك القاحلة خصيصا لرؤيتها.

- خذيني حذو أصغر جدول وتحملي صمتي وجلوسي عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خريير الماء. هل النوتات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟

تجذبني مرافقة الطريق من كتفي.

- يكفي ما قضيت من الوقت هنا. نعم كم جميل صوت الماء وهو خريير هذا الجدول وهو صرير الثلج تحت الأقدام وهو نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم! لكن هناك مكان تسمع له أجمل أصواته. تعال.

بعد ساعات تهمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعتة الصدف على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

- كفاك تأمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهزّ الحالم اليقظان من كتفيه:

- تعال؛ مضى جل النهار.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدّق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك الزميلة إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعا بالتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفّر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.

أفقر من جديد وأفطع الشتائم تتدافع مجددا على لساني:

- بجدّ، كأنّ لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارانجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يوشّر لاتجاه النزول. انظر مليا لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطراً إلى مصّ دمك أعوض ما يأخذه مني فيلُكم الطائر.

- من هنا الطريق.

تشير المرأة إلى الخارطة بأصبعها لتتقني بصواب القرار، لا تعلم أنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبوقنفيل وكوك وقبلهم بحارة العرب والفكيكيج وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة! ... كلهم مع ذلك توغّلوا في الغابات المجهولة وفي الصحاري الصفراء والبيضاء المرعبة وفي البحار اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا انبهارهم بعالم يريدون التشبع بكل روائعه لا يهتمهم ما يدفعون من باهظ الثمن.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأدياننا كتبوا دليلاً مفصّلاً اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ آدمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فُكر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نَقْصُ فادح قررتُ أن أضع له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك من تسلّم عند الإفافة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العالم شبيهاً بوضع سائح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ من يكون وماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الأدميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتاب الحياة لحسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مصبّ البلدية، أو يدخل به أوّل سوق بيبعُه بمقابلٍ بخس، أو يجعل منه عبداً، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نقضيّ جلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حدّث ولا تسل عن الأدلة الكاذبين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسيان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيّفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبييدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من تبيدون.

تهزّ رفيقة هذا المقطع من الطريق كتفيتها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها.

أعود لنصحها. يا ليتني مسكت لساني.

-احتفظ بنصائحك أنا قادرة على أن أخطئ دون إعانة من أي كان.

- تنفّسي بهدوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي تقررين لا نحيد عنه قيد أنملة.

- وأنت انتبه للطريق. لقد رَسَمته على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنه قريب جدًا منّا.

- إن رأيته فسأفتعل أنني لم أراه.

- لا تنتهكُم. نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أما أنا...

- لوجه الشيطان اصمت، هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

- ألا تعتقدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تائهون أكثر منّا.

في الوقت الحاضر أكبر مشاكلي أنت.

يتواصل المشي وسط ألياف وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا. أعود لمداعبة امرأة بصدد فقدان السيطرة على أعصابها.

-لا تخشي شيئا، خادمك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابردابرام باتو باتتي يتاي متعقى". هي سلاح يصلح لكل طفل ضد العفاريت التي تخرج من قبور وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798: "إليناغي لايس". هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيّنا.

- وتعويذة.. لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأهم التغييرات التي أدخلتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!

- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلي لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على الخارطة.

- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المقرفة التي لا تنتهي.

- هل جننت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.

تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خاطرت بمستقبلي وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لأكتشف أوزيريس وهو يحدق فيّ بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربابك يا نزق! لن يأخذ وقتنا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتمزق أشلائي وتلتهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند أبشع أنواع الرجال ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي تزعجني بشكل من أشكالها.

- أقصّ عليكِ طرفة عن آخر مرة ضعتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان شمال القارة العجوز، كسبًا لما يسمح بمواصله التوغّل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تعرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك

ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوماً ممتعا في الغابة وعد بقلعة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومربى.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا - لا بد أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقنص- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدت لي بالقلعة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: يجب أن أطلب رُمحا وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرتُ الصمت وتوكلت على إله الأباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بقتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعتها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، قطعها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبت مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها-على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزما ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلًا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و "ما" في طرفها الآخر لا قيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطولا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إليها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوٌ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مرّوا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع واليحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

- مالك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى جبل اسمه بوقرنين وما يعج به من أسود ونمور وفهود وفيلة مرعبة إلا مسلحا بما تعدّه لي "ما" من رماح وسهام، وترسلونني هنا لمواجهة الدببة ولا أدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كلّ شيء لـ "ما".

يومها ضحكت المرأة الطيبة:

- أه منكم يا أهل المدن، تُضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبّعة صفراء.

الحديقة العمومية! كاريكاتور الغابة... الطبيعة تحت الحراسة المشددة... حلم الأدمي في أقصى حالات التبلد وهو يريد الشهد دون إبير النحل.

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:

- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبّعة صفراء يدلنا على باب الخروج. انها غابة تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غبي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا "المانجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعوا يوما رنين نقّال؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وأنداك حدثني مجدّدا عن رغبتك في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وجني ثمار الغابة ولبس جلود الحيوانات. لنعد للموضوع. حدّسي يقول لي إننا لسنا بعبيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون. أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معازل الثوار.

تهزّ المرأة كنفها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهمننا، يا يسوع!

- نعم، لتصلّ لي يسوع. سمّره ثم اعيده. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعّل؟

- عمّ الظلام وهدّني التعب. لم يعدّ لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلا ولا نار تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور: خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه... خوف الكهل من فقدان الحب والمكانة، خوف الشيخ من فقدان الصحة والشباب... خوف الغريب من الموت بعيدا عن الأحبة والديار... والويل لمن لا يعرف كيف يروض خوفه.

مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيلة بجلب كل ما فيها من اصحاب المخالب والانياب.

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان. ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصار ليلة جادت بها الأقدار.

إنّ هكذا هو العالم كما جرّبه الأوائل كل لياليهم طيلة مئات الآلاف من السنين... إنّ هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والأدمي طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق فيه جمرات ملتبهة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء...
نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه المألوفة وللنفس طمأنينتها المحبوبة.
تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.
- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائع وأسرار فقررت أنه أن الأوان ليغربا عن وجهها.
تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجذل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...
- أه، عادت الابتسامة إلى شفتيك. مهلا، ما هذه العجلة؟
- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!
- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكّل الحقيقي لكل طريق؟
- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة: دشّ ساخن، وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

يجب مواصلة الاستفزاز لعنّي أضيف لميزان حسناتي تجدد الانتباه في هذه المرأة.
- ما زال لديك وقت كاف في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الوراء، كوني بنتا طيبة. من سيطلب لي "المار نجوان" ويكوي لي جلود الحيوانات لأكون أنيقا وتعجبين بي؟

- لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!

- لم أتمعن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

- تدبّر أمرك وبالتوفيق.

- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذه مشكلتك لا مشكلتي.

- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نفذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب ذنبي وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمة بأغوارها. كم صدقت العجوز النرويجية: أه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وقبعة صفراء.

*

الطريق في هذا الملف ليس متجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق.

المشكلة المتفاقمة فيه ليست الدوار وإنما التنفس وكأنّ العالم داهمته نوبة بخل فقرّر أن يكون عطاء من الهواء أقلّ من القليل.

يحتدّ الصداع والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس.

يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثقل عمود من الرخام.

أرمي كلّ مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مردداً لنفسي ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.

يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بالآلاف الأمتار!

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ عقبة مألها التذليل والإذلال! يا للأوباش، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظا بباصات السياح!

كأنني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة تبيث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبَادِلْنَا رِفَاهَكَ بِالَّذِي عَشْنَاهُ وَنَحْنُ تَائِهُونَ عَلَى قِمَمِ الْجِبَالِ الْمَرَعْبَةِ نَكَادُ نَهْلِكُ فِيهَا إِرْهَاقًا وَجُوعًا وَعَطْشًا ... وَخَذَ مَا شِئْتَ مِنْ أَنْبَهَارِنَا الْبِكْرِ.

عليّ التوقّف طويلا هذه المرة لأنلقت ما بقي لي من أنفاس.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا العلوّ.

خلفي وفوقي الشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أكتشف لأول مرّة أن لي ظلّا

لا شيء تحتي غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.

آية مخيلة قادرة على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.

أحاول تخيل شبكة آثار خطوط الأدميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت منه.. وأيضا الآثار التي رسمتها خيل وبعالٍ وحمير سجينة تنن بأثقال سجانيتها... ناهيك عن آثار ديبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طي الكتمان والسرّ. مستقلق على الظهر أسترجع أنفاسي أهدق في السماء متابعا سرب طيور دخل فجأة مجال بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافأتها جزريا عما تعرف كل الأجناس الحية التي ترحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفائة خطا أبيض يقسم السماء إلى اثنتين.

تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل.

تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي.

من حسن حظي وحظ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.

يحصل التلاقي فقط بين الخططين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على البطن.

أخيرا المكان الذي أوصيتُ، قُل أمرتُ بالوصول إليه وكل من حملهم الطريق إليه لم يرجعوا منه كما وصلوه.

كم وقف عنده من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة. منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد. كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه بيتسم (كيوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.

أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.

العنصر القار الآخر أشجاراً متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوماً شكل لا يكاد يُلاحظ لأدمي يفصل التواري، أكتشف أخيراً حجمه.

بعيدا عن الأنظار، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.

آه عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحل لاستقبال ضيوفه الكرام!

تحضرني قصة الرجل الذي تضرع لله أن يدخله الجنة فهمس في وعيه انظر حولك يا غيبي أنت وسطها.

هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفتقت عقيريته عن مثل هذا المشهد!

أضم راحتني كأنني أصلي. فجأة أجدني أصقق وداخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق: برافو الله!

*

لاتّباع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال وحتى فوق قبة السماء لا خيار غير السفر بالوكالة.

داخل ذاكرتي وأنا أسترجع المشهد من بدايته، يخيم الصمت على قاعة العرض بانتظار سفرة ولا كأي سفرة.

فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيل إليك من فرط دقة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة الدخان تخنق منك الأنفاس. تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

ترصد كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدخان وهو يتلاشى رويدا رويدا. ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية القذف لتتمركز الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.

كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليبو وهو ينبه المتبليدين أنه لا يمكن أن يكون لهذا الكوكب إلا شكل الشمس والقمر!

على ماذا أركّز والذهن مشدوه مأخوذ منبهر بما يرى والانتباه على أقصاه؟

على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟ على البياض وهو كقرو دَبّ أُلقي على كتفي غانية؟ على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟ على الصفرة تضيّق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟ على الحمرة استقرت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

لا يغفرك ان هذا الكوكب اتخذ اللون الأزرق له عنوانا فقد ارتدى طوال تاريخه العاصف أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته، ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم، ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه

تدشّن عصور انتصار الحياة، ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والتلج، أخيرا لونه الحالي منذ غطت المياه جِلّ مساحته.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكفّ عن الثرثرة والصراخ وفي أعماقه تزمجر قوى جبارة تنتظر لحظة التذكير الفظ بوجودها.

كم شهد هذا الكوكب العجيب من انفجارات براكين، من زلازل من أنهار سالت وجفّت، من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل! كم من جبال انبتقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنّت هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول! كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار! كم من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف، جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي!

هو لم يكن مقدرًا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن أسرار رغم كل ما مرّ به من محن ومن امتحانات.

يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

كم تتابعت وانقرضت على سطحه في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية كلها تنبأرى غرابة وإعجازا!

كم من بشریات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار!

كم من ديبانات، كم من حضارات، كم من امبراطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر، ثم ستختفي!

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشریات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض!

آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكري. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية. طال الزمان أو قصر ستنتهي كل القصة باحتضار سيحول هذه الأرض الى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

وفي الأثناء، وفي هذا المقطع البالغ القصر من الزمان تتواصل رحلة الأدميين بكل ما تكلف من آلام وما تجري وراءه من آمال ومن أحلام.

تدرجياً يحمو السواد باقة الألوان. يمكنك وأنت تتابع تحرك الموكب التعرف على حدود هذه القارة أو تلك ترسم حدودها الأضواء. من ينظر لشكل القارات يتحسبها موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها-ومقياس الزمان بملايين السنين - لم ولن تكف عن التغيير انقساماً ثم تقارباً ثم انقساماً جديداً وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

يرسم النور بقع ضوء لكبرى مضارب الأدميين. في هذا الجزء من الكوكب الذي داهمه الظلام، نصف البشرية مضطجة في أسرتها ترحل داخل أحلامها وكوابيسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في أوج الصراع مع ما نسميه الواقع... إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

ومن هذا العلو الشاهق ليس من السهل رصد كل "العقد" أو المراكز التي تتجمع فيها وتتوزع منها سلطة الطبيعة على البشر أساساً الألف وخمسائة بركان والخمسة عشر لوحة التي تحمل القارات والمحيطات. أصعب من هذا -لأنها لا ترى بالعين وإنما بالفكر والخيال-رصد "العقد" التي تتجمع فيها ومنها تتوزع سلطة البشر على البشر. إنها متوقعة فوق عواصم كبرى التجمعات البشرية التي يسمونها دولا وأوطاناً. داخلها تتجمع مكونات هذه السلطة -الدين والمال والسلاح والعلم-القائمون عليها بشر عاديون يتوهمون أنهم سادتها وهم الخدم والوقود ومنها تتوزع شبكات بالغة التعقيد تسري فيها سريان الكهرباء في الأسلاك كل الأفعال والتفاعلات التي تصنع بدمار الحرب وعمار السلام قصة الأدميين على هذا الكوكب.

ما لا تراه العين أيضاً من هذا العلو الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وأمريكا الوسطى وكل ما كدست الأجيال الماضية من آثار، مثلما لا ترى كل ما كدس جيلي وجيل الأباء من موانئ عملاقة، من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبرة.

ما لا تراه العين المجردة من هذا العلو الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون أضف شبكة الأنابيب التي تنقل البترول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد مكان وشبكة والألياف التي تنقل بسرعة البرق الأفكار والصور إلى كل فج عميق.

أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأدمي على التحكم في هذا الكوكب وفقاً لمصالحه ولنزواته!

فجأة تحلّ بقعة بيبضاء حلزونية الشكل جَلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مربع يستعدّ للاعتداء على الأدميين المساكين يذكر بأن هذا الكوكب هو اللحد وليس فقط المهدي.

حقاً تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس.

لكن ما تحتي أيضا أكبر مقبرة لا ترفض منذ ملايين السنين جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

بديهى أن هذا الكوكب كائن حيّ يحمل، يلد، يغذي ثم يوارى في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده! كم بديهى أيضا أنه الوطن الحقيقي، الوطن المشترك لكل البشر ولك الكائنات الحية، الوطن الذي لا مكان فيه لغريب. يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه.

تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو صحار مترامية الأطراف رملها الكواكب وكتباتها المجرات.

تفغر فاكّ دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف. كأنّ الفنان الأعظم -أراق بلا خطة مسبقة سحبا مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقتاديل الشمس وفوانيس المجرات...والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدّا، شعورا يقارب الألم! هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟ حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفض عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين؟ ...إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟ ليواصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي من أبعد نقطة أوصلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجرات توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة الياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوععة على ستار لا منتهى من فاخر الدمقس الأسود.

أمام كل هذه الشساعة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه ليروزنا واختفائنا، تتسطّح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي.

حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟

أمام كل هذه العظمة يحضرني سؤال يلاحق البشر منذ وجدوا: هل نحن أي البشر الكائنات الوحيدة في هذا الكون؟

مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كمّ هائل من الغرور والتبّد والجهل.

طبعا لسنا وحدنا.

كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال ومعناه، حولنا، بقربنا وفي جوارنا على نفس الكوكب ما لا يحصى ولا يعدّ من كائنات حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجيران الذين لم نحسن جبرتهم!

**

بنو حرية وآل ثبات

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعد يومٍ لن يكون كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا تحمّلنا هي الأخرى كل المسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى؟
- رجاء، لا تخلق لنا مشاكل مع قوّى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.

يهمس الرجل العبوس: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.
يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جننا نتطفّل عليها في عقر دارها.

تُبادرنى المرأة بلطف لن يطول:
- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظاً من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".
كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.
- لا أرى شيئاً.
- دقق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟
الحقيقة أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حنو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام.
تمدّ لي رفيقتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.
- أيّاً كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقاً في لقائنا. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاءً بمقدم أوفى الأصدقاء.

- نعم، كيف لا نتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل الرياضي الذي يسمونه الصيد أو للتجارة في لحمها؟
- قولني لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.

ما البشر بالنسبة إلى هذه الحيوانات التي تتفادانا؟ أخطر الكائنات التي يأتي منها موت صاعق مُدَوٍّ من بعيد... طبعاً، لكن كيف نفهمها أننا أيضاً كائنات راقية

نَسْبِرُ دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها من بني جنسنا الغير مرخص لهم بقتلها.

ينبهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.

- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكاها، وهذه طريقة الثيران للتخلص من الهوامّ التي تسكن جلدھا. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جنوع الأشجار.

نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مرکّز على شجيرات قزما متناثرة على جانبي الطريق.

تحدّق في مرافقتي ثم تسألني لا تخفي سخريتها.

ماذا تفعل؟ تشمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحرّسا على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتدوّق طعم السحاب.

تهزّ المرأة كتفيها لتتكفئ على أفكار لا تفصح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ الرجل متحرّجا:

- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأدميون... ما أبرعكم في قلب الحقائق... أي جنس حيّ فيه جلاّدون غير جنسكم؟ ... لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبة وشثيمة؟ ... خيارني بنو حرية لمن نسميها الحيوانات وآل ثبات بصوت متهيب لتسمية الأشجار.

فجأة يتسرّم الدليل مشيرا إلى مُبهم ما:

- سيّدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئا.

- دقّق النظر يا سيّدي!

- في ماذا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

- أه، تقصد هذا الخطّ.

- إمضاء فهد. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون هرولة.

تحتفي رغبتني في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتني أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء.

نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغل بين أعشاب تحتضر عطشا. بهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توقف فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهم هنا سبع سائحة انجليزية منهورة.

أهمس في أذن امرأة متزايدة التوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حاد.

- كن جديا، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.

- وهل المدن التي جئنا منها حقا جد مختلفة عن هذا الغاب؟

يأمر الدليل بالصمت ثم يسعفنا باستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكدا على ضرورة عدم التحرك.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوعه بملل متزايد يشوبه قلق هو الآخر يتزايد بمرور الدقائق.

تتوجه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعايب هذه النملة التي غامرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدهاء ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحرق قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلقوا على هامش معاركهم شيئا اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل المتبلدون قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصا هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أي جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا

نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرق والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أموره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ صدقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل. تهزّ مرافقتي كتفيها تخالني أمزح.

يبرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا أقفال أزرار سرواله.

تبادره المرأة المتزايدة نفاذ الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.

- افترض بعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً. كيف كنا نخرج من هذه الأحرّاش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحرّاش بلا بندقية وخارطةٍ ودليل مَحض انتحار. أسف، بالنسبة لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أفترحُ على مرافقتي رفع الحرج فلا تستفزع الفكرة.

- أديري لي ظهرك وأديري لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

-

نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ منقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المجنّح؟ ... إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟ ... ترى كيف تشعر وتفكر كل هذه الكائنات وهل ثمة بينها فلاسفة تساءلوا هم أيضا ماذا يفعلون في هذا العالم؟

أفيق على همسٍ صارخ للدليل:

- انظر هناك! تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.

- هناك، هناك!!!

- أه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.

أثر آخر سينمحي قريبا. هو والآثار التي تركتها كلّ الكائنات على الطريق.

- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لننتبه، قد لا يكون بعيدا.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوماً بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجِدَت يوماً...

يهمس الدليل في اذني:

- سيدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات أخرى للحيوان. مرّ من هنا منذ يومين تقريباً.

انتباه متحفّز ثمنه تؤثر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.

ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظل؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلماً نجد صاحبه؟ لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات تتمتع وتفرّ منّا.

فجأة يتوقف الدليل مشيراً إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطع من الثيران الوحشية.

- نقترّب لنرى بوضوح.

- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للرياح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.

يثب فجأة من وراء الأكمة كأنه يشبه الحصان ليختفي بسرعة فانقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى امبالا، والمتوسطة الحجم وتسمّى نيالا، والضخمة وتسمّى كودو. ما رأيت واحداً من هذا الصنف وليس حصاناً.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التآدّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدّرون ضرورة التحلّي بالصبر.

- نعم يجب أن نحلّي بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصّرّ على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربع الخالي فتبعه الصياد لا يصده الحرّ... استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهروا وراءه لا يخيفه الجليد... استجار بعرض المحيط

ففتش عنه وراء كل موجة... استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمساك به الأوتاد على الجبال... استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلاً... استجار بالصَّعْر فخلق له المجهر... من الفضاء تجسَّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره واثياً إلكترونيا... كم من سيَّاح ومصوريين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين!... أتري كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعانَ قَرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبتخر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقاً صفيراً عجبياً باتجاه كدس رمادي يطفو بعيداً على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكاً:

- أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترب، آنذاك قدّروا المسافة. إن بقي بعيداً عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلق أقرب شجرة.

تحذقُ فينا الكائنات بتقرّر ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيداً داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوماً أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني والكلابي والقطني وحتى البعوضي. يا للأسف، لم يسعني الوقت لتعلم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففففوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

- يبدو، يا سيّدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتهُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحرش؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلاً لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا. أعود لاستفزاز رقيقة السفرة:

- هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناه فيها الحيوانات التي تفرّمنّا. كيف لا تتوارى عن الأنظار ترتجف رعباً وقد شمتت من بعيد روائح الكريهة. هل تعلمين أن القبلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جنّت منها؟ لكنّ بشراً اسمهم الرومان قرّروا أن

تكون تلهية الشعب أساسُ السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين نغم الملايين من الفيلة والأسود والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلق "بزنس" كامل كان يدّر الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين...وها نحن نأتيهم دون دعوة ونريدهم في استقبالنا.

تُفضّل المرأة المرهقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعونا إلى العودة إلى الطريق.

- آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

"لا هدف ولا وجهة.

يغتم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة"

-

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أعراس منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدفة جنباً لجنب.

-أي حصيلة بانسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

بالعكس أنا جدّ مسرور بحصيلة يومي. لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أربناه في أحلى أوقات القبلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أعلق عيني لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأسد؟

- استحضري أيضا ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا

إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّنتي بالدوار.

- انتبهي أيضا لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدّثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظرتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكّل هذه الأشجار التي تحفّ بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حركك... انتبهي ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مرّوا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكرمون بإشارة.

- لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوسي السرية تغنيني عن كل ضجيج.

تنتهد رقيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغيّي يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها لأدّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طبّاح ماهر.

- ذكّرتني، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميّر بإنثائها بصيغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

تعود رقيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحا.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تفتحي جروح طفل ذبحوا واكلوا يوما أمامه أعزّ أصدقائه.

تسترجع الذاكرة مشهد طفل في سنته الرابعة أو الخامسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سانلا أحمر يتقجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، ودبعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّه كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفّ المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقطول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقائل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقرّ ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينفصّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الحثة الهامدة جلدتها ويمرّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل

خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلّمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية أتية من أعماق الماضي تردد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعيثن ضاحكات بأعماص الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصبان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... أقصد أنه، على كل حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعدّبه عجزه عن حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كيدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حبيت.

تهزّني مرافقتي من كفتي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيئ.

- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لا عنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلقة في واجهة دكاكين الجزائرين.

تعنتم مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش - كما هو الحال في أغلب سجالات البشر - صراع بالكلمات بديلا عن الصراع باللحمة.

- خاصّة إذا تكدّس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحقّ لي أنا وحدي. أو اصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزائرين ببلك وببلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أمّ أو أخ أو أب.

هم مثلنا ضيوف هذا العالم لكننا لا نريدهم حول المائدة وإنما على قائمة

الطعام.

تقاطعتني امرأة فتعل الاستنكار وهمها الوحيد أن اوصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.
- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية من أمثاله وأمثالك.
- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزار والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟
- لذت بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولة عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.
- غريب، أنا أيضا، "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.
- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديدمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!
- تضحك رقيقة الطريق إلى أن يتملكها السعال. أغتم الفرصة للتفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.
- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعًا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادلته القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ما هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهدى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء ميّنة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندقق شلالات من الدم والرجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.
- على فكرة هل انتبهت يوما لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحذائي يوما وأنا في حالة هستيريا تعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لمّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال - يقتل الأول ويموت الثاني - يحفّ بهما وقارّ الصمت. أما عند الأدميين

فيرفع القنيل عقيرته بعويل يجمد الدم في الشرايين والقاتل يصيح كالمجنون ببلاغات من نوع يحيا الامبراطور أو يحيا الوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات- أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟

- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصد بنا الكوابيس على الضقة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكي)

والفرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

-

من الغد توقظني رقيقة السفارة:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- عن أي نوم تتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرقّ نسيم الفجر! ... ما أروع هذا الهدوء! ما ألطف هذا الجوّ! ... يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا... أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء! كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتتم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

تستعجلني مرافقتي لعودة الركض وراء أشباح حيوانات.

نزرد فطور الصباح لننطلق مجدداً بحثاً عن أصحاب الآثار الذين يعدنا الدليل إنهم سيتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.

ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

فجأة يتوقف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألقت إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أمّا أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أنتكون رأيها وترفض الاعتراف؟ فاجأئك أكثر من مرّة تخلع نظارتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّ تتحدثين؟

يهمس الدليل: فرت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعنا الحظ بروية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة أسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفيها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أملنا الأخير في الكسالى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل التربة وسيادتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البدرية!

يضع الدليل مجددا إصبعه على شفتيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمة.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تبتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطفّ على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سارة. فجأة تتواجه زرافتان فينقطع عنق الأوّل مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبنا في اتجاهين معاكسين. ثم تدبر لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه "الشيء":

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس فقط... هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ ... مثلا عالم بلا كواسر وطراند ومع هذا لا يختلّ له توازن.

تصرخ مر افقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغيبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يَتَوَجَّهَ إليها الدليل بنبرة مَنْ نَفَدَ صَبْرُهُ مِنَ الأَبْلَهَيْنِ:

- يا سيِّدتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثاً عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة كلها كائنات مسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمنعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه.

تتوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتكم لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

- هل انتبهت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغيّر المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- العياذ بالله. أفضل صورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبهاها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف مخالبهم ولو كانت لأنثى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات أليفة قرّرت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البندقيات عليها.

يلتقط ذهن الشارد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقاً، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- قَطَط هنا في الأحرش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة. تهزّ مرافقتي كتفيها.

- قَطَط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقبّل العمر لطرّوة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من قَطَط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، أه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجفاه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تنكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرت إنائنا لسبب لا أعرفه ولا أظنّ أنهم يعرفه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسرّ الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجتو مرافقتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- أه طبعاً رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمنني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

ينطقن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحرش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- بريء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرّون.

- هل جرحتكم؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تملّ؟

- كل الأمر توزّعي بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و...الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميقة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنيّ صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون اصطادته حسب رأيه لبؤة ماهرة لا أسد كسول خلافا لما يعتقد أغلب السياح.

الصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل... نوعان اساسيان منه... الأول صيد الأسد للغزال، من ثوابته ضراوة انقضااض الصياد وأناقّة مراوغة الضحية، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيعة للمأكل أو بتجنّد القعد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد... الثاني صيد تنّين الكومودو لثور راقد في الوحل يكتفي بعضّة واحدة لا تتسبب له إلا في جرح بسيط لكنها تحقنه بسم بطيء المفعول. لا يبقى على التنّين إلا ملاحقة ضحيته أحيانا لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضّة يحقنه بمزيد من السمّ إلى أن تخور قوى الثور فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف ميّت نصف حي... يأخذ صيد الأدمي للأدمي من تقنيات الأسد والكومودو، والظروف وحدها من ثملي أي الخيارين الأفضل... ليس في هذا العالم غير أكل ومأكل، قاتل ومقتول وأهمّ فعل فيه قتلّ أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريبا منا لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى.

حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين.

فجأة تتحرك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر.

يهمس الدليل: لا تهتمّ، مجرد خصومة قرده الشمبانزي.

أهمس في أذن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان. تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: البونوبو. يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصليح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- على الأقلّ نحن نستطيع أن نضحك من أنفسنا، أليس هذا أحسن دليل على أننا أرقى مخلوقات الله؟

- لا أرقى ولا بطيخ. لسنا إلا حيوانات من بين كل الحيوانات والدليل كثرة القواسم المشتركة. نحن نتشارك مع السباع في ضراوة الدفاع عن قطعة أرض نريد كل خيراتها لنا وحدنا، الفارق أنهم يرسمون حدود أرضهم برائحة البول على أشجار معينة ودرسم حدود الوطن المفدى بالأسلاك الشائكة وكاميرات التعرف على الوجوه في المطارات. نحن نتقاسم مع الذئب تقنيات الصيد جماعيا الفارق بيننا وبينهم حجم المجموعة التي تخرج لاصطياد وأكل ما هو أضعف. نحن نتشارك مع النمل في تنظيم الغارات الحربية التي لا تبقي ولا تذر على الجيران لسرقة ما يملكون أو لاستعبادهم، الفارق أنه ليس له إلا أجسادهم كسلاح ونحن نستطيع القاء القنابل الذرية من السماء. نحن نتقاسم مع قبيلة البحر الصراع على السلطة الفارق بيننا وبينهم أنهم لا يرفعون صورة الزعيم الأوحى الفائز في تصفيات القتل بين المتنافسين على الزعامة. نحن نتشارك مع الشمبانزي في الصراع على الأنثى، الفارق أننا نمسرح هذا الصراع طول الوقت مما يعطينا مقتل كارمن في الفضاء الخيالي ومقتل بوشكين في الفضاء الحسي. حتى لا نظلم أنفسنا نحن نتشارك أيضا مع الثعالب والكلاب والقطط والفهود والأسود في حبّ صغارنا وفرح اللعب والتهريج معهم.

-آه، أخيرا تعترف لنا بشيء إيجابي...

-كل هذا وراءه نفس الهرمونات، ووراء نفس الهرمونات نفس القوى المبهمة التي تلبس عبرنا جميعا أشكالاً مختلفة لنفس القصص وإن تباينت حجما وتعقيدا.

نعم، نحن حيوانات كبقية الحيوانات، ما الذي يعطينا عليها كل هذا السلطان؟ ... الكتابة؟ هل تكون هي السرّ؟ ... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حالة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن

البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب يحسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟

ينبهنها الدليل أننا قد تعبنا بما فيه الكفاية وهو ما يعني أننا أتعبنا المسكين فوق اللازم وأن علينا اتباع طريق العودة لنرتاح وخاصة ليرتاح هو منّا.

-

سمر الليلة الثانية

في المخبّم تعود مرافقتي للثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت طويلا وهم جنبنا إلى جنب.

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قلّتها و صغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديتما أدنى اهتمام بها والحال أنها أجدد بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عبثا.

- يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصية فيك تتعهد بها بكثير من العناية.

- أبدا. عن بعض المنتبهين الذين من سخّروا حياتهم بحثا في أسرارها أن الأشجار تتكاتف وتتعاقد بينها، أنها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أنها تدافع عن نفسها بتسميم الحيوانات التي تبالغ في قضم أوراقها، أنها تتعاون مع الفطر، مع النمل، مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها، أنها تشعر ولو أنها تشعر لا كما نشعر وحتى أن الأزهار تسمع ولو انها تسمع لا كما نسمع.

تهزّ المرأة كتفيها غير مصدقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجتث فنحن صرح من الغباء الصارخ في تعديّ على صرح من الذكاء الصامت.

يوم مشيئ و وراء نخلة مقتلعة لحينها، وجرّار البلدية البطيء الحامل لجثتها يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.

يجب مواصلة زعزعة قناعات تمنعها من تجدد الانتباه.

- ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تدمر النيران تسعة أعشار " جسدها " وإنما تتجدد كلياً بينما يكفي أن يدمر المرض عضوا واحدا من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصنا جديدا على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبت به قنبلة؟

- على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة.

-عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتدبيح تقرير له الحد الأدنى من الجديّة. أه، لو علّمتني سرّها.

تضحك المرأة ضحكة صفراء.

- صحيح أن الأشجار وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لولا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفس وبالتالي لما وجدنا.

- أه بدأت تلتينين موفك. برّبك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعداري نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.

-إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حال.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الرب! برّبك هل في الأدميين ما يُعبد؟

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعا عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنثُ الثلاث وعشرين سنة تقّعات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقلاء مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها، "لونا"، لن تقفّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن"

هذه المرأة والكثيرون من أمثالها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة يحتفون بالأشجار متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجذوعها وأغصانها وأوراقها.

- أه، أخيرا عرفت بأي دين تدين.

يني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

عَدَّ الخَلَاتِقُ في الإله عَقَائِدًا وَأَنَا اعتَقَدْتُ جَمِيعَ ما عَقَدُوهُ (الحلاج)

تعود المرأة لِمَمازحتي:

- قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُنقطع الأنفاس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقتَه -هكذا دون سبب- على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشرف من عليّاء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

-واصل التضرع له ، لعلّه يحنّ عليك أكثر من آلهة وقديسي البشر.

-ما أعرفه لحد الآن من طبائع البشر وطبائع الشجر تجعلني أضع في جوناس كل ثقتي وأمالي. أسف لإخبارك أعلى درجة سلم الكائنات آل ثبات وبعدها بني حرية وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنّك كنت في حياة سابقة قرّدا مشاكسا ومعارضاً ففّرر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

-تفسير منطقي. لهذا حاولتُ في هذه الرحلة أن يبقى ملقّي نظيفا عند السلطات العليا لعلّها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكويا ، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شراييني تتدفّق عصارة الحياة، محمّل بكلّ البذور، بكلّ الأزهار، بكلّ الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد...محميا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرّد، يتسلّقني الطفل...على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطعم من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، ليّن، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر...الريح والفرّاش والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل منتبه، شاردا الذهن، أغفو

على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور

تلتزم مرافقتي الصمت وكأنها تفكر في منافع أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير موضوع الخصام المفتعل.

- لننسَ أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغموضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسليّة ورقيقة كتلك التي تُحكي للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احك لي مثلا عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأُمّيين.

- ربما كان لكّ دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مئي إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.

تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك.

كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كان جديّ لا يملك غير حوش متداع وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باءت كل محاولاتني لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنّث باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانته كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة معرقة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أذقته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنترُ سهل الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّعي- فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدّي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبّي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكفّر الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأوّل على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، ستبكي. لا أتصوّرُك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحدّثيني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حميرٍ يُحضّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، زقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك أحسن "سويت" في القسم المخصص للحمير في فسيح جنانه. بالمناسبة، ألا تشاركييني استهجاني الشديد أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمنحرّكة، فساتحتمل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجارى في الشرّ اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأدميين. على فكرة ألا تعرفين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكنا إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسئل... هل كنا نتعلّم الصيد لولا أساتذتنا الذئب وحلّافونا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناءة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مُطهم الخيل؟ ... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقوة، ونحن نحاول تقليد هيبية الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن

أحفادهم الأغبياء فنستغلها دون حياء أو عقدة ذنب أو نضعها في أقباص من مختلف الأحجام.

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محاصراً قلت: لم لا أشتري حماراً أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعاً من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيراً عرفتُ ما سأسألك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكأف المشقة فبلدي يعجُّ بالحمير، بل منهم من تبوأ أرقى المناصب.

- ذكّرتني بذلك الأرسطراطي الذي نشر إعلاناً عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار يَطال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقبْتُ جيرانني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تفتنّ البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلاً كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برواك دوماً معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحاً على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قربة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعلُّق؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ديدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهمّ، تخليتُ عن المشروع برمتّه ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحياناً على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسبك. لا أشتهي شيئاً قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقداً أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعاً كنت أعود إليه باستمرار. أحياناً كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمازه أو أصرّ نَسب بحمير الجنوب وربما لم لا بحمير قومي،

وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرد الصدفة دائما- من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حُكم عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمّته. تصوريني على عنتر الثاني متسكعا بين المجزّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرًا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدو يهدّدي، لا خصم ينافسني، لا نصير بينرّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية ورفي ماكر. تتحنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تذكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعًا لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها... ذلك الجلد الأعجوبة... ذلك الجهاز المناعي العبقري... تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلّب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين!

حفنة من الدنانير قيمةً تعقيدٍ مخيفٍ يكتشفه الباحثُ، فأغرا فمه من التعجب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تُكفّ الملايين، ويقول لي هذا الأدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين ديناراً!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعر الحمار بمليار راند. لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعاً قديمة.

- الدور عليك أنت... ماذا تفكرين؟

- في غياب تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جدية بالاهتمام، أو أقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغتمي، غداً يوم آخر سنرى أخيراً الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غداً يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة. ثرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديداً: Go

Go home، Go home، home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعاً إلى الضفة الأخرى من هذا العالم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

أي نوم في هذا الضحيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلاً لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. آه يا صمت صحرائي الغالية!

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوماً. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالباً النجدة، فتصرخ جحافل النمل الراكبة الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتيل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلاً لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيداً. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بكل ما يليس من اشكال.

-

النهار الأخير والحصاد الغبار والفراغ والحرّ وأجمل ما في هذا اليوم نهايته.

سمر ليلة الرحيل

تبادرني مرافقتي بنبرة غاضبة وكأنني المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن تلتقط لها الصور.

- سيأتك تفتعل عدم الاهتمام لكن اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدأ، ثمة في هذه المحمية شيء ما يجعلها مثل رجع صدَى عالم اختفى أو هو بصد الاختفاء ومن ثم كم أنا محظوظ لأنني لحقت بها قبل أن تصبح هي الأخرى من الآثار.

- أفضلها على خيار الأغبياء الذين يتجولون في هذا المكان في عرباتهم شبه المصفحة يقيسون نجاح رحلتهم بعدد الحيوانات التي التقطوا صورها. كأن هذا المكان بالنسبة لهم حديقة حيوانات أكبر من التي يزورها وسط المدن الكبرى. ربما هم على حق. محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. نعم قد تكون هذه المحمية سجن كبير أو بانتوستان للحيوانات، لا غير.

- بانتوستان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه بانتوستان كان في الواقع حديقة حيوانات آدمية؟

- بالضبط والقاسم المشترك أكبر اثم الا وهو الاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانیه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البائس في طريقنا غياب الاحترام.

- تبالغ، تبالغ...

- آخر بانتوستان حيواني صغير زُرته مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك المحتشد المتحصّر وفي ذلك البلاد المتقدم- كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكر جيدا أحد السجناء. كان كلب بحر، جوع عمدا، يرمي له المروضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفالُ حول المسبح يصفقون له فيقلدّهم سجين الحرب يتسولُ غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وجواد مخصي على المشي إلى الورا.

- واصل افرغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض ...الألم نعم أشعر بك موجوعا.

- برافو إذن أنت منتبهة لمزاج غير مزاجك ...معك حقّ ...تذكرت أيضا أنني وقفتُ طويلا أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريلان" -طبعًا بنكهة احتقار- وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصة صغيرة بقطعة من الخشب. يومها تلاقى النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"الشيء" بما لا يدع مجالاً للشك يحرق فيّ يسألني:

عرفتني، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يومها حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها
... لا عليك...

- وفي الأخير انصرفت مُضيفاً إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب
الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضاً أنه ثمة أكثر من
غزاة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجَدَتْ في حدائق الحيوان التي
تستنكر وجودها حياة آمنة لا يتهدّد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة
والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الأسير
الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم تقرّر أنه بعد الغاء رَقّ البشر حان الوقت لإلغاء رَقّ الحيوان...يوم نعيد
للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا
واحد.....يومها سيصبح الأدمي إنساناً .

عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعليّ.

-على فكرة لماذا لا نفتح سجون الأدميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على
الأقل ستمكّن مداخلها -بعد خصم رشاي الإداراة والحراس والقضاة-من تحسين
ظروف الإقامة ولو قليلاً. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحاً منقطع
النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيتدافعون للضحك على
السجناء ورميهم بالحجارة وبالبنور.

تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تبالغ. تبالغ. تبالغ...

تصرّ على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنباً
إلى جنب.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني،
وترتخي أعصابني، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

- في ماذا تفكر الآن؟

- في ضرورة اقتصار النهار على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير
الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد
والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. بربك لماذا يجب أن تكون
هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد
منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكرى ومدبري
الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا
نحتفظ إلا بالسبت والأحد.

- السبب فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد لا فهو محتمل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلّص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعقّدة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرّفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكثوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحزّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تليخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقا زما رانعا وقد طهّرناه من كل وقت مضىع للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتكم؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسّل عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قلبها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصيلة. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادنا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحارّ بصدد التصخّر بجبال من البلاستيك.

تواصل مرافقتي حتي على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

- واصل لعب دور المدعي العام في مرافعته القيمة ضدّ البشرية.

- بما أن زلّة لسانك تعترف بشرعية رفع قضية ضدّ البشرية، كمّدعي عام لا خيار لي يا للأسف غير إحالة المظنون فيها للمحاكمة بأخطر تهمة: خرق قانونين أساسيين من مدونة القوانين التي تسيّر الكون.

القانون الأول: حيث إن كل الاجناس الحية شبكة من علاقات بالغة التعقيد والدقة والقدم وأن وجودها مرتبط ببعضها البعض، فانه يمنع على أي جنس التعلّوّل بالنموّ المفرط أو إفناء أي جنس آخر بأي وسيلة كانت وإلا يقع التخلص منه عاجلا أو آجلا حتى تستعيد الشبكة توازنها.

القانون الثاني: الأدمي ليس كأننا فوق وخارج ما يسميها الطبيعة. هو ليس من طينة غير طينتها وله الحق في التصرف فيها كخزان لحاجياته. هو جزء من هذه الطبيعة وإليها يرجع وعليه الالتزام بإرادتها التي تبقى دوماً فوق إرادته.

تهرّش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اختفت من نيرة كلامها كل سخرية.

تأتيني أحياناً بخصوص وضعنا صورة الخلية السرطانية. هي من طينة كل خلايا الجسم، لكنها تنمو وتدمر ما حولها من خلايا أخرى إلى أن تقضي على الجسم أو يقضى عليها بهذا الدواء أو ذلك.

- تمام.

-أصدقني القول...هل ترى أننا سنجد حلاً؟ ... الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر الحرائق الجبارة، عن تقادم موجات الجفاف القاتل، عن تزايد عدد الفيضانات الرهيبة، عن الغابات التي تتلاشى، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة، عن أطنان البلاستيك في البحر...شيء مخيف حقاً.

- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس. هكذا اضمن لنفسي ألا أخطئ إلا مرة على اثنين حتى ولو أن التجربة تثبت يا للأسف أنني أخطئ مرتين.

طيب هات الرأي الأول لعله يكون المصيب.

- هذا العالم مرّ بألف أزمة وأزمة وسيجد حلاً لأزمته معنا فلا خوف لا علينا ولا عليه.

-والرأي الثاني لعله يكون الأصوب.

-نحن ضيوف غير مؤدبين، دخلنا بيت الضيافة فأخذنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج وننبّول على الزرابي ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله. ورغم تكرار إنذارات المضيف واصلنا حماقاتنا لذلك أخذ قراره بطردنا في أسرع وقت. المشكلة أن المسكين تورّط بدعوتنا وقد أصبح بقاء البشر مصيبة لكن انقراضهم مصيبة أعظم.

- كيف؟ فسّر.

-توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قتابل بطينة الانفجار تبيث سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبتترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحمّلنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكرة أخاك لا بطل." ألم تخالجي الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتعقّر والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي

الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريّة التي تصف بالنسبة إلى كلبى وأني لو متُّ غدا أَحْمَلُ الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك سنقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجرائم والطفيليات والفطور التي وجدّت فينا مرتعا خصبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من آدمي ينتبه لكونه عالما بأسره تسكن جلدته وكل فتحات جسده جرائم لا تحصى ولا تعدّ ترتحل طيلة حياته داخل أمعانه تعيش وتموت فيها ..كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكوت، أي فضاة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟

- دقيقة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكلّ بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جرائم الطاعون.

-ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.

في ملفّ مازال ينتظر عقدين من الزمان ستملأه معطيات مرعية عن مُدُن مطوقة عن شوارع مُقفرة، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن فيروس خرج فجأة من المجهول مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علماء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يَحْتزِل نجاح تطاوله على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه قَدَرَ وَضَعُ أُمَّةٍ مُتَعَجِّفَةٍ وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تُدّعي أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجهري يتقضّ عليها فيزهب في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية وبصفة عامة كم هي تافهة أوهام الأدميين عن تفوقهم المزعوم وكم يبالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هسّ وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنشتكي مما تفعله بنا الفيروسات وقد تكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العالم؟

تتنهد مرافقتي تقطع عليّ تفكير متوجس قلق.

-المهمّ أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن يتهالوى.

- سفسطة كالتى تجيد.

-اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة أدت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المذمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة ونبيل الصيد مثل النسور والصقور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ستّ الكلّ أن الهندوس لا يأكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في العراء فتنتقات منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح نتيجة تسممها بكل ما ننتج من مواد كيميائية بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات والجراثيم فانتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والتربة ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح للكل كم كان البشر يدينون بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى مستشفياتهم؟

-لا ولكنهم سار عوا لسنّ قوانين لحمايتها وتعهد صحتها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهايار عالمهم.

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجد وتبأكي على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضدّ كلللل الأدميين أو إنني متعاطف مع كلللل الكائنات غير الأدمية؟ أبيض -دون حرج أو عقدة ذنب-الذباب والبعوض وكل هذه الهوامّ التي أطلقتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوفة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرايت أقبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأدمي الجديد بالمقارنة-آية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا؟

ما هذه الكائنات أكانت من بني حرية أو آل ثبات؟ مشاريع بحث متفاوتة النجاح يجرب غيرها باحث عبقرى كل إمكانيات الخلق؟ إذا كانت مشاريع يجرب غيرها إمكانيات خلق لا تتضب أبدا فما الذي يجرب في الأدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟ أنكون أنجح تجاربه أو أفسلها؟

تبتسم مرافقتي وكل ملامحها تفضح تأثراً تريد إخفاءه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرّج دوماً.

- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظاً للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للودود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الودود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لنا أديم الأرض ليكون حاضنة الحياة.

تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتباراتها للقسيس أيام الأحد.

- جدّ بماذا سنشير على السلطات العليا التي ستندارك حتماً خطأً تغييرك عند وضع التصاميم.

- لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيتَ في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقحّموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.

تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟

أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصرت على هذه السفرة؟

أقول لها إنني جئتُ حاجاً لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منها الطريق جرياً وراء الطرائد والكلا إلى أن وصلنا القمر... أن في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكّلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم... أن في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل القانون والتقاليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرائس بعضهم البعض... أن في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والراوي حول النار يردّد ملاحم كبار الصيادين...

- لم تردّ على سؤالي. كلّي أذان صاغية.

- جئتُ لإثراء نص أكتبه منذ سنين ويتطلب أن أسأل سكان هذا المكان كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومنا المتأرجحين على الأغصان.

- خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.

لم أكن جدّياً في حياتي أكثر من هذه اللحظة. نعم كم بودّي استكشاف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس، كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر، كيف

هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم السماء بعينه التي نُبِتَ داخلها مجهر
يبصر أدق التفاصيل. هل كنتُ سأفضّل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو
عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء
وخضرة الحقول؟ يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه
السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما".

من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهمن ما يختلج
داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟
يا للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئا.

نعم محكوم عليّ و عليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه
العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالما، فمحرمّة إلى الأبد...
وماذا أيضا؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جنثُ أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل
الأشكال القدسية التي يلبس.

- جنثُ تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات برّية؟

- أين تريدينني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمعّشون منه دون حياء
وبشحاذين يتسوّلونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمتدينون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي،
بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه... انظر للمولود الجديد
وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتّح الورد وستراه... انظر
لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

وَأَيُّ الْأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى (الحلاج)

تَعَالَوْا يَطْلُبُونَكْ فِي السَّمَاءِ

تَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ جَهْرًا

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مِنَ الْعَمَاءِ

تهزّ مرافقتي كفيها. فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبها فأرفع صوتي.

- ألم تنفق أننا سننسى وجود هذا الشيء للعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكامٍ إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة.
فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من
أحد. كلنا ننتظر خبرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند
الولادة ومن ثمة تهاني الإدارة العامة لشؤون الكون.

- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم.

- ستصل حتما يوم أقرر فحواها بأكثر دقة. سأكتبها بخط واضح مزيفا امضاء الله. ثم ستسلمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خافق القلب لأرقص طربا وأنا اقرأ ما فيها من أخبار رائعة تتجاوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار، جئت إلى هنا لعلك...؟

- جئت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة شيئا لا توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- عشية وصولي هرعت لهذه الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتهت لوجودي حدقت في باسمة ثم بادرته بإنجليزية أسلم من التي أنكلم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجثت بعض الأعشاب المحترقة. مدت لي الكل في خرقة قدره واللؤلؤ المنضود في فمها بخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدت لي المرأة الغريبة حجيراتها وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلي... تلك اللحظة شعرت بأنه "هو لا غير" الذي بيتسم لي عبر عينيها.

-انتبه، بدأت أغير.

آن الأوان للعودة إلى الهزل والى مواضيع أقل حساسية... أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تنزوي جينني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المئة من النساء اللواتي يضربن أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مئة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- يا للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعزرة يتيمة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمع حذائه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أراجع عن بعض الذهب والفضة وهديا أخرى سأمدك بقائمها الطويلة.

- هل سمعتِ بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبية والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كُثُرٌ يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أنتاجهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادلُ بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أسّ البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة والتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون...

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة السباجيتي وأكلة الهامبرجر وأكلة جناح القرش.

- يا الله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنيت البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا.

- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رنة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحزّر المرأة. هل لاحظتَ أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شعلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهمّ التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-قُل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". ستكتشفين أنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا ناهيك عن كل أخطار اختطافها. أمّا خطبتيّ أمّ تفاحة وتفيحه، كنت لا أملك شروى نقيير

ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

- سلمّ عليه من طرفي وبلغه تضامني وتشجيعي.

- كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبيني من "ما". قد تخيّرنا بين مئة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أنصحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتنص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهي، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "ما" وجداتي بلقيس وعليسه والجازية الهلالية وما أدراك.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. تؤكد أنها ستكتشف -طال الزمان أو قصر- أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي تودّعني عند باب المطار.

ثم تستعيد جدّيتها.

- تُذكّرني بجدّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله مَعْبُوك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمي وادمية تائهيّن وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.

نعم... ونحن نتبوّل في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حركك وأنا أكنم ضحكي.

**

الأشياء

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم مخاوف المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت ومكان الميعاد.

تبتّ في ساحة المدينة شبه المقفرة قلعا مبهما. هذا مارٌّ ربما يدلني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمّى "اليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالمزعج ليس فقدان السيطرة على المكان وإنما تراجع المكانة.

بغرابة سحتني وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفراده باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيئه المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك داخلها أعمق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثه، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دليني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهبّ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة الصالحة.

تخيلت أو سمعتُ المرأة تتنهد هامسة لنفسها: أمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدونك بها.

أخيرا النزول في ابتذاله وشبهه بكل الأماكن المخصّصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرّون على شيء بخصوص الفراغ الذي تتعلّق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصير مزرکش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بأجمل الأثاث وبما يتكفون من أموال طائلة لتزيين كل ركن فيه.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممثلي من القاع إلى السقف بالتمثيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدّ رجليك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التنبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها، ثم بسيارة لدفعه أخيرا داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغت متاعبه ومُتعتّه! لا يبقى عليّ إلا إلقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها برّاد زاهر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدقّعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

آه، يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة.

ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تأهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذرا أنه أن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيل للتنجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه،

يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقتة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاهما لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبثا كل السلطات ودعوت إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ ألسنت القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر! ربما سيتبعني بعض نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستفريق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريباً في شوارع أفقرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغيّر جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرت على عنادها خوفاً من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيقه في الجري، وراعنا واحدا واحدا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين أما أنا فقد عزمت وتوكلت. سيبدأ الإضراب التاريخي صباح الغد.

على باب الغرفة والمعني بالأمر العالم كله وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح -لافتة "عدم الإزعاج". على الطاولة حذو الفراش لافتة "ممنوع الكوابيس".

عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي كامل هذا اليوم؟

لماذا لا أنسج على منوال ذلك الأرسطراطي الفرنسي المدعو دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على وقوفه في وجه الثورة، فتوكل وجهز نفسه لاستكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟

ربما كان الرجل محقاً في سخريته من كل المغامرين الذين صدّعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم. أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرف البيت وحديقته إن غاليينا في التهور؟

بيني وبينك كيف تجاسر هذا الدعوي على سبقي بقرنين بفكرة عبقرية كهذه لم تخطر ببالي أنا الذي حملت بالتجديد الجذري في أدب الرحلات. كم صدق مواطنه المسمى لابروييار في قوله " كل شيء قيل ووصلنا متأخرين"... اللهم إلا ...

وحيث أنني ككل آدمي نزيه لا أسطو على أشياء أو نساء أو أفكار الآخرين إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم افتضاح أمري... وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول عند قرّاء لغة موليار فما بالك عند قرّاء لغة الضاد مما يعني استحالة أن يكتشف ناقد مغرض سرقتي للفكرة فيشهر بي ويفضحني في كل مواقع التخاصم الاجتماعي... فإنه يسعني بكل أريحية نسبة الفكرة إليّ لأكون أول من يروى رحلة

الهدفُ منها ليس استكشاف الاتساع وإنما الضيق، ليس البحث عن الأدميين وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما اهمالها.

لجمع مادة التدوين لهذه الرحلة التي ستمشي بذكرها الركبان، يجب الانطلاق من استكشاف غرفة الحمام ووصف كل ما فيها: دش، ستار، مناشف، مرآة، حنفيه، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء... أوف! لا شيء مفاجئ، أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بالضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

المرور الآن لاستكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها. رائع، لا شيء يحرك داخلي الرهبة، أو الخشوع أو الانبهار أو التقزز أو الخوف أو الرعب.

يتوقف البصر مطولا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا موقف الأرسقراطي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المدبح الذي أغرقها به الرجل والحال أن الفراش يعلو عليها قدرا وقيمة وهو الذي نقضي فيه جزءا كبيرا من زمن وجودنا في هذا العالم.

اللعنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب- أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا!

كم من مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (لكسر الرقم القياسي على الأقل بيوم واحد)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزول يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطبي المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية.

فكرة صاحبنا إذن ليست بالعبقرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفف، فأنا ككل آدمي نزيه لا أسرق أبدا ما ليس له قيمة أو ما لست بأدنى حاجة إليه. أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أتنبه لإناء موضوع على الرف. يبهرنني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء. إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه جرفيون صعّدوا إلى الجبال يُنقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونها منها... الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون

أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأ في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حملات قوافل أشباه العبيد الشيء الذي رجع به مغامرون غرق منهم الكثير وغرقت معه أئمن بضاعة الشيء الذي مثّل سرّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسليين.

كل هذا الكلام المعسول عن خروج الأدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثا عن الذات والله! بصراحة هل كان الأوائل يغادرون حضن نساءهم لولا جشعهم للشاي والقهوة والسكر واللبان والتوابل النادرة، يبحثون عنها وراء المحيطات لا يهمهم للحصول عليها استبعاد الملايين من بني جنسهم.

كيف فاتني إذن لحدّ الآن الدور المخفي للأشياء في رحلتنا؟ هل كنا نستكشف هذا العالم لو لم تكن من أهداف هذا الاستكشاف ناهيك عن كونها وسائله؟ هل كنا نصل القطبين والقمر وندخل عالم الفيروسات والجراثيم لولاها؟

بديهي أن الأشياء مكوّن أساسي من مكونات العالم معني تبلّد مزمّن من الانتباه لدوره في الرحلة. ليست هي الأخرى مثل الكائنات الحية من بشر وشجر وحيوان من محتويات الحاوي الأكبر الذي نسميه العالم؟

ينتابني جدل غريب وقد أتضح لي أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فادح في تقريري هذا. أضف ما سيكشف تفحصها من معطيات هامة عن الأدميين الذين يصعب تصور رحلتهم وحتى وجودهم بدونها.

-

نبدأ بالتأكد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الواجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ نقول: لكن الشيء لا يغلّق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهلٌ فهذا الذي أقصد صنّع وطوّر وحسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والتكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سري للغاية"، كل هذا خوفا من قلّة أدب وفضول الأدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعا.

الوظيفة الأساسية لشينك هذا بما لا يدع مجالا للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرّفْع المؤقت للإغلاق- فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسّني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تسهل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وأخرُ لفتح أبواب محتشادات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدرج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظّم لكل ما تتغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنزجئ لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، علبه تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحناها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتقطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبه إلا تمر لذيق يمكنني أن أكله كله بما أن أيّاً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ أه ثمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكرّمهم، هو الذي يذلّمهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعرّي كل قبحهم، هو الذي يغطي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.

أرمي بقرف غير مقتعل قطع النقد على السرير. أه السرير!

بصراحة منّ منا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثاً فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود إلى خدماته.

تحضرني هنا قضية شائكة: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلاً كيف نقرّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجاره الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفراداً وشعوباً لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرفهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفاً بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حدًا له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمّل الطريق لولا الحذاء صاحب الأيادي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلتصق بالمسكين. كم نظهر للأشياء من عقوق أفضع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي ألبينها على الطريق وتخلصت منها رميا في الزبالاة لا يعينني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أو اصل حافيا

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.

ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القداس. يا له من منظر مهيب والادمي المعترف بالجميل أخيرا ينظف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لابسبه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قدمي داخله رفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروانج. لكن كيف سأواصل الطريق حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟

نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء البالغ الأهمية.

أذكرُ أنني فتنّشت يوماً بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطة في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوماً متخلف عن متطلبات الوضع بسنين و عقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقيق الذي لا يلبق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلاً خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.

على السرير أيضاً البيجاما وقميصان وجوارب وبدلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء التي نسميها الثياب.

من يقدّر قيمة هذه الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جدّ بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المرعب للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغنم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدّر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الأدميين -خاصة الإناث- من ينتهبون أكثر، لكنني أشكّ أنهم يُظهرون لها من الامتنان أكثر ممّا نظهر نحن الذكور.

فالثياب دوماً مجردّ منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة فذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطّواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيداً عن أنياب الفران.

ثمّة أواحد يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجردّ منديل، مثل المدعّوة هرتا مولر التي تستأهل جائزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

"هل لديك منديل؟" سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقنّعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانتك. عند الصداع نضعه على الجبين مبللاً بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمراً ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيساً ثقيلاً فإنه يلفّ منديله حول يده. نحركّ المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن

تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خرّ صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصبثُ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يديّ لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

ثمة كما هو الحال دوما استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمة أيضا ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟

لا يجب أن ننسى حبّ الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

يقطع على تفكير رنين مطوّل لشيء غير عابئ -على ما يبدو- بازدرائي له. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرنى قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بالسراح الشرطي وبالغفو الإلهي الشامل وتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عانيت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلته، تمادى في المعاصي. فِعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبى إلا أن يصغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- عل حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو، في قاعة الحفلات وداخل المكتبات ناهيك عن الساحات والشوارع.

أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلتي من تفاهة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلةً لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجمال أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتقيحه تحسبا لكل الاحتمالات بحشو أذني بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

تقول يا رجل كفت عن القدح في شيء سهّل على البشر التواصل بكيفية لم يسبق لها مثيل في الماضي وذلك أمامهم كم من صعوبات.

نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن...!

في بعض أقدم ملقّات الذاكرة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضابقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مُطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

لم تتغير العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود. يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في السماعة: الرجل يفرغ من دمه. عجل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عجل مريض آخر بصدد لفظ أنفاسه.

لو كان تتكلم هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلتها صمتا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوماً نفس الشيء السمج الحامل لنفس الأخبار السيئة أيا كان موقعك الاجتماعي والدور الذي تلعب.

يخاطبني المسؤول بكل أدب: سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم.

أغلق الشيء وأهزّ كتفي: معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحق لا يدمر إلا الحقد والحسد لا يُذلل إلا الحسود؟

يرنّ الشيء مصراً على نفس النهج في تنغيص حياتي: آسف سيدي على إبقاؤكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتتقبض عضلات الحلق وتتسارع دقات القلب!

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأنداك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدّق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ وعليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيتي الجميع. لم لا؟ سيمكّني تتسم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكراً على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكله: "يلعن أبوك يا ابن الكلب".

الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنياً. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!

كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة!

ساعتي موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبة" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخفية. يجب أن يكون الاستجواب مهنياً وصارماً.

أي زمن تقيسين أيتها الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح يذرف أم الزمن المستتق لأيام العزلة الانفرادية في الزنانات القذرة؟

ماذا الآن عن تعديك على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق؟ من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا آدمي توقّف هرمة وهو يكسر ساعته.

بعد الاستجواب لائحة الاتهام علما وأن الحكم جاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة -شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نية لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبين من عدم توقّف الزمان عندما تتعطل أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلًا بحجة الوصول في الموعد فإرضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمان قُدماً بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنّ ريك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد منغلّق على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمعن في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرنّ الشيء المسمى هاتف النزل مغتتما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحة قد تزعبه طويلا.

يغتم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجنب تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليّة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.

قبل رمي الساعة في أبعد مكان أضعها على أذني كأني أريد اسمع صوت الزمان.
تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك....

ليس في هذا الصوت إلا خبر مؤكد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية.

ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليلٍ؟

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو فاجأك جنّي خبيث بالردّ.

أن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعي عليها، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تودّي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكّنا على الشيء المائل أمامنا بالجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُجَنَّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيئها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لحِيطْ تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-2-4-5-7-8-9-10-11-12-. تأمل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمنى نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحتجّ ينبهك بنفاد صيرٍ أنه ليس مسؤولا لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبت؟

أه النظارات! كم من مرّة أسرّت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كف عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوانك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولاها لعبرتُ عالما ضبابه خارجيا أكثر من ضبابه داخليا.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقيبة السفر نظارات تدقّ في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقتي على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكارها ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَيّ تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكنني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتف لا يرنّ وإن رنّ فلخبر سعيد.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن سانجا.

أه الكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرَبّي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فردتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج أجمل هدايا "ح"!

لولا هذه الأشياء لما ذهبنا بعيدا... فالأدمي، خلافا للذب بفروه، للبعل بحوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه... هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها... مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح.

بدأ النعاس يغلبني. أن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة. فنجان القهوة! كأني أراه لأول مرة وهو الذي صاحبني معظم حياتي.

الشيء الذي أتفحصه بأقصى الانتباه كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقا. هو يُحدث صوتا إذا ضربت جداره بالمعلقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جُعل لاحتوائه.

هل يخضع هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ للتأكد من الأمر يجب دفعه إلى السقوط من الطاولة ولكي يطمئن قلبي لمس كل القطع المتناثرة.

على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بال

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البعث مثلنا

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقيّة الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحاول الإفلات من الرصد.

أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا يضعه على مرمى حجر في الصدارة، في الواجهة.

لا بدّ أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. طبعا إنه جهاز التبريد. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على رأس القائمة.

ثمة أيضا هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل.

لو كان هذا الشيء حقا ابن حلال وصديق الناس الطيّبين أمثالي وعزيفا بأقدار الرجال، أما بخل عليّ هذه الليلة بما تشاق اليه روحي: الأخبار الطيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتحه لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة.

ماذا؟ العرض الآن عن حرب طروادة ضدّ الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن الياذة هومير.

ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أقمنون وافيجيني؟ ... لماذا هيكت قلوب وعقول أمم عديدة مأساة الأم والابن لا مأساة البنت والأب؟ ... ما الذي نقصك يا هومير حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا ومدن الأميركيين معابد زوس بدلا من كنائس المسيح وأنت الذي تمدحه فيها كل الألسن على مرّ القرون؟ آه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال من طينة القديس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء تقليده أو التلميح به للمنتهين من بني آدم؟ أن العالم شائسة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو ببأس متعاطم؟ حقا هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

حان دور الالتفات للأشياء المخفية في صغرها البالغ؟

ثمة علة الكبريت... المشبكات لمنع الأوراق من التناثر... هذا المسمار المسمى "بقة"؟

يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. كنت سامرّ دون الانتباه للغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل فراغا بحجم الكون نفسه.

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقدّرًا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. أتصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لادمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخر في سحاب خفيف! كم سيتطلب كنس هذه الوساحة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب!

بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطررها الغبار وهو مُنطلق كلّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّ للغبار وإنّا إليه راجعون.

-

ماذا بقي؟ الحاسوب طبعاً. كيف نسيتته أو قل تجاهلته وهو أول ما أخرجت ما حقيبتني؟ لا شكّ إنها حقيظتي ضده فمنذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع قطعة الشطرنج الواحدة تلو الأخرى على شاشته فتسقط كل مرة لتنتهي المباراة بسرة مهينة.

دوما على الشاشة نفس الرسالة البائخة: أتريد اللّعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاني أمل مقامر يمّي نفسه باستعادة كلّ ما خسر في الجولة الماضية. عبثاً، والرسالة دوما نفس الرسالة: كشّ مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير. مرة أخرى كشّ مات.

خليط من الغيظ وشهوة الانتقام. أجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيسطرني إلى رميك في سلّة المهملات.

كشّ مات.

- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في حاسوب نقال أرقى لفسحة نهاية أسبوع.

- كشّ مات.

- وماذا لو زوّجكّ تفيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟

- كشّ مات.

هذا الشيء المكوّن من معادن بخسة أذكي منّي أنا ابن أينفّاس!

الرابعة صباحا. أرهقّ الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأدمي.

المشكلة أنني لست الوحيد الذي تهدّد مثل هذه الأشياء الصورة التي يحملها عن نفسه.

ها قد بدأت تتزاحم حولنا وداخل بيوتنا أصناف متفارقة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكيرٍ أسرع وأصفي من الأدميين، ولم لا على مشاعرٍ أرقى وأفعالٍ أذكي؟

ادرس تاريخ البشر في علاقتهم بالأشياء وسترى أنه يتحرك الآخر وفق ثلاث مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيدا، تزايد قدراتها هي ومنها القدرة على الانتصار علينا في الشطرنج، وتزايد تبعيتها لها التي قد تصل بنا يوما لحالة نصب فيه عبيد عبيدنا.

تصوّر أن جنيا ألقى بتعويذة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عاريا بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية اختفت من فمك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والعبّارات والهراوات والمكينيات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كتفك مستخفاً بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أخشى ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتدمّر شبكة الكهرباء على كامل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتدفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزواً خارجياً لكائنات من وراء مجرة العنقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيماً تمهيداً للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة في قوافل السواح وبعثات الأبحاث العلمية.

نوم مضطرب تتراحم داخل أحلامه كائنات من معادن وأسلاك تصرخ في أوامراً غير مفهومة.

عند الصباح يُدقّ باب الغرفة بلطف لكن بالحاح. أفقر من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماماً من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في "اللوبي" كثير من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكراً على التفضّل بسرعة.

وكأنه تمّ الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرّ الشيء في جيبي. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأنسى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضاً.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرههم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يظنونني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوّشة بخصوص هذا المكوّن الأساسي للعالم الأدمي الذي نسميه الأشياء.

تساءلنا ماذا نمثّل بالنسبة للحيوانات والأشجار؟

قريباً سيتساءل الأبناء والأحفاد ماذا يمثلون بالنسبة لكائنات مثل السيورغ ومختلف أجناس الروبوتات الذكية الحساسة الواعية التي تحركها أكبر فتوحات الذكاء الاصطناعي؟

أنكون في سلسلة الأجناس الحية حلقة تقادمت ولم يعد لها من مهمة غير فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا ستأتي بعدنا لخلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلقنا!

كم مؤسف أن " طوماي " لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا أوائلنا.

إنه تقصير لا يجب أن يتكرر ومن ثمّ شهادتي هذه عن الأدميين احتراماً لحق السيبورغ والروبوتات في معرفة من كانوا لهم الأوائل والآلهة.

**

الكتاب الرابع

بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تولدهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الربان، من يأكل من القمامة ومن يكون المأكول.

من الطبيعي أن تكون آخر مشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم الحفاظ على حياتهم وهذا له شروط عديدة من أهمها أدق معرفة بمن هم الركاب الآخرين لتفادي شرهم وإن أمكن استغلالهم أحسن استغلال.

تصوّر وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار المئة وخمسة بحار المتراصين على متن سفن "سانتا ماريا" و"بينتا" و"نينيا".

إنه وضع كاتب النصّ في هذه المرحلة من تدبيح التقرير النهائي عن الرحلة. المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط، ليس أمرا هينا.

أي معطيات يمكن استعمالها لكي يكون لشهادتي الحد الأدنى من المصادقية؟ التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم عدد الأدمين الموجودين واستحالة أن تعرفهم واحدا واحدا.

الاعتماد على آراء من تثق في حكمتهم وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والفنانين من كل العصور؟ يا للأسف تكتشف يوما أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يخفون وراء ما يسوقون تشاؤمهم أو تفاؤلهم وذلك من منطلق أزماتهم الشخصية مع من جربوا من بشر.

ثمة عنصر آخر يمنع المعرفة المعمّقة: قصر زمن الملاحظة وموقعها. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحتلّه إلا مَنْ تسميه اللغة الربّ. لست متأكدا أنه حتى هو يصبر على متابعتنا واحدا واحدا والتدخل في مشاكننا التافهة كما تدعي بعض الأساطير.

ثمة أيضا استحالة النظر إليهم بعينيّ البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كلّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدّي على الأعراض.

يبقى أن أكبر الصعوبات هي المتعلقة بالملاحظ نفسه نتيجة استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راي يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات لا الأحكام.

أي كلام موضوعي يمكن أن أقوله عن الأدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

بربك ألا يسمّون حياتك إنانا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ!

ألا يسمّون حياتك وهم رضّع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل لمنعك من النوم ببكاء لا يتوقف ولسبب لا يعلمه أحد ولا حتى هم!

ألا يسمّون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي!

ألا يسمّون حياتك وهم مراقبون يكفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية!

ألا يسمّون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالجملة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدّج مغرورون جهلة!

ألا يسمّون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر!

ألا يسمّون حياتك وهم شبوخ يرتعشون ويهذون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لفرار السنين!

ألا يسمّون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأدميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيده الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟! وكأنه لا يكفي أنهم أفسدوا عليك يومك يجب أن تدلو بدلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلا للأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.

بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة واسطير نسجها خيال رعاة ماعز وغنم يؤدّي التعرّض لها للوقوف أمام محاكم التفتيش بانتظار حرقك حيا.

تقول مستنكرا إنه موقف غير لائق بإنسان يدعي الاعتدال الموضوعية؟

ماذا، كلامي كله مرارة و غضب و تجنّي و ظلم؟ بربك هل أنا من قال فيهم؟

وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه

وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم

وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا

وإن طرقتني نكبة فكهوا بها

وإن جئت أبغي شيئهم منعوني (أبو العتاهية)

وإن أنا لم أبذل لهم شتموني

وإن نزلت بي شدّة خذلوني

وإن صحبتني نعمة حسدوني

تضيف وأنت ككل الأدميين لا تحب شيئا قدر اثبات تفوقك الفكري والروحي على الآخرين: يا ناكر الجميل، أليسوا هؤلاء البشر الذين تَدَمَّ هم من فتحو لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "ما" و"ح" وتفاحة وتفيحة من هؤلاء الذين تقول إنهم سَمَّوا حياة سيادتك؟

طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكِّد نظريتي، فسواء نظرت إلى البشر بعين السخط أو بعين الرضى، النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار.

هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصيل آخر من مسمي الحياة.

شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وَصَفَ للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم. هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك ولا عِلْمَ آخَرَ بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.

آخر عامل خطير يفاقم صعوبة فهمهم: التبدل الذي يأتيك يوماً من طول حبهم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات وعودة الانتباه لتتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهادتك لتقطر الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية.

على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا ما تراكم عنهم في ملفاتي وهذا كل ما أعرف عنهم والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروته.

**

معطيات السطح

ثمة من قال بخصوص الأدميين: نحبّ منهم واحداً أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

أقول للتصحيح نحب منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبدلين إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ منذ الصغر فضولاً عارماً.

في بعض أقدم الملفات يشدّ الطفل طرف أمه وهو يخترق مجموعة متلاحمة من البشر والحاسة المستنفرة لاستكشاف الأدميين البصر.

- "ما"، انظري كم هي سميئة هذه المرأة!

يفهم الطفل من التفات أمه يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيداً وأخشى أن نصل متأخرين.

- "ما"، تقولين دوماً إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ "ما"، متى سأكون طويلًا مثل كل الرجال؟

- صبراً أيها الطفل العجول

- "ما"، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمه نبرة استحسان.

- أصبت يا بني، ولو أن هناك استثناءً سأحدّثك عنه يوماً. والآن، توقّف وأمسك بيدي حتى نعبّر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر، على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه، على امرأة بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، على أحدب مضحك الشكل، على شاب مفتول العضلات، على عجوز تتكئ على عكاز، على وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، على وجه كأنه خُفّر في خشب بني بسكين، على وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، على رأس شعره بلون سنابل القمح؟

المهم انتباهه أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كرّاسه وأقلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم هذا القالب في شكل كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

دوماً نفس الأسئلة الغريبة.

- "ما" هل هناك بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.
- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.
- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجرّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار. يكتشف الكهل يوما أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبدا عن نفس اللعبة.

“كلمهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلم الرسم كالأطفال” (بيكاسو).

مؤكد أنه لا وجود لبشر برأسين ولا بالأشكال التي رسمها بيكاسو لكن هذا الطفل سيكتشف كم لهم من أنواع تبعث فيه خليطا من الاعجاب والتعجب والضحك والاستكار : الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيق كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أغلى أنواع “الكيمونو” وكلّ “جايشا” لوحة فنية أجمل من الأخرى، الخلق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الراسمون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال. هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكياتهم.

على أقصى الطيف الذين يقدمون الأضاحي الأدمية لألهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحنّ يتيم!

-

ماذا تقول الحواسّ الأخرى عن رفاق السفر؟ ثمة ذكريات متفرقة عن معطيات حاسة الشمّ.

ذات ليلة يصرخ طفل في الرابعة أو الخامسة متوجّها إلى أمه وهي مضطجعة حذو أبيه.

- أف!، "ما" أخرجي الكلب بسرعة! الرائحة قبيحة لا أحبها.

كان في ضحكها المكتوم ونحنة "با" وتذكّر الطفل آخر لحظة أن الكلب لا يشاطر العائلة غرفة النوم، ما يكفي ليهم أنّ ربّ البيت-وربّما حتى ربته-يضرط أو تضرط كما يضرط هو وتخرج منه أو منها، روائح كريهة كالتى تصدر منه.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تنفجر تحت الماء.
انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال وأنا أدوي نفس الحرج بسعال حادّ
انتابني على غير سبب: غطيت الصوت بالسعال الملائم، ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟
لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.

البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار! أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات
بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك بأن تكون قمامة متجولة تصدر من حين
إلى آخر روائح نتنة.

ماذا عن حاسة اللمس؟

تبقى فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتفادي خطر البشر أو للنفاذ لما يعتمل داخل
ذواتهم. حذار من لمسهم دون اذن خاصة في مواضع حساسة. طقس المصافحة هو
الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لما تتغلق اليد على اليد التأكد من أنها
خالية من السلاح.

يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبية وشعرها. لن تعرف ما تضرر أكثر
مما يعرفه عنك الطيب في الحمام أو المدلك في المستشفى وهو يفرك جلدك
وعضلاتك.

لذوق إمكانيات أوسع. هل من باب الصدفة أن يحمل الرضيع والطفل كل ما يلمس
لفمه؟ خذ مثلاً أهمية المعلومات التي تأتينا والشم مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ
بالحبّ والسائل الدافئ الرقراق يبعد عنّا مغص الجوع أبغض حالات الشعور؟

هي التي تقول لنا الأدمي كائن مغدّ، محبّ، ضروري يمكن الثقة به... إلى أن يأتي
ما يخالف ذلك.

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تدوّق وابتلاع لا فقط ما يسيل من الثدي
وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمّله.

هل النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الأدمي... أكله؟

تقول ما هذا الهذر؟ انتظر حججك ثم خاصمني.

انظر طقوس كهنة الأزتك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة
للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت
الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنبض تقدّم إلى مأدبة السادة يتذوقونها بمزيج من
اللذة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكد؟

قيل والعهد على المؤرخين إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمّى
النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالتة
يحمل على الدوام في جيبه قنينة صغيرة من مسحوق اللحم الأدمي يمضغه متأنياً،
يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهج. وفي أوروبا المتحضرة هذه،

وضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فبعد قتل الأدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تترك الأجساد معلّقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادة تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجّهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

تقول عادات كفار لكننا نحن...نحن؟!!

عن آدمي اسمه الجاحظ، طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي عيّرت فيها قبائل بعضها البعض بأكل البشر.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم
تداعوا له من بين خمس وأربع
وقال شاعر آخر:

عدمت نساء بعد رملة فائد
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها
بيدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذواقة وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الأدمي:
أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم
كما أكلتم خصاكم في بني أسد

تقول لكن أجدادنا لم يكونوا بصدد إعداد رسائل دكتوراه في "الأدمولوجيا" وطموحهم الوحيد كان أن يملئوا بطونهم. بصراحة لست متأكدا من تبرير بمثل هذه البساطة. ثمة أكثر من ظروف نرى فيها الأدمي يلتهم الأدمي والحال أن كل أصناف المأكولات متوفرة.

كان نبلاء الأزتك من فصيل الشبعانيين ومع هذا كانوا يغيثون كل فرص الانتصار في حرب وتوفر ما يكفي من السجناء للتضحية بهم كما تفعل مع الخرفان. هل كانوا يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود غابة الأمازون ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الأكل وكذلك الملك الفرنسي المتحصّر؟

كل هذا ممكن، المهم أن الظاهرة ترجعنا باستمرار إلى إشكالية طبيعة المعرفة.

إن هدفها ليس إرضاء فضول غريزي فينا كما تدعي الروى غير المتقنة وإنما جعلها أداة إضافية لتوسيع قدرتها وإحكام قبضتها على العالم. النقطة القصوى لهذه المعرفة استملاك الشيء أي جعله جزءا لا يتجزأ من الذات. انظر لكل ما ننتج من معطيات وقل لي هل لها هدف آخر غير أن تصبح جزءا من فكرنا، من ممتلكاتنا، من كياننا؟

لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان ولا يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. فبأكله نحن

نتخلّص جذريا من الخطر الذي يمثّله ومن جهة أخرى نحن نخترّل كل زمن البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن بأكله ندمجها كلها داخلنا.

لنتذكّر أن أحد مشاهير الفلسفة اليونانية: ديوجان-المسمى بسقراط المجنون-كان لا يفهم استتكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تدوّقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يمتزج الباحث والمبحث فيه. المشكلة أن هذه المنهجية -التي يمكن تسميتها بما وراء العلمية-ليست في متناول الجميع.

من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرّا وأوقات المجاعات فقط؟ أما جارك فلن يعطيك شيئا من لحمه مهما كان مضيافا لمجرد إشباع فضولك العلمي. لا حلّ أمامك سوى انتظار ثورة يسحل فيها الشعب قائده المفدى ليمكنك، إن أسعفك الحظ بحضور موكب القتل، تدوّق لحمه وتناول ما تيسّر من كبده.

ثمة إمكانية نشر إعلان على الانترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث، ويزداد المبحث فيه معرفة بالوجه الآخر للذبح والالتهام. شخصيا أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الانترنت قادر على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلّص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه اوكرانيا قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة والحال أنّه كان مجرد فكرة من أفكارها.

هناك مشكلتان إضافيتان تحذران من اغراء استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه KURU لا تنمناه حتى لألدّ الأصدقاء.

المشكلة الثانية مرتبطة باستحالة تطبيق مقولة " اعرف نفسك". فمن الصعب أن تعرفها بأكلها إذ بأيّ أسنان ستمضغ أسنانك؟

لهذه الأسباب النظرية والعملية وتفاديا لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلا بها، فإننا ننصح كل الباحثين في الشؤون الأدمية ترك فكرة أكل العينات الدراسية جانبا-ربما إلى أزمان أخرى تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ماذا نسبنا من معطيات الحواس؟ السمع طبعا.

بصراحة لا يمكن القول إن ما يصدره الأدميون من أصوات مثل الصراخ والبكاء والعيويل والشخير والضرط والسعال وغرغرة الأمعاء والعطس والتثاؤب والتجشؤ يرفع من قيمتهم. حتى لا أكون ظالما لهم أيضا أصوات تأتي بمتعة لا تضاهيها متعة كالتّي تخرج من حناجر نساء اسمهن صليحة، فيروز، الأفيترجرالد، لاتا منقشكر،

سيزاري ايفورا أو استرلا مورنت. لا يمكنك أنذاك إلا أن تغفر للآدميين عموما وللإناث خصوصا كل ما سمّوا به حياتك.

بين هاتين الحالتين ثمة أصواتهم عند الكلام وأهم ما فيه النبوة وهي عندما تتخذ نيرة الأم الحنون، العاشق الولهان، الشرطي الغاضب، العسكري الأمر، المتضرع عند الصلاة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن تثق فيه. أما فحوى ما يقولون ففيه الصدق والخداع، الغثّ والسمين، الصواب والخطأ، المفيد وبالغ الضرر ... ولا شيء يسمح بالفرز ومعرفة ما يضمرون حقا إلا المعاشرة الطويلة بما فيها من تجربة مباشرة... وحتى هي!

**

أو كيف أنهم أخطر من تلاقي على الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة. أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ أم على وجه الأرض، تسأليني عن أحوالي وأنت جلّ مصائبى وقد رميت بي في هذا العالم مجردا من كل سلاح!

تبهت ربع ابتسامة الأم. تقطّب جبينها. تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب، ثم تقرّر الثبات.

- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

- تسأليني يا جاهلة كيف كان عليك إعدادي أنا وبقية الأطفال الذين ابتلوا بك أما. أتعرفين كيف كان عليك اعدادنا لمواجهة الأدميين!

أثبّ أمامها لأمثل الدور قترض يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، وببدها الأخرى تمسح دمة.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حادًا أمرا نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلل أحدا.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للألم مستعدون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفزون، إننا منهم لمننقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت.

بعدها الدروس النظرية في فنون الكذب والنفاق والخداع ومعرفة كيف يُستغل الضعفاء وكيف يُتقى شرّ الأقوياء. بعدها تكون الكتيبة العائليّة على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنافسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيتها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفشّ في غيظي ضربا بالحذاء في أول آدمي يعترضني ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخفتني ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به

إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبتُ من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقاً تحت إحدى شجرات توت البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوّناته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتذكّر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهاً جَدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلاً ويجرح المعلم الذي حاول التّدخل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكانا مثل المدرسة وهي من أخطر الأماكن على كل قادم جديد؟

ابحثُ يوماً -وراء الهدف المعلّن- عن الهدف الخفيّ لكل أفعال ومؤسسات البشر، ومنها المدرسة التي يدّعون أنها جعلت لتنتج أجيالاً أحسن من التي ما زالت عائشة للأسف... ستكتشف إن تخطيت سحاب دخان التّدجيل على النفس والآخر أن أهمّ مهمة لهذه الأخيرة ترويض الوحوش الصغار بتعليمهم الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والانخراط في أساطير الكبار لمواصلة حروبهم والتدريب في ساحات المدرسة على أبجديات الصراع الأبدي الذي ينتظرهم خارج أسوارها.

وسط هذه الساحات تبدأ التمارين الأولى. يُترك للأطفال أنفسهم مهمّة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري -والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين.

يواجه الطفل خصمه منتبهاً لأوّل مرّة أنه فارغ الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع، ممنوع، ممنوع.

تضيق ضرباته في الهواء لا تصل أبداً الوجه البغيض. ثم يندلع الألم فظيماً ما بين الفخذين يندز بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستند الطفل بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحيتين ليسقط مرة أخرى، ثم ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

هكذا يتعلم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. هكذا يتعلم أيضا هل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابةً ستمكنه من الثبات في ساحات كل المعارك التي سيمرّ بها الطريق.

يلمح الطفل من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصوراً مشوشة لأطفال يتهايمسون، كأنّ شيئاً كالقلق بدأ يستشري بينهم. فجأة تتوقف ضربات المطرقتين. يطلق المراهق ساقبيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أحرصهم صمت متعجب قلق.

هذا طفلٌ سيرفض أن يكون الفريسة أو المفترس وإنما الى نهاية الطريق الفارس الذي لا يخضع لظالم أو معتدي.

ها هو يواجه هزيمته وكله سعادة بأنه لم يستسلم لحوفه مستبطنا منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعتصر الخوف منك الأحشاء فترفضه، أن يصار عك فتغلبه، أن يزین لك الاستسلام فتنافضه.

بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار بالمؤامرات وبالحرّوب، تترسخ عند الطفل القناعة التي ستتحكم في كلّ تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرت على خوفك لن ينتصر عليك أحد.

السؤال الآن ما الأكذوبة المفضوحة التي سيبرّر بها حالة ثيابه ووجهه؟

لقد نفذت كلّ أعذار السقوط: من السلم عند مسح الخريطة بأمر من المعلمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلا الكرسي ليسقط منه.

تأخذ "ما" بيد طفلها، لا تخفي وراء شبح ابتسامه حزنها المتواصل:

- لا يمكن للأمر أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟

- برأسك "ما"، لم أكن يوما البادئ. لا أفهم حتى سبب عداوتهم. ماذا أقول ل "با" يوم يعود؟ إنني تركت كلبا منهم يعتدي عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

تعود "ما" إلى محاولاتها العقيمة والمرأة المسكينه إلى النهاية أسيرة التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة وعن طفلها على وجه الخصوص.

- عدني أنّك سنكلّم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لبس يُسوّى بالحسنى.

- لا، أبدا، أنا أكرههم.

- إنهم أترابك وأبناء الحيّ، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كلّ سوء تفاهم.

... -

- لا بدّ أن تكون أكثر لطفاً وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.

تهمس "ما" في أذن جارةٍ جاءت تسليّ عنها همومها.

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسّف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصفّ يوماً من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعملتُ في أولاد الكلب قبضتيّ. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستجدون بالمعلم. كنتُ كسيدنا عليّ في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غداً لأمر يهّمك.

تدير الأم ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفسّر لها أنّه وقى بوعده، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.

- أرجوك، اسمعيني. يدّعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لذلك أنا أوّلهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم!

تفتح "ما" فيها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس بينت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الأدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنّه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية وندرجسية من الأدمي وهو طفل.

ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيراً أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال وأخطرهم الرضّع؟

لا أحمل أيّ واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبله مفتعلاً بالإعجاب بجماله ونباهته المبكرة- إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبول عليّ اللعين أو أن يغتتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموماً ومن الرضّع على وجه الخصوص.

بالله عليك، هل وُلد هولأكو، أو تيمورلنك، أو هنلر، أو ستالين، أو بشار الأسد أو ننتياهو بشوارب وحذاء بمهمازين مدججا بأخطر أسلحة عصره؟ ألم يكن نيرون - ولا أتحدث عن كاليجولا - هو الآخر ملاكاً كانت تدوب القلوب لرؤيته واستيشّر بقومته أبّ وأم وجدّة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعدُّ ملاكهم هذا من فظاعات ما زال التاريخ يتذكّرهما مرتجفاً من الهول؟

الحقيقية التي يرفض الكل مواجهتها أنه لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورَّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرضع مع بالغ الأسف.

كبر كلنا في العمر بتعاقب السنين، لكنَّ عذادَ النضج يتوقَّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

أليس جلَّ ما نعانيه من بعضنا البعض تواصلُ الطفولة فينا؟... أليس كلُّ طاغيةٍ طفلاً رفضَ أن يكبر محاولاً إلى آخر كارثةٍ إملأه إرادته على أمةٍ يريد لها أمةً؟

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيديني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

-

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يشنّد صراخ "با" وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضنّ الطرف يا ابن الكلب. غضنّ الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تكي. لقد كسرتُ شوكةَ من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك يا كلب-وستعلّم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمى الأب "سيدا"؟

تشنّد سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، سنقتله.

- سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يواصل المراهق الراضخ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكما، أو إلهاء- التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب بيتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهّي عليك ولا أمر.

يجنّ جنون "با".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمّل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن

من أين له تحمّل تبعات كسر ذراع مَنْ يحبُّ أشدَّ الحبِّ؟ إنه فصلٌ من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة - وإن بأشكال مختلفة - إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبُّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبُّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهثاً ماسحاً عرقه متوجهاً إلى مُناصرٍ مجهول:

- قتلتني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي الرجل بعضاه على الأرض وبجسده المرهق على الأريكة منتظراً أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دوماً على حقّ وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مراهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فالذات لا تتشكّل إلا باعتراف تفنّكه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للقمّة من قم السبع... وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه... لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية... اللهم اجعلني دوماً من بناء الذوات لا من مدمريها.

وفي آخر ملفّ عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفق له جفن، نافخاً ببطءٍ مدروسٍ في غلبونه الجديد، وحركائه تتضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراع بنفس الحدة وكأن الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

يتسّمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرفقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفقيش، لرجل محبّب هزّمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبه طفلي؟

تبقى العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم يعد له نفع. ثمّ يحدّق في ابنٍ لم يتفطن أنه أصبح شاباً وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحب، شيء من التفهم وشيء

من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكآبة ثم تجدد المرح. ينفجر "يا" ضاحكا: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعاش أسدان في قفص واحد.

-

المشكلة الكبرى أن هذا الذي ستخرج اليه والذي يسمونه المجتمع ليس إلا أكبر قفص تتصارع داخله سباع شرسة مشدودة لبعضها البعض بسلسلة غير منظورة من التضامن ومن العداوات.

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجددا كأنني لم أسكنها يوما ولم يكن لي فيها صاحب. يشيح بوجه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أن غبارا شوّه لمعان حدائه. يفعل من كنت ولي نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرني وأنا أول من رأى مصدوما ومتضايقا.

إنهم النوع الأكثر انتشارا من الأدميين، النوع الذي يسميه النص الذي منه كل وحشة.

خاصية هذا الكائن أنك بالكاد موجود بالنسبة اليه. هو لا يشعر تجاهك إلا باللامبالاة والتجاهل مع نكهة من الازدراء وظلال خوف مبهم، كيف لا والأدمي من قديم الزمان أكبر خطر على الأدمي الآخر.

هناك خزّان آخر يخرج عليك منه بصفة مسترسلة أخطر وألّعن أنواع البشر.

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من جمعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأوباش ورائي ورّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أحن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذ من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أمي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات نقتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يلبق بكائن مثلي: قفص القرّدة.

تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لرجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفيتين مغلفتين باشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن

نصيبها من جسد استحلَّ حرمة إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخا: مَنْ تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجيل البصر حولي باحثا عن هبة من "الشعب" الذي ندّعي كلنا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يبطأئي المارة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

فجأة أنفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمتون.

من أين يأتي النور؟ (البياتي)

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور

يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملفت آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيارة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جننا من أجله أننا لن نخذله أبدا.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصيح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصابة: يا نبيل كفي.

فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. أه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نميل؟ النيل في مثل هذا الكائن كرائحة الياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

لم يبق لي من مكان يحميني على الأقل من شرّ الغوغاء المدفوعة الأجر غير بيت فارغ ومطوق بأعوان البوليس السري.

الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الأدمي أنه دوما في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتّي تترقبه.

ذات يوم تمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهرت من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطبّ الجبين من حام؟

يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيت.

كل الفضاء الآن زلزانة ننتة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

أنت لا تجرّب الوجود بكل حلوه وممرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالآدميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن التفاعلات والأفعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباءً منثوراً أي لحظة.

لا شيء تفعله سوى المشي طويلاً وعرضاً كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زلزانة ذاكرةً ملفّاتها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربع عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: الصبر يا ربي.

نعم يجب أن اصبر عقدين من الزمن لكي يعاد خلط كل الأوراق في مشهد ما زال بعيداً في غياهب المستقبل، يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطيرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناءك! سيدي الرئيس أرجوك. انظر إلى هنا! ها أنا نظر لنفسي أولاً وقد انشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفوناً بين الركبتين يحاول استحضار صورة تفاعلة وذات شبح أت من مستقبل ما زال بعيداً يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقاً يا لك من غبي.

فجأة ترتفع من الزلزانة المجاورة صرخة سثلاحقني سنوات، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجد، تُدكّر بأعمق وأرهب ما تعلمت عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسلماً، تُضمّمه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقبّل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلاً، ثمّ صغيراً ثمّ حشرة.

تتطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.

كيف يمكن أن يكون للذي منه كل نعمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلاً؟ كيف وصل إلى عالماً إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أُنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الآدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طرد حتى من جهنّم؟ فرضية رهيبية وأقطع منها أنه آدمي، بل وله أمّ.

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تفننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول.

أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر إصبعاً بعد إصبع واغتصاب أمه أو زوجته أو ابنته أمام عينيه ووضع خازوق في دبره وكَيّ القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه وأنيته وبكائه ثم والاجهاز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حياً وحتى نبش القبور للتمثيل بالجنث.

كم صدق شكسبير في قوله " الجحيم فارغ، كل الشياطين هنا ".

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة من الشياطين لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؛ اللعنة! ما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيراً بين الكائنات الحية في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بالوجود أصلاً؟

من أين للمرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربته قوة أسماها الطبيعة انكار أننا قد نكون أكبر غلطاتها؟ ... أما بخصوص المرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات لخالق اسمه الله، فالخيار الوحيد أمامهم بين فرضيتين... الأولى أن الله لما ارتكب خلقهم كان في حالة متقدمة من السكر... الثانية أن كائننا يمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الأدميين مما يعني أنه إذا كان الله فعلاً بريئاً من هذه التهمة المشينة التي يلحون بها منذ غابر العصور فلا خالق لهم إلا الكائن الذي تسميه اساطيرهم ابليس...

لم يضعوني في هذه الزنزانة صدفة. اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دك حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعاد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذني، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت. أي كائنات رهيبية هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة. على كل حال أليس هذا التعذيب الممارس في هذه الأماكن المربعة الشكل المكثف للعذاب الذي نعيشه في أشكال مخففة تلاحقنا طوال رحلتنا؟

فنون رداك يا دنيا لعمرى فوق ما نصّف (أبو العتاهية)

وأنتِ الدار فيك الظلم والعدوان والسرف

وأنتِ الدار فيك البغي والبغضاء والشنف

وأنتِ الدار فيك الهمم والأحزان والأسف

وأنتِ الدار فيك العذُر والتنغيص والكلف

وفيك الحبل مضطرب وفيك البال منكسف

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن تعذيب الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضدّه أي سلاح.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في نزوة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد.

لا، لا، تبالغ حقاً، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أهدتك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدثك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيراً. تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرنتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دمائه والتفكير في الأعذار التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفّ في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم، لتراه مرتخياً يتصبب عرقاً تعلقو بحياته ابتساماً الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقاً بين الركبتين.

هذا عالم لا منفذ فيه (هابكو لمجهول)

لا مهرب لأحد

لا حدود له لكن كم هو ضيق

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعنان السماء تريد شجّ رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فتزفر لحظة لتنتفضّ عليه كالعقاب، عقاباً على الإمعان في تمرّد عقيم تحالف لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصاً بي وبغيري: ما زلت موجوداً! كأنّ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعتُ فيك.

ذلك أنّي أضع اللعين كلّ ليلة في المزاد العلني متوجّهاً إلى مُستتر ساذج قد يسهل التغير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غرّاً وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجدداً كل صباح منتائب ولا أمل جدياً لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كامل الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجاناً، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

أي معلّقة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي يوم يخلّصني منه الموت أخيراً؟

حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، عالم قاس، فظّ، لنيم، بخيل، خادع، مرهق، محيط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة فالحفرة فالحائط الشاهق، إلى لحظة السقوط فيما ينصب من فخاخ... حذار، حذار، عالم قدّرك فيه جوّ لا يُسبغ، ظمأ لا يطفأ، حبّ لا ييوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعياً بك، لا يهّمه من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكلّ منتصرٍ فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان في آخر المطاف مهزوم... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، مضيقاً ما كسبت رعم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... إنه عالم أحسن موقف تجاهه ما فعل الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سرواله أمام البحر يتغوّط ولسان حاله يقول: هذا كل ما تستأهل يا عالم، خرائي عليك.

-

يُفتح أخيراً باب السجن الصغير لأجد نفسي مجدداً وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي الذين يدعون محاربة من أحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

القاعدة أن الصديق الحقيقي هو آخر من يصدّق ما يُروّج عنك من إشاعات وأول من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أول من يصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الخلّ الرفيق في ساحتها كبحتك عن أم لأطفالك في ماخور.

نعم كم صدق ذلك القائل الآخر إن كنت من الباحثين عن الوفاء ربّي لك كلباً.

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثياً على ركبتيّ. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثياً على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرح الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهمس في:

- أعتقد معي حلفاً ضد أصحابي وأعتيك بالمقابل على أصحابك؟

أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقته، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ فيّ أحدهم قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفل، القانون الأول في السياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة.

صحيح، لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محارباً ساذجاً يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا عدو يبارزه، إنما محارباً بمهارات راقص باليه صيني يدور

على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حجرة العدو ثم تصويب ساعده لحجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة. ها أنت تتضرع لله: اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما نشاء على جنتك وجهنمك.

المشكلة ماذا ستفعل إن تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم. يتحول الدعاء: اللهم كثر أعدادهم لكن رجاء ارفع مستواهم. أي لذة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم!

ثمة لحسن الحظ أعداء لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.

يا للأسف أغلبهم لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خَوْض في الوحل وصلاحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء الأعداء إلا وأنعس أنواعهم يتنفس في ظهرك والسكين بين الأسنان. إنه الذي منه كل نقمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس.

هذا الأدمي وراءك على طول الطريق، كل ما يتغير منه الشكل وهو دوما نفس الكائن المقتنع أنك حجرٌ عثره في طريقه والمصمم على ازاحتك كلف ذلك ما كلف.

ومن يُنقّ الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبتها وعذابها (الشافعي)

وما هي إلا حبيبة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذبتها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

لا فرار من الذي منه كل نقمة ولو تحصنت داخل قصر السلطة مطوّق بحراس مدججين بالسلاح.

يهمس فيّ الطبيب العسكري عند دخول عنبر الجرحى.

- كان كميئُ البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت. نعم كان كميئا مكلفا للمساكين المصابين لكن كم سيكون مكلفا أيضا لي ولكل من يريد الذي منه كل نقمة رأسهم لأنهم تجاسروا على سلطانه وعلى سرقاته.

على فراش الألام ثلاثة جنود مبرمجين لأشهر طويلة من العذاب. بعد ذلك سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُنرت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في انقاذ بصره.

تَشْرُ بيزرعون الزيتون وبشر بيزرعون الألغام! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته والمرأة مع بعلها وليس تحت مخدة الذكر مسدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس العاديين الذين تلاقبهم في كل مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنْزَوٍ من دهاليزها، تنرصّد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام...يا لهذه القافلة التي ترتحل وسطها تتوهم الأمان وأخطر من يترصدك على الطريق قد يكون الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك ذكريات طفولته!

القاعدة أن قدرة الايذاء عند الذي منه كل نقمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع هو من سلّمها.

في أسفل درجات السلم وفي شكله الفردي هو مجرد منغص لحياة من حوله. كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا لكل الأبواب، واضعا كلّ العراقيل، معسّرا لكلّ يسير.

في أعلاها في شكله الجماعي هو الغازي الأجنبي عندما يحتل أراضي شعوبا كاملة بالقوة، يدمر بلدانها ضاربا بعرض الحائط كل القيم والقوانين التي كدسها البشر على مر العصور لحماية بعضهم من بعض. هو أيضا المستبد المحلي المستغل لعرق الملايين أو الرامي بهم في حروب لا تبقي ولا تذر لمجرد تصفية عقده أو تحقيق أحلامه المجنونة.

في آخر المطاف من هذا الكائن البشع الذي حُكِم علينا بتحملة من المهد إلى اللحد أيا كان الشكل الذي يتخذ؟

يجب العودة إلى الأصل الذي تفرع منه لنفهم سبب ما نعاني منه على طول الطريق.

عن الجاحظ طيب الله ثراه:

“وبعض المفسّرين يزعم أن نوحا صلّى الله عليه وسلّم، إنّما سُمّي نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه وأنّ آدم سُمّي آدم لأنّه حُذِي من أديم الأرض“

طيب، لكن كيف حُذِي من هذا الأديم وماذا عن تفاصيل العملية؟

لا شيء تقريبا باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول في بعض كتاباته إن الخالق لمّا أراد خلق آدم أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين ليسويّه. لكن إبليس

خاف أن يأخذ المخلوق الجديد مكانه، فاعتتم لحظة سهو الملائكة ليبول في المادة التي سيصنع منها الذي منه كل نقمة.

كأنّي هنا بعناة الملحدين ينفجرون بضحك الاستهزاء. ليكن واضحا لديهم أنني لن أسمح لهم بالسخرية من واحد من كبار مؤرخينا حَبَّرَ آلاف الصفحات في المواضيع التي يعرف وحتى التي لا يعرف. سأضيف كذلك على الماشي ودون إطالة، أن مسارعتهم بالإنكار والاستنكار أصدق دليل على أن الرجل أصاب كيد حقيقة كانوا يفضلون أن تبقى في طَيِّ الكتمان. ما يؤسفني شخصيا أن مؤرخنا الكبير لم يقل كل الحقيقة من باب الرفق بمعنويات بني جنسه. حقًا لم أحضر الواقعة، لكن مصادر عدة -لا يسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية- أكدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مئانته في الطين الذي تشكلنا منه، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه لأنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ ففعل الفعلة الشنيعة التي لن أتبحر في وصفها. أمام هذا المشهد لم تستطع الملائكة منع نفسها من الصق في العجينة التي سيسوى منها الأدميون. ثم تستغرب بعد هذا أن تكون الطبيعة البشرية، عموما وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا، على ما هي علي.

-

يأتيك من تواصل المواجهة مع الذي منه كل نقمة وتجددها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيات. هو كتلك النباتات المضرّة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوّقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

لا جدوى للغضب والضغينة. لنحاول كما يفعل الأدميون دوما تبرير ما لا تبرير له وإضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتهين، أن غيابها كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوئد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم وننتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

ما الحلّ؟ تنظيم مظاهرة عارمة لمطالبة القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو أن تسحب الشرير الأعظم من سيناريوهاتنا الخبيثة.

بالتبع الطلب غير منطقي أصلا. كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء في عالمنا هذا إلا بنقيضه. من أين لك معرفة محبيك إن لم ترصد الذين يبغضونك؟

الدليل على رفض شامل لمثل هذه الحجة الدامغة حضورُ مظاهرتي كل بشر الحاضر، بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد.

أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا الذي منه كل نقمة، فتردد البشرية ورائي بحقد عارم: لا، لا، لا.

بدايةً موقفةً لأكبر مظاهرة في التاريخ سنُذّر القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا السيرك بضرورة الإسراع في الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذُ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاطر والهتاف منقطع وأصواتٌ نشارٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين!

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يستق مطالبه ويصقّ حساباته مع مَنْ يدّعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.

لأتوجه إلى الحشود مخاطباً العقل والضمير وحسّ المصلحة العامة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورسّ الصفوف.

تتعالى بعض أصوات الاستحسان فالسبّ والصفير بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل طامح للقيادة: مَنْ قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشار في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صحت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. أه يسكون بخناقي يريدون التثبيت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضاً. إن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كميّة الشحم واللحم التي سيوفرونها للدود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سمادا للأعشاب والنبات.

أه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كميّة المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّم زهرة ولن يصيب دودة بإسهال.

-

تنتهي طال الزمان أو قصر لاستنتاج واحد: المنقذ الوحيد من الذي منه كل نقمة... الموت. آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائياً تحمّل مراسيم الجنّازة.

هي عند الأدميين كالختان والزواج: مناسبة لملاقة الأعراف الذين فرّق بينهم الزمان، فرصة لتبادل الأخبار والنكت ولإتمام الصفقات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت.

يكفي أن أنصوّر كيف سيكون موكب جنازتي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف. يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كأنني أسمعهم يتهامون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاح، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفاقي أن يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة... ثم خاتمة كل المنافقين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".

حقا ثمة قلة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

في يوم وفاتي عندما يسرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ أني متألّم لفراق هذا العالم

فلا تنك من أجلي ولا تقل وأسفاه، وأسفاه

فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف

وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق

فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي

وحين أودع القبر لا تقل الوداع

فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

لعنات الحقارين الصامتة وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعاً في أدمي؟ الرائحة! من سيتضايق إذا رُميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تقلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد

والكرم. أفحمتني. "ماشى" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبيرا

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لآخر اعتداء. من قال أكبر الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصيّد؟ نسّي الشقيّ خطبة التائبين.

ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو فم الميت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطائه وهو حيّ أصغر حبة منه.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميت دفنه. نعم وبصمت. وحده الوجد الصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عدا مسرحية عديمة الذوق.

لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّا، بالتنقيص من قدرك، ويكذبون عليك ميتا بالزيادة فيه. إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خطبكم الرثانة على حافة قبري لرميتكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانتقلبت عفريتا يأتي ليايكم بأفطع الكوابيس.

ولأنني لما انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه يمدحني بخصالي المرتقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخالة وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثالث نساء آخر: تفاحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحبّ لم أستحقه يوما.

ثُهل على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين تعتصر عبثا من مآق جافة دموع التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفق سيل الحياة، نهر جبار عاتٍ أت من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ.

ميت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدرت لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

كم أخطأوا في حقي: الذين بالغوا في كرههم لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم تفانصي وعبوبي... كان لي ككل الأدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي... كان لي بعض الزلات تغفرها لي حسناتي...

لم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك... لكن قدر الأدمي أن يكون صورته في مرآة من يخبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحهُ وحتى صورته في مرآة ذاته... أما من له هذه الصور المتباينة في كم من مرايا فثبه مجهول للآخرين ولنفسه أولاً.

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد، أنت الذي يعرف محو الخطي، امح كل أثاري حتى لا يواصلون وأنا ميت منذ قرون ملاحقتي بالسبّ والشتم.

على الشاهد أريد أن يكتب هايكو ایسا أعدت صياغته بما يرضيني ولا يغضبه.

أخيراً نجوت منكم

والآن تعال يا صرصار

غنّ على قبيري

يكمل الخيال بقية القصة. تتواصل المشاهد أستيق الأحداث وأحاول تصور بعض سيناريواتها.

ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاء إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتني التامة لفكرة خلق كائن مثل الذي منه كل نقمة ورفض لكل التبريرات المنطقية.

أتسمّر مذهولاً وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج السيناريو المدعو جبريل وهو ينقل البصر تباعاً من وجهي إلى ملف غليظ، ومن الملف الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا ملفي وهو بداهة زاهر ثقيل. بماذا؟ أه، بشكاوى الأطفال الذين تفوقت وتكبرت عليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وفح... بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عفرت أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعنهم تهكما وتحقيراً... بشكاوى كل الأعداء الذين لم يسلموا مني الأحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق البيضاء.

أه، ماذا أيضاً؟ شكاوى الأعشاب التي اجتنثت أو دُست غير عابئ بماذا أجتثت أو على ماذا أمشي... شكاوى الفران التي سممت صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلاً خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع... شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءه طبخها... شكاوى شعوب النمل التي لاحقها في الحديقة بخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكاً، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نقمة لكل هذا الكم من الأدميين التعساء، بل وكنت أيضاً غولاً وعتيئة لِمَا لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

أو كيف أنه لا معين لك على أهوال الطريق سواهم

يُدقّ الباب بقوة وإلحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي.

أيكون الشقيق الذي رافقتي طوال الرحلة وكان صديقاً أكثر مما كان أخاً؟

لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجانبني محامياً في كل القضايا الملفقة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدارت لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب.

يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهناً بسلامتي. يلقي بنظرة مطولة حوله متعجباً من خلوّ البيت تقريباً من كل أثاث لا يعرف أنه سُرِق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفة حَبّي للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفّتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليُعلم الجميع، مع مَنْ يقف وأي قضية اختار لا يأبه بما سيدفعونه من باهظ الثمن.

قال شاعر عرّيف بطبائع البشر أو هكذا بظنّ:

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا (أبو العتاهية)

يُعظّمون أخا الدنيا وإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

صحيح، لكن ثمة استثناءات للقاعدة وهذا الرجل أكبر دليل.

أمازح الصديق أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسيتان.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحني. أخذوني إلى بيتي في سيارة عادية. داخلها بادرنى أحدهم: تظنوننا وحوشاً؟، ماذا تريدون؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

واصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركتَ فيها؟ التي حصلتَ أمام مقرّكم؟ طالّبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسك أحد بأدّى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟ كان الصوت مختنقاً وكأنه يغالب عبرة صامتة. قلت لا ماذا فعلت. قال فتحتَ الفحبة بنت الكلب التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعبها المقرّر لا يكفّ عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني. تلك اللحظة تدافعت إلى

الذاكرة صورة "با" ويده على خذّه يوم خرج من مكتب الضابط الأجنبي لم يخدم غضبه بعد عقود من صفة قد تكون سبب الصداق المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه أي دواء. دون وعي ارتفعت يدي مرّرتها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجف منذ شهور وقلت للرجل عفوا أخي، وقبّل صغارك من طرفي.

كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا للبعض (فرناندو بيسوا)
بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير

المضحك المبكي في هذه الخصومات والمعارك التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الفاعلين فيها يعتقدون أنفسهم أختيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة... تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أختيار-أشرار وأشرار-أختيار، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الفريسة لهم وحدهم... والأدمي على الدوام كذاب مفترى عليه، سارق مسروق، ضحية وجلاد...

يطفئ الرجل الطيب سيجارته المغروسة طول الوقت بين شفثيه ثم يتوجه إليّ وكأن به شيء من التردّد.

-آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

ما الذي يحبك في هذه السياسة اللعينة ولماذا تهتمّ بها أصلا ولك ميدانك الواسع الذي تستطيع التألّق فيه ونفع البلاد والعباد بدل من هذه الوساخة التي تغرق فيها كل يوم أكثر فأكثر؟

-أنا أحبّ السياسة! لا أكره إلا هي. أنا أهتمّ بها! هي التي تهتمّ بي، لم تتركني لحظة بسلام منذ طفولتي. المشكلة مع السياسة أنه بإمكانك تجاهلها لكنها هي لا تتجاهلك ومحاولة الإفلات منها بعثت محاولة الإفلات من قوانين الفيزياء التي تتحكم في حركاتك وسكناتك أحببت أم كرهت، وعيت بالأمر أم لم تع.

كلام جميل، لكن السياسة في آخر المطاف صراع مصالح ونرجسيات بين فيلة يذهب ضحيتها صغار الفئران المدعوسين بين قوانينها.

-السياسة مدرستان أساسيتان مع كل إمكانيات المزج والتناوب . الأولى هي التي نظر لها مكيفال ويمارسها كل المعجبين به.إنها المدرسة التي تعتبر السلطة هدفا للتمتع بكل ما توفره من منافع شخصية ويجب للتمكن منها والمحافظة عليها أطول وقت استعمال كل الأساليب من ادعاء خدمة الصالح العام إلى الخداع والكذب والفساد والخيانة والغدر والقتل. نموذجاً هذا الدكتاتور الحقيق الذي يحكمنا. على الطرف النقيض هناك المدرسة التي تعتبر السلطة وسيلة لتحقيق المصلحة الجماعية في إطار منظومة القوانين والقيم ومن ثم تمارس كوظيفة لا كامتياز وتترك دون

- على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. مما يقال همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطبّ الشيعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعداء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.

- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مراودة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في آن واحد قلّة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها باكية لأن كل من توجهت إليهم من زملاء الأعداء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمن الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيبتُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تندر في كامل الكلية.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جأهم يعانون من كم هائل من الامتحانات والمحن... أن أخطاءهم وخطاياهم أغلب الوقت ربود فعل قليلة الفعالية على عالم يعيب بهم عبث القَطِّ بالفأر!

شيء ما تحركّ داخلي يأمر بمدّ يد العون لأدمي سبّح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلا، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوتٍ مثل كل من ابتلاه الله بما ابتليت به من مصير. قلتُ لها هذا موضوعٌ سهل، جمعنا له كلّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدثُ أرمي أول مسوّد في وجهها. تمالكثُ أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعتراضتكم يوما تبيع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يُسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأتجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلّفين آخرين قد ينتبهون للخديعة وينسببون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحدٌ.

أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيل بنات حواء. يومها كُنت لنفسي الثناء ولم أقصّر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغيّر وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة.

كنت أغلب نفسي من الضحك من نفسي وأنا ألاحظ للفتاة بمنتهى الجدية كم تحسنت لغة الاطروحات في هذه الكلية التعيسة ويا لهذه اللغة الرائعة في أطروحتها وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأناقة لغة الأدب.

كل هذا الكلام وبلغة أجنبية أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئا. بعد نهاية “النقاش” مع مساعدتي المجاهدين للحفاظ على جديتهم وبعد التداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحفّ بنا وقار العلماء لنعلم الفتاة أن رسالتها قُبِلت بعلامة مشرف.

لما أتمت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعثم، همستُ في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعنيني في شيء، كل ما يهمني احترام قسمها لي بالأ تلمس أبدا مريضا والأ تغيّر من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقّف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرا. لحظة سعادة صرف. يومها قرّرت أن أغفر لنفسي كل ما تقدم وتأخر من ذنوبي على الأقل إلى نهاية السنة الجامعية.

تتهدّ الرجل الطبيب وقال:

-نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر، على فكرة شقيقك يشتكى أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع “كابو” مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير بهدوء عما يقدر عليه الأدمي في أروع حالاته تجاه كل ما يحفل به العالم من كائنات.

يعود إلى الذاكرة نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق.

ليلتها قلت لها وأنا أعبث بعود أقلب به جمر النار التي تجمّعنا حولها لسهرة الوداع.

- صحيح، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقصدون فيها الفئران، عن الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة

الخدمات، عن وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حدب وصوب لياكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي الدير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي: أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشى والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسى من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي. قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد مويبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف ووصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فاسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل آدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمال. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الأدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قيس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصور.

عما يقدر عليه الأدمي الذي يحبك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة، حدثني جدي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميتة، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلت الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجبٌ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفياقي القاحلة التي تفصل بين أرضٍ يهْرَبون منها اسمها المكسيك وأرضٍ يهْرَبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأهواله: غُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في ذلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكرّ قطاع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماوت جوعا ويردا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! ثرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أية لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي محبّة لبيني جلده وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ذاته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

إن أردنا رصد نقطة الفصل والافتراق بين الأدمي وهو في حالة الذي منه كل نقمة والأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة فهي دون شك ظاهرة لا أخطر منها في تشكل المجتمعات والديانات والسياسات: تقديم الأضحاي للقوى المبهمة التي تتحكم في مصائرنا.

في حالته الأولى هو الأدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرابين على معبد السلطة قمعا وحربا ليحفظ سلطانه وحياته هو.

وفي حالته الثانية هو الأدمي الذي يقدّم عنقه للذبح طائعا قربانا لآلهة القبيلة حتى تواصل بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعا عن حق الآخرين في الحياة.

القاعدة أن قدرة البذل والعطاء عند الذي منه كل نعمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو مزمّنة. في أسفل درجات السلم هو الفقير الذي يوجد بما عنده... في أعلاها هو محرّر الملايين من المرض والجوع والظلم. هو حامي وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الأدمي انسانا.

على أي حال كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة. في شكله الجماعي هو المربي والطبيب والبانّي لكل ما يسهل عليك العيش. في شكله الفردي هو الصديق الصدوق الذي يرافقك على الطريق يُعينك على أحواله وأحواله. هو الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُخرجك من رمال متحرّكة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفرع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند سفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بَدَلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتكئ على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاخك في يدك برورّ الذئاب، الذي يتغاضى عن واضح خَوْفك ليعكس لك صورة صنيدي لا يخشى ما يترصد به من ذئاب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته،

الذي لا يفعل سَمَاعك وإنما يُنصت إليك حقًا، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهبه نجاحك ويكيه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ماء، الذي يُؤوي ذكراك في قلبه تُواصل داخله أغرب أصناف الوجود.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع البحر.

أن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب.

فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي. تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سأفتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمة وعيونٍ يتطاير منها شرار البغض. ثم تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربّت يد المجهول على ظهري بضربات المواسة والتشجيع. يضيع الرجل في الظلام، لا يترك لي الوقت للتمعّن في ملامحه.

إنّه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه. صدّقتهم صراخي في وجوهكم بسببٍ وبدون سبب! مجرد ردة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلّته التأتأة. مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روحي لمن رهن روحه عند الشيطان، بوركتكم، بوركتكم، بوركتكم جميعا.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتّخذها العالم عندما يتكفّل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الحجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

**

أو كيف أن الذات لا تكتمل إلا بالذوبان في ذات أخرى

أصخّ السمعَ لما يتعالى من أغاني الأدميين وستكتشف أن موضوعها المفضل الأدمي الذي ترسم له أروع اللوحات، الذي تولّف لأجله أجمل الموسيقى، الذي لا يتوقف الشعر عن التعلّز به. كيف لا وهو الذي تجرب معه الذات أروع حالات الوجود. تعود "ح" لحديث منقطع ونحن نتوجّه للبيت عبر شوارع المدينة الصاخبة.

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطارات بحثًا عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استفزازا رخيصا.

- استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثورات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجذع الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كان نننا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقرية والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّبون على الخنازير وقد عبرتم جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا تتضوعون أقطع الروائح ثم تدّعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

- أه، يا عدوّ البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقبؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقه عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقه رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا قما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة. من المؤكّد أن هذا سبب ولع الأدميين والإناث منهم على وجه الخصوص

بالبخور والعمور يدفعون فيها من قديم الزمان أغلى ثمن للتغطية على ما يخفون من روائح كريهة؟

- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضدّ أن تعود لصمتك المعتاد.

تهزني "ح" من كتفي:

- عد إلى شريطة أن تكفّ عن السخرية من كل شيء والباقي.

- لا بل أنت من ستكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.

- حتى ولو شتمتك على طول الطريق.

- كل ما تريدن. أنا بصدد تذكّر أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين أول آلو، يوم اتصلتُ بقسمك بخصوص مريض حوّله لي ممرضتك دون ملقه؟

يومها قلت لنفسي يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمان صنعا؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟

يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليال، وبجانبي دفتر صغير أدون فيه ما يوحي إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

-آه أفضل أن تحادثني هكذا، لم تعازلني منذ مدة، أحيانا أتساءل هل تفتقدني حقاً عندما أغيب

- طبعاً افتقدك أكثر مما تتصورين. البارحة مثلاً. كنت عند طبيب الأسنان وكان المسكين جاثماً فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل بين غرغرتين لا تأخذ في خاطرك ولا تغضب مني وتعرف كل معزتك عندي لكنني لا أدري لماذا أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.

تضحك "ح" إلى ان يأتئها السعال.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي أتهم بادّعاء النبوة، لأن "أعز مكان في الدنى" لا سرج ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

للولصول إلى هذه اللحظة التي تتمازج فيها الذاتان لا بدّ من طقوس معقدة لا مناص منها. من يتجاسر على الالتحام بالذات القدوس دون المرور بأكثر الطقوس تهبياً وإجلالاً.

تحقّق الذات في الوجه الآخر فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس.

أيّ أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال

إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيراً بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.
تهمس "ح":

- سنترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عز الصيف.
ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنع:
- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تعبير الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنجتين.

وفي جسدي تبحثن عن الهضبة (أوكتافيو باز)
وعن شمسها المدفونة في الغاب
وفي جسدي أبحث

عن المركب وسط اللبلة الضائعة

أخيراً يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقاً لا لبس فيه.

- هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟
- نعم!!

- انتبهى.

اتحد المعشوق بالعاشق
ابتسم الموموق للوالمق (الحلاج)
واشترك الشكلمان في حالة
فامتحقا في العالم الماحق

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويت.

- رويت.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيداً. تصله فتتألفك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك الأخير. كأن بالذات ثغرة لا تسد إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة ان حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حاجتها الماسة إليك.

تستيقظ "ح" من اغفاء عابرة.

- تغني! بماذا تهمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخم اسمه الراديو.

نعم، يا ليلت هذا الليل لا ينتهي أبداً، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، ننعّم بالدفع بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وثرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- والآن ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع المحبوب لكنه فضّل الصمت؟
آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"

- نم الآن، واطركني أنام. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قيل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى يضعف الترجمة:

يا معشر العشاق ما البشرى قد ظفرت كفيّ بمن أهوى (أبو العتاهية)

ضممت كفيّ على درة لا شركة فيها ولا دعوى

لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

-تواصل مغازلتني! إنها ليلة حافلة بكل المفاجئات. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك غدا.

على تخوم عالم اليقظة وعالم النوم وأنا أحضن "ح" يصرخ فيّ وفي أشباح خانقة كائن من نار ونور. "تحلقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم. لما وضعتُ أمامي على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكانها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أيّ ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلاً؟ يوماً وضعت أدقّ أجهزتي أتحنس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهلول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكّد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكثف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أيّ إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدتُ الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل.

إذن نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من ألقمني علقماً. فتحتُ الكائن لدراسةٍ مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّناً من

جزأين ألسقا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تقريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفضل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تُجدِ نفعا. أخيرا رقصتُ طربا وأجهزة تحسس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلِّ نصف مبتور حتى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما عن اللقاء، وإن تمَّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس."

الأدميون كائنات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا تجربة الحب ونحن كائنات محكوم عليها بالجري الدائم وراء ذات مكملة لأن وجودنا إلا يكتمل إلا بوجودها!

**

ما نتعلّمه عنهم أين تتعرّى أجسادهم

تفتح "ح" فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- علبه ليلية!

أهزّ الكتفين

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض "الستربيتيز" ولا شيء آخر.

تقطّب "ح" الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- سأتحمّل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية الخ الخ.

لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث؟! وعلبة عري!؟

- نعم أريد أن نسهر هذه الليلة في أخطر أحياء هذه المدينة، في أفقر أزقتها، في أحقر علبه ليلية فيها. أي قيمة لشهادتي عن الأدميين إن اغفلت بشرية الليل من مومسات وقوادين وسكارى ومشردين وتجار مخدرات وضحاياهم. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاوننا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيّقة عائمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيفتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشادة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار قدر لتحتل ركحا بحجم طاولة صغيرة.

أنت تزجي ردفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل (ابن هاني)

تنفجر "ح" ضاحكة:

- تعنّي! أنت! أظنّ أنّي مُقدمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تحذرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.

- إنها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتنتى. رددي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كفي عن إصااق التهم المشينة بالخنازير.

تبدأ "الفنانة" في اللثني وهي ترسم على شفثيها ابتسامة مهنية تستنشت من ورائها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكنملة النضج.

هذا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياها ابتسامة النصر؟

- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها. وفي كل الحالات لا أخشى شيئا قدر التورط مع النساء الجميلات. ألم تسمعي بالمثل الإفريقي: "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارعة الطريق".

- شكرا على كل هذا التغزل بي.

تعرض عني "ح" لا أدري هل هي حقا غاضبة فعلا أم تفتعل الغضب.

كل انتباهي مركز المرأة التي على الركح لا التي بجانبني.

تشرع "الفنانة" في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد فقط للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصيد: تحت الغلاف جوهر النصف. يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأنني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تتهرني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها.

ثمة هذا الرقص من قبل هذه المبتدئة وثمة الذي تفغر فمك أمامه وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهندية تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسينا.

تهمس فيّ "ح".

- وتسمي هذا رقصا!

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر. تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يشير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات تعجب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا لهتك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقاً؟ من قال إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أنّ اللعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ... ألا تعلم ما يعتمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظار، سالب للعقول؟ ..كأني أسمعها تهمس للمشاهدين انظروا، تأملوا، سبجوا... هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الأدمي للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهدًا وتجميلًا منذ أولى خطواته على الطريق؟

يرمى البنطلون بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التنثني على أنغام موسيقى عاهرة. المأدبة أمام الجائعين ولا مجال للإمساك بما تعد. تنفجر شتيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتنني في الوجه. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل تصفحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟ ثم تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراقبون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون ونظارة هانجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مخدر ما.

هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات الانتظار الشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفة ويلعبون أدواراً أقل تكلفاً.

تهمس "ح" وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظارتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الافتعال والتكأف عند بعضهنّ.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أظفري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهانجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى "جوردانس". تضع الفنّانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذيه، أكان ذكراً أم أنثى. يحتدّ الصراخ المتعالي من كل مكان.

يا ترى كم من هؤلاء النظارة الهائجين بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخلابية؟ ... هل داهمتهم هم أيضا صورة نظارتني بُعد وقُرب وُضعتنا على العينين التي كان بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم... على من يتهكمون؟ ... هل شتائمهم موجهة إلى المرأة أم للذي يرهل ويمزق ويكلس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كنييا؟ ... هل هذه اللعبة الليلية الحقيرة محراب تتعب فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع؟ ... أتراني في كنيسة يتمّ فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العبادة والكفر، التقديس والتدنيس، خشوع الصلاة وعربة السكر؟

تهمس "ح" في أذني: كأنك كئيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضرني بحداثها وهو يكعب عال مذّيب.

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجولة سترمي يوما لقمّة سائغة للدود.

- انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفْتُ هذه الليلة وجهك المخفيّ. يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتّى لا تقوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمّر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعنمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدّق أنّها ستتجاسر، لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

من الأحسن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه!!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أنّ تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة، لا أظنّ ما سيخرج حتى من هذه الحسناء يعبق برائحة الفلّ والياسمين.

تواصل "ح" الضحك داخل السيارة ونحن نشقّ طريقنا نحو البيت. ثم تتوقف لتصرخ فيّ تفتعل الغضب.

- على فكرة لا تقل لي إنك تريد العودة لمثل هذه اللعبة الحقيرة التي جررتني إليها الليلة.

- لمواصله أبحاثي هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمنعي في الذهاب إليها كما لا خشية لأن تلتقط لي صورة على أبوابها...إنها الأماكن التي تتعري فيها النفوس والأمر كما تعرفين لا يقل إثارة عن تعرية الأجساد.

**

الممثلون

ليس من باب الصدفة أن أول من علم الأدميين بناء المسارح-في تصورات الهندوس-رب اسمهم فاكسمان، أن مدرّبهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وكانت أسنادة الرقص الرّبّية بارفاتي، وأن براهما إله الآلهة لا غير هو أول من علم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني فكرة ترك نعلّي عند الباب ولا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد لكن المسارح بلا شك أو جدل من أهمّ الأماكن لتفحص الأدميين...ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها.

يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طبقت شهرتها الأفاق لعبقري لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أغرق في المقعد الوثير متنفسا الصعداء أرهقني طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة مبتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيّدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فاتضح من احصائيات تبو جدية أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقضي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال) و... ستة أشهر في المراحيض.

تبّا لهكذا برنامج. أفضل نسيان هذه الأرقام والتركيز على الكتيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن توقيت السهرة والفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج.

ثرى هل بوسع هذا الأخير أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

آه، لو ترك للمثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

آه، لو ترك للنظارة حقّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهّم أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصقّ صارخا يرافو هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا تضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

أجيل البصر حوالي على أقصى قدر ممكن من الانتباه.
تنظفي الأضواء تدريجياً.

يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسميه “الواقع”.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعاً للتمعن فيها.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعاً أن أما فاق كل حدود التحمل يمزق روحه.

- “في نومي وبيد شقيق! انزعت مني في مرة واحدة الحياة والتأج والزوجة. يا للفضاعة!

يئن شبح الملك المقتول يستنهض همة ابنه يحفز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنس بالفسق والزنا اللعين”.

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب ابن أخيه وهو متزايد القلق. هل فهم أنه قاتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فوقها جريمة؟

لوضع النقط على الحروف وتسمية الأشياء بمسمياتها لنقل أننا أمام جريمة تصفها البلاغة بالنكراء والجريمة خاصة يتميز بها الأدميون عن بقية الكائنات التي لا تقتل ولا تسرق إلا لضروريات البقاء. أما الأدميون فيقتلون ويسرقون للتمتع بالكماليات، للتسلط على الآخرين، للانتقام، لإثبات الذات، للرياضة وحتى دون أدنى سبب.

هذه الجريمة التي هي عقدة المسرحية تسمى جريمة دولة أي أنها ما يرتكبه حماة القانون من انتهاك للقانون وهم في مأمن من تتبع القانون.

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلاً واحدة... القاعدة صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور... لا نذكرى لصغار المجرمين إلا في ملفات المحاكم أما كبار المجرمين فذكراهم محفوظة في كتب التاريخ... صغار المجرمين للسب واللعن، كبار المجرمين لعبادة الجماهير الغبية.

المسرحية أيضاً عن خاصية أخرى يتميز بها الأدميون وهي نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأدميين تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد ماله الانتهاك عاجلاً أو آجلاً. لذلك هم دوماً بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عبثاً.

يتوجّه الملك المجرم إلى هاملت خائفاً متودّداً، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- “إنه جميل ومحَبَّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاهه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقد أبا وكذلك والده، ومهمة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوة في الأسى، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فعناداً كأنه الكفر”.

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مزّق عهدا مقدسا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، متكئا السداجة، قصة تخلص إيطالي اسمه كونزاجو من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسّم مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أي نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبّط فيه، ومن أيّ مصباح سيّشع؟

ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحتّ بولينْيوس على أن يصدّقها القولَ بخصوص تغيّر طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادة وأقلّ بلاغة".

- "يا سيّدتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأسة".

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذني. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يوصل الملك افتعال السداجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثٌ والده؟

يستحيل الصبرُ على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكرهه عند الأدميين.

ها أنا وقد أصبحت أتحرّك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والآن

تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوّج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو مُعارض وككل المعارضين للسلطة بقلبه مرض.

يعرض عنيّ الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمّ. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأعنتم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملّقي بخصوص سنّ السلطات العليا زاحرٌ، ولا تُضيرني قضية إضافية.

- كيف لا يُجَنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قَتَلت والدَه وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يَلْعَن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مقتعل: يا رجل كَفَّ عَنَّا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنك تشوِّش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.

يا خيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبتة الطاهرة. كأنهما طَعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هبّ لنصرتهما. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللئيم ويتمردون على كلّ كريم مُذُوجدوا.

أجبلُ البصرِ حولي أقيّم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عنيّ إذا نشبت معركة عامّة بين النظارة والممثلين. أفاجأ بهدوء جيراني، ذلك لأنّ أطوار المشادة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجرّوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكوّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثلون وراء الستار تحت وابلٍ من التصفيق.

غريب والله أمر هؤلاء الناس. يصفّقون للمرأة وهي ترجع لهم أبشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدرّون عليه من جشع ونفاق وكذب وخيانة وغدر! *بديهى أن هذا المسرح مكان لتشريح النفوس كما هناك أقسام في المستشفيات لتشريح الأجساد.*

يعتبر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفت إليه باسمًا متأدّبًا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أخا وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الإنتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يَفْتَح برنامج السهرة يُشعُرني أنه لا يتّوي فتح نقاش مع غريب مشبوّه.

مَن قال له إنني لا أنوي الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟ بالمناسبة، مَن هو مؤلّف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أية قاعة لقضاء السهرة. لَمَّا رأيت طول الطابور قلت لنفسي: لا بدّ أنه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكوراً باسم مؤلّف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدّق في الفراغ مُطوّلاً.

- فعلاً سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرت هذه المدينة شخصياً، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداً فيضان لا يُصدّق أغرق كل شوارعها في وديان من الماء. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفانتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم!

- (باحترار دون مساحيق) شكسبير ليس إيطالياً "مون بون مسيو".

- صحيح ما أغباني، إنّه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار) ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي "مون بون مسيو"

- ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز...الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرهقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون" ... بصراحة أفضل أبطال تشيكوف ومشاغلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الدانتشا الأيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريباً دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة نظنّ أنّه جالس؟

يحدّق في الرجل بذهول. لا شكّ أنّه قرّر أن يرويّ الطرفّة، واختار من سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيكرّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادراً على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحظوظ يعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول

هُويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بنكره الركبان أم أرسنقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرفة؟ ... هل يعلم أن مقاطع كثيرة كتبها المؤلف، أسقطت من النصّ وأخرى تُصَرَّف فيها الناشر دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسناً أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون بـ “هابي أند”، وأنّ مُراجعة النصوص وتزيينها قاعدة لم تسلم منها حتى، بل قلّ خاصة، تلك التي تُرثِّل في المعابد؟ ... المسرح في آخر المطاف مكان نستطيع فيه وضع اسمٍ على المؤلف وتوهّم معرفة مقاصده نعوض سحرًا جهلنا بكتاب السيناريو الكبير الذي ألف مسرحية بحجم عالم باسره.

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع! بل هذه فرصة للانتباه لما لا أعيّره عادة كثير اهتمام.

-

ما الذي يمكن تسجيله في دفترتي الصغير عن النظارة وهم يتدافعون نحو المشرب لتنتطق الألسن بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟ لا شيء غير مواصلة نفس المواضيع التي كانت تشغلهم وهم يتابعون المسرحية أي مشاكلهم وخصوماتهم مع بعضهم البعض.

هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسن الحروب والانتقالات والإرهاب والشجار على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرققة والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيليات تُعرّف بالمحامين والقضاة وكتبة المحاكم والسجانين ومُروّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال سواء في الروايات البوليسية الهابطة أو في المسرحيات التي تدعي العمق فالإشكاليات المقرفة هي دوماً نفس الإشكاليات المقرفة أي من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من ومن غدر بمن ومن سرق مملكة من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشارع، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهمك والسب والشتم والإدانة والتهديد.

يقال إنهم يواصلون خصوماتهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: “وأشارت (الدراسة) إلى أن التلمل احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسيية لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة.”

اللعنة! اللعنة! أضجرتموني بخصوماتكم العبيثة، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين... كَفُوا عن خصوماتكم بخصوص مَنْ ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ من دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجر بالحكم ومن الأقدَر على ممارسته... كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرفة... ماذا؟ استجيتم لدعائي! صدقتموني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تمّعت بلذة الخصام؟

موضوعهم الثاني في المشرب صدى لما كانوا يسمعون من الممثلين الشكوى من ظروف الرحلة، من "عزّ مضي، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدّى غلت صيحاتهم، من كفت ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغماً ويغادرها مكرهاً".

اللعنة من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قدّمنا حياة أعطتنا دون تقدير اللمس والشم والسمع والذوق والبصر؟ ... ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟ ... ما الذي قدّمنا لكل من أعطونا دون منّ قصائدهم وموسيقاهم وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت؟

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افعال الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

تركض أوفيليا في أروقة القصر تنتم مرة لنفسها ومرة تولول فقدت المسكينة عقلها. - "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نونّي هاي نونّي، وعلى قبره تهاطل المطر دمواعا"!!!

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يارب؟!

المسكين! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهमे استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البريئة وكلوديوس القادر على موبقات يحمّر منها وجه ابليس.

لا يهمنّا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شانك سنعود له لاحقاً. المهمّة صرخة لارتس وكيف أنها تختزل أهمّ ما في هذه المسرحية أي ما يعانیه الأدمي من آلام طوال الرحلة.

تتفحص المسرحية بكثير من الدقة عيّنات من هذه الآلام وخاصة أسبابها الخفية. انظر آلام الملك القليل. هو ظنّ نفسه بمأمن من قانون أنّ كل الغنائم مكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. مما يزيد في الوجدان طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وببدي شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعاً أنه لو قُتل بطلاً في حرب مقدّسة لهان الموتُ أمّا أن يُسلب الحياة خيانةً وببدي شقيق فلا ثمّ لا.

تمعنّ في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوماً لنفقدّه يوماً آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عبّرت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ في هذه الحياة حرام ديناً أو محظور قانوناً أو يزيد في الوزن.

قراءة تكميلية لموضوع كوننا على الدوام كائنات مَوْجُوعَة مُوجِعَة.

لنتصوّر عالمنا مبنياً على شكل عمارة وسكانها موزعون على طوابقها حسب ما شاءت طاولة القمار.

القاعدة الأولى: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُستبطن باكراً من قِبَل الجميع أنّ حدة الآلام تخفّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحلل في العليا وهيكّل الآلام الذي غطّي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد. ما أسخفه من صراع أخذ جُلّ وقت رحلتي، والرهان "التمنّع" بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البناية.

القاعدة الثانية: يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوّقة في الدهايز بنفس الآليات وإن اختلفت الظروف والرهانات.

فقدر الأدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة التي يريد ويريد المجد الذي يريد ويريد الثروة التي يريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسى على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه العيب الهيكل في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسةً.

اعتبر الصراع على السلطة. لا شيء يعرّفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكن منها.

كم من قصص يرويها التاريخ عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جريا وراء هذه السلطة اللعينة!

طبعاً للأمر دوافع لا أقوى منها. أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الأدمي الربّ في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟ داخل ملفّ أحداثه ما زالت تتشكل في رحم المستقبل، على مكتبي مطلب عفو لمحكوم بالإعدام. بجرة قلم سيوظف هذا الأدمي فجراً ليجرّ مرعوباً إلى المشنقة. وبجرة نفس القلم سيعود قادراً على النوم مجدداً وهو لا يتربص كل لحظة صرير الباب.

كما يمكن قياس المسافات بالأميال وقياس وزن المواد بالكيلوغرامات يمكن قياس وزن كمية السلطة التي يتمتع بها أدمي بعدد من يمكنهم من الحياة وبعدد من يتسبب في موتهم... من زاوية النظر هذه يمكن القول إن من عرف أقصى السلطة منذ بداية التاريخ هو أدمي اسمه أدولف هتلر المتسبب في موت أكثر من ستين مليون نسمة... لا يتفوق عليه في كمية السلطة المفعلّة إلا أدوارد جئّر المتسبب باكتشاف التلقيح في بقاء مئات الملايين على قيد الحياة.

وفي نفس الملفّ سأنهض من مكتبي والأزمة التي تعصف بالبلاد في أوجها أتأمل البحر وكأنتني أراه لأخر مرة. تتدافع في الذاكرة صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم صورة الملك الطيب الذي أعطاني "باب" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيداً عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموماً صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضاً ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت، صورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرج كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيداً منسياً. وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منفياً.

داخلَ ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لو عيه بتعاطف الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد من هذا المكان ملفوفاً في خرق قدرة تقيض بدمي. نعم للسلطة اغراء لا يقاوم ولها أيضاً ثمن فظيع رفض أكثر من أدمي حكيم دفعه.

عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب الى الغابات خوفاً من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحى به قرباناً للآلهة في أول جفاف أو طوفان.

عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائداً عسكرياً من المماليك وقع جرّه جزاً الى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيدبح قريباً والقتال بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة يوتر أعصابي؟ لم لا أعود إلى مضايقة جاري؟

أهمس في أذن الرجل الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يحب.

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيّتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

كيف البقاء مستبقظا؟

يجب إعادة كتابة المسرحية على ذوقي.

وفي فضاء خيالي يمسح أبو هاملت العرق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخرته على عرشه وبصدره وبيطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا.

يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات وييصق البزر على الجبران آخر همه ما يقوله الشقيّ.

- أه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، أه وآه وآهات!

يتوجه إليه روزنكراتز أو قيلدنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس مليا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!

يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين، أين قابيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى القلق.

ينتقّس الملك الصعداء مصليا للعدراء أن تزيد المعركة الرُّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجة ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تُخفي ضحكة الصبايا المغرّات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هاملت يتخيّب داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذَر وتُنَبّه؟ مَنْ يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأّتها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا له من غبيّ. بيّنّا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلاّ عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن تسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها!

ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض.

وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض الزهايمر وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائنا في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مللّك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل!

هل كل هذا الصخب لمجرد اعتصار كل ما تزخر به الذات من أحاسيس ومشاعر لا يهّم سرافها في اتجاه الخير أو الشر؟ أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يفتعلها الأدميون هي لمجرد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنبّه والمنشط؟

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيا فيليبيا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأن لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقات التي يَصْجُون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كآون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينفع فيها التهكم الأنيق. يجب دكّها دكّا بالسخرية الفظة فالأدمي ليس فقط هاملت ولارتس وكلوديوس وأوفيليا. هو أيضا هارجون، تارتوف، جوردان وأرقان الأدمي المضحك كما شرحه مبضع مسرحي عبقرى آخر اسمه موليار.

إذن تَدْخُل هاملتة تنتهي لأن الملك المقتول لم يجب إلا بنتا ضيعها صغيرة وحملها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقالييد القصة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضبيع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنون مرهقٍ ومُكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ.

يموت القاتلان فتنزّوج هاملتة في نفس الليلة صديقها أوفيليا.

تنويعة أخرى على نفس النعم.

تندلع مشادة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هاملت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمان، لم يجدني الدهر أهلا لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أَرْضَى بأقلّ من القتل وتحديثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا ستي لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة.

تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمته الكبرى ستهزأ من قصتها وستتججّ عليها بعمق الآمها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تعسا لقصص الأدميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ مأساوية وهزلية بنفس القدر.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، مَنْ أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا ترمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهّل يا هذا في شكك المزمّن في نواياي. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابلٌ للهزل وكل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

السخرية أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الصدق والزيف... قابلية الفكرة-أو الشخصية أو القضية أو العلاقة-للسخرية أصدق دليل على وجود عفن داخلها... كل ما هو قابل للسخرية لا بدّ أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمانيته من الفضح.

أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدّم الممثلون صفًا واحداً يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكفّ عن التصفيق بل وفيه من يرفع عقيرته يصرخ برفو، برفو.

يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلاً لعب دور الذواق اللبيب الذي يقدر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصقّق لأنه لم يفهم شيئاً من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار آدمي هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهو بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة دوز وصحرائها في الاتجاهات الأربع.

يشنّد دويّ التصفيق فتداهمني خشية أن يعيد الممثلون كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من اختصاص الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيداً من التصفيق. أخيراً يختفون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة

والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهيمه الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فمشكلته حُبُّ الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض الايدز الذي شَخَّص عنده مؤخرًا.

نفس الروائح والبداءات والهموم الصغيرة لو وضعتْ أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في طريقي إلى البيت تتدافع الأفكار وصوت ساخر لا يكفّ عن الهمس داخلي: أنتم الأدميون كائنات مضحكة في أحسن الأحوال مبكية في أسوأها وفي كلتي الحالتين لا مجال لحملكم على محمل الجدّ.

ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين وتحمل شكواهم منه من الأم هم أولى أسبابها! فهذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعا مثل آدمي اسمه صمويل بكت: أفضلوا أكثر فأكثر.

ربما لم نأتِ كلنا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحات بالغة الصِّعْر، فشل شهوات بالغة التفاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العبث.

كم نحن مثيرون للشفقة... أو للسخرية عندما يكون المزاج في أوج سوداويته!

ثلاث ساعات في هذا المسرح التعيس كان بوسعني استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: بما أن جلّ مسرحيات البشر عن فشلهم وآلام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد الممثلون بأنهم لن يندبوا بينت شفة إلى نهايتها مكتفين بالتحديق في النظارة. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا اكتفى المغنون بالابتسام والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم عن مآسي ومهازل الأدميين والثمن الذي يدفعون هو للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت.

**

المخرجون

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهدُ الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب-قُل عن ترويض-الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاء عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهذّب بغضب الله وكلك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجني من قمقمه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتصرّع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُذوّ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد.

يوصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر إثارة للسخرية. يصرخ فيها الرجل لا يخفي مله.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرّد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأت مؤشّراته تتجمّع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ إفاؤك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهان إنفاذه من لعنة أبدية. هذا تفسير نصّ. كآني أسمع النقاط التي تختم الجمل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.

قال أحدهم: المخرجون نوعان: من يريدون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة أنهم فعلا آلهة... ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه... أليس الربّ هو نفسه مخرجا مسرحيا... المخرج الأكبر؟

تبلغ المرأة ريقها: مجددا:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. و...

المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القط.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتمّ البتّة بمشاكلك الشخصية! ألفيرا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تكيّبات الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير الله. أين المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين!

أيّ غرابية في الأمر وأنت لا تتعرّض لاعتداء إلا وهو مرتبطٌ بخطئك في تأدية مقّطع من دورٍ في سيناريو ضبّطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمّح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للآدمي غير مواصلة تعلم الأدوات الإلجبارية وفي الظروف التي يقرّرها المخرج وحده.

يفتعل المرّوض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلتُ لك كم من مرّة ليس هكذا!

إنه تصرّف كل مَنْ يَعْمُونَا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا سلاححك على طول الطريق المرّبي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا".

بماذا يمتلئ فضاء الفكر؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاةٍ يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس هكذا التصرف، ليس هكذا الايمان!

يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة؛ ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! يتنهد مطوّلا، يمطّط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصببتني بالقرف والغثيان، ليس هكذا!

كلنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا!! تُرى هل أضفتُ شيئا لدور الابن والأب والحبيب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّق وهو يصرخ فيّ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟

كم صعبة هي هذه الأدوار التي نُجبر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظارة! كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر التمثيليات.

يحدّق فيّ كبير الشرطة السريّة طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحوّل اتجاه النظر:

- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أندرناك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجديّة.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ مَنْ يهددني!

لم يكن الرّجل المخيف يهدّد في الفراغ.

هذه المرة يبدو أنني تجاوزت ما يسمونها الخطوط الحمر. يصبّ البوليسي المكاف بدور البشع مخزونه من الشتائم ثم يمرّ لصلب الموضوع: قل لنا كل شيء. يحدّق فيّ زميله المكاف بدور الطيّب بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيра به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغييان لا يعرفان أنني لا أكفّ عن تقييم الأدوار التي يلاعيني إياها الناس، بحسّ الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ -يا للأسف- فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام.

ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلت تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلف بدور الطيب. مؤكِّد أن طرافة الوضعية جدت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمر لنصح بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه.

ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك العب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لست المكلف بدور المحرض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، ... يستشيط المخرج غضبا غير مقتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردد لك أن ما يعنيني الأُم ألفيرا لا الأُمك أنت، أعيدي، أعيدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتدئين؟

تتلثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يعود المخرج للصراخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة.

ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين نموذج واحد ومتفق عليه، كيف هو الهكذا ” وإنّما مقاييسُ تُنافس مقاييسَ ومقاييسُ تُسرّع لمقاييسَ هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّعها. ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرّبي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنّه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى

تهدأ المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت استراتيجية الطيبة. يجب العودة إلى دور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

همّ المخرج اعتصارُ أقصى الألم والرقة والحبّ والتهيبّ والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهذّب بالعقاب الإلهي. يجب أن يضجّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذه لا لشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرد علو نبرة أو تهدج صوت.

تعود المرأة لترديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار باكية

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكأف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.

- جنتك الليلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي،
لَكُمْ...

حَصَلَت المعجزة، معجزة التمثيل. تبَخَّرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات
أفيرا. تتدقق الكلمات بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو
يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خريبر. نعم ما أغرب هذه القدرة
التي تمكّن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص
شخصيته كما لو كان الأمرُ بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت
لدخول آخر!

يخرج المخرج من حالة التقمص العجيبة هذه لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى
الممثلة المنبهرة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب،
لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!
ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيك من، أو ماذا؟

ثمة الممثل بمفهوم المسرح والممثل بمفهوم الدبلوماسية... قد نمثل بالمعنيين
لللمة... إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، يكون السؤال لماذا حكم على الأدمي
بأن يمثّل أدوارا ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها؟... إذا اعتبرنا المعنى
الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثل والذي يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق
فيينا هو الكامن داخلنا من بداية الرحلة لنهائيتها؟

**

الأدوار

المخرج الآن آدمي اسمه زي.أمي. ترى ما الذي سيضيف لكل من حاولوا فهم من نكون ولماذا هذه الحالة المضحة المبكية التي نحن عليها؟

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناعَ راهبٍ عايشِ القصة الحقيقية للآدمي، بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته ومتوجها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثمّ يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا ربّ البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكأّف هذه المشقة؟

- قدّر كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهدت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظارة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا التوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنتك تعرف أسرار العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدمي يحمل سرّاً لي حاجة ماسّة إلى معرفته.

إنّه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجئن ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال إن فضاة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدعي إنه تنسك في بعض كهوفها.

ثمة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثاً عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمن علي أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوماً. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلاد، ربّما لجرائمه ظروف تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقّة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجنبي صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

- أعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيّت الضمير وكيف استحالّت حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها.

هنا يتبادر الشكّ إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعا إنه هو.

يشنّد القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف.

يجب التوقف طويلا عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحى بأننا كلنا ممثلون، أننا طول الوقت نمثل -حتى لا نقول- ندجّل على أنفسنا وعلى الآخرين وأننا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرج.

مهلا أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلّعه لتقمّص دور آخر. تفضّل والبس أقتعة همّ الأدوار التي يمثلها

الأدمي والتي تتردد من جبل لجبل بثبات مُلفت للانتباه. أما أنت المكلف بالصراخ لا تصدقوا شيئاً” الرّم مكانك سنستدعيك كلما تمكّن منا التبدُّد من جديد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كريسوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:

يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أنني على وشك الموت وجدت نفسي مرمياً على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمرّ يوماً وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأدمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة... هو الذي جاءها طوعاً.

يخلع الراهب قناع روبنسون كريسوي ليلبس قناع سيجموند.

ثم يبدأ في الإلقاء الحزين: أخيراً بعد طول التشرّد في الغاب الموجس الخيطر للجزيرة المنسية من الآلهة أبصرت كوخاً قلت قد أجد فيه أخيراً ملجأً يحميني من الموت الذي يركض ورائي. فتحت لي سيجليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبة التي ستحمل قريباً طفلي في أحشائها. تردّدت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.

تصرخ سيجلند: لا عليك، دخله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن فيه من الشقاء، أكنّت خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأدمي... الشقاء لم يوجد إلا بوجوده.

من الأفضل وقد تورطنا بمجئنا هذا العالم الثبات والمواجهة.

يخلع الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد ثم يأخذ في الصراخ: الأدمي بطل لا يهرب لا القزّم ميم ولا فأفرن التنين ولا حتى الربّ ووطن. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأدمي. إنها قصة أخرى سنتتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحاً بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه يافيه بنفسه أو امره ونواهيهِ للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلتُم تصدقون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا فردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعبا! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حسنات وسيئات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياه لنفسه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الذّ من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الربّ انتبه لوجودكم أخيرا بل وقرّر أن يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعت فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه، لو كان هذا المنقذ قادرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أبشع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلتُم تُثَقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونذوركم؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا إبليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفتح. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليلبس قناع ينج-لو صارخا: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والحرية والجنس لا أخضع للشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين أَلّف رؤيتهم بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينج-لي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هادئة وربيع ابتسامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حلّ لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح، والطمع والغضب والحقد. هكذا يستطيع الأدمي مواجهة ضربات العالم لا يرفث له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نُبتر جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتيها من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبْنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبّي. يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به " لا تَلقْ دَهْرَكَ إِلَّا عَيْرَ مُكْتَرَبٍ مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الأدمي المعروف بجعجعته الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبئ ليلبس قناع المغني سارج فانسيورغ بعد حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن يستعمل ناراها لإشعال سيجارته ها هو يحاول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضادٍ. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخا: إنه ممثّل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستقراوات مرهقين. الدور الأخير.

يخلع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعا، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخا: هذا عالم — أرخبيل كل جزره محتشد يجاور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أقطع. يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأقنعة المتراكمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي إلى الصبح مع سكارى الحي.

هو الآخر منغمس في دوره لا يعرف أنه حسب الرؤيا مجرد مستكشف لجزء بسيط من طيف الأفعال والتفاعلات التي يقدر عليها الأدمي وأن وراء الستار باحث يدرس عبر كل ما يلعب البشر من أدوار وكل ما يعيشون من مسرحيات الكوميديا والتراجيديا كيف هي تجربة الوجود أدميا.

**

النظارة المنتظرون

هذه الليلة يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوعُ عنصر قارّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات ادوارد هُوَير، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئاً أو أحداً.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهاما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مَنّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد. نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مَنّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مَنّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار فودو

كأنّ الزمان توقف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب مَنّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكن غدا بكلّ تأكيد.

أتى أم لم يأت، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبدل ويحضر الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة وقبله الأنتظار يجب أن تكون القاعة المكتظة لا ما يتحرك على الركح. كيف لا وأنت هنا في مكان جدّ خاص سُحب من قائمة كل أماكن العالم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوباً بكمّ يكبر أو يصغر من المنغصات والأخطار.

لا خوف هنا من تهافتل المطر أو من زوبعة تلج أو من رياح رملية عاصفة. حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة. لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تترصد. أما الأدميون فلا أحد يحمل بازوكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تنشب بينهم خناقة يصفون فيها حساباتهم فيلطنون ثيابي بدمائهم وربما بدمي.

هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئا على الأقل طوال العرض. أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة. المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم.

ثمة من ينتظر الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخّص، أو الحلول والتجلي، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت... كلهم ينتظرون أحدا أو حدثا... كلهم ينتظرون من العالم أن يعطيهم ما يترجون والحال أنه أعطاهم كل ما في جعبته.

يتكفّف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ أقصاه. لم يعد الممثل الأوّل يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:

- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.

يجيبه رفيق يؤس الانتظار الخائب

- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في خُطب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشريّة هي نحن. لنغنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُسرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُسرنا فيه! هل يقدر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُسرنا فيه! الشكل الأدمي غلاف! مَنْ حُسرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

يتعمّق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ترى من هذا الذي لم يأت لحدّ الآن ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعادة الأبدية التي لا غشّ فيها؟ أن يأتينا أخيرا بالترياق الواقي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حال سيبلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد-مسارح تتوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صُلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي! لكن كم من مرة جاء المخلص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدّد السؤال الذي يلاحقنا ويلحّنا مهما اقتعلنا تجاهله.

- طلب منّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرأة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتّى يتلقّى واحدة منها، أو حتّى بيضة إذا كرّرها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا: طلب منّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لتوعمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلّينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

- نشنق أنفسنا. لبيك حبل؟

- حزام البنطلون.

- أنّه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير لأعصابي.

ما الذي يدور بخلدكم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضل حالاً فسأخذ ضدك الإجراءات الضرورية. تنظلي الحيلة على قودو يفهم أنه حُسر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هَلُو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!
يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- قودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدورها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحد، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء الى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب منّي السيد قودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت منّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد،

(ضحكة شماتة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقنعت معافى بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كل همّه واهتمامه منصبان على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو قودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجدلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

صحيح إذن لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بيكت وإلا لا تلم إلا نفسك.

يأتي الردّ الشهير: لو كنتُ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب المسرحية نفسه لا يعرف! مؤلفُ خَلْقِ كائنين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأنّ على رؤوسهم الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنّه أخلف موعدا بالغ الخطورة لأنه قصّر في شيء ما لا يعرفه؟

هنا أسارع إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو فودو. لقد أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوهامنا. أما المهمة التي جننا من أجلها والتي انتظرتم عبثا تأكيدها فهي -وأنتم تعرفون ذلك جيدا - "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

عن أي طبيعة بشرية يتحدثون؟

قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كما هائلا من التحديات في فهم الأدمين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوما منهم:

صغيرٌ يطلبُ الكبرا	وشيحٌ ودّ لو صَغُرَا (العقاد)
وخالٍ يشتهي عملا	ونو عملٍ به صَجِرَا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
ونو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انفطرا
ومن فقد الجمال شكى	وقد يشكو الذي بُهرا
ويشقى المرء منهزما	ولا يرتاح منتصرا
ويبغي المجد في لهفٍ	فإن يظفر به فترا
شكاةٌ مالهم حكّم	سوى الخصمين إن حضرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حَيَّرُوا القدرا

السؤال هل يوجد وراء كل التباين الذي يظهره الأدميون في أهم خصائصهم ما يوحد بينهم بغض النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويموتون يوما؟
بعبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة تكون قاسما مشتركا بينهم رغم تعدديتهم العجيبة وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية؟

عما نتحدث؟ لنقل في مقاربة أولية أن هذه الطبيعة البشرية المفترضة في مفهومها السائد منظومة من الصفات المادية والنفسية لها ثلاث خصائص:

هي موجودة عند كل البشر وذلك أيا كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجا.

هي لا توجد إلا عند الأدمين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية. التعذيب نموذجا هي ثابتة تنتقل من جيل لآخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجا. المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم.

مثلا، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. لكن أي استغراب سينمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان تارة إذا كانت درجة الحرارة 1600 درجة ولكنه يقبل بالذوبان تارة أخرى إن وُضع بضعة دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتتجاهله مرة ثانية وأحيانا أن تهاجمه بقرنيها الصغيرين!

إنها الظاهرة المحيرة التي ترصدها وأنت تتفحص مواقف وتصرفات الأدميين في أغلب مجالات الحياة.

اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل لمواجهة عالم حافل بالأخطار.

تكتشف باكرا أنك أمام نوعين من الأدميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استنارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلّب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرّع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستفّر أنيابه ولا درع يحميها سوى الجراءة والتحدي. ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنتى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أثنى من الشهد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثمّ يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تركض وسط أعشاب عالية تنربص داخلها الأسود.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

قد يشتمّ من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية. لتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشدّ الإعجاب: الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دقت فيها لاكتشفت أنها-أغلب الوقت-عند الأكثرية خليط من العيوب كالتهور والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحاكاة الأبطال المزعومين.

والآن تمعّن في مشاعر كل أدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

-

اعتبر الآن مزاجهم وهم دوما في مواجهة عالم لا يبخل عليهم لا بالعطايا ولا بالعصا.

تجد فصيل المتشائمين ونستطيع أن نعدّ من بينهم كل الذين سكتوا بعد أن بَحَت أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين ويقرب عصور الحب والعدل والرخاء...كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله، كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قرّبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم، كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالأفيون، بمهدئات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوماً، كلّ الذين سلّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا، كلّ الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثلّ الصربي: ماضيها مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظّ أن ليس لنا مستقبل.

ثمة فصيل المتفائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للأدبي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهم، السكّير، العاشق، المبدّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكلول للدجاج المحمّر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعث ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

كما هو الحال دوماً مع الأدبيين تجد شيوخ تظنهم في حداد مزمّن وهم يحيون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بإتقان، وهناك أيضاً كثير من المرحين ظاهرياً الذين يمارسون الكتابة السرية.

هذا ما يؤدّي بنا لرصد صنف ثالث من الأدبيين قلما ينتبه له المحللون: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التناول لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل.

ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصّر على تخليصه من القسوة والفضاعة والقبح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تضع أوزارها أبداً لتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمّنة من الحفيظة والضعف تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلّ خطئه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقةٍ متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّم حياة الضيف وحياة مُضيف يَرفر غيظاً من ثقل دم الزائر ومتنفساً الصعداء لحظة خطفه لروحه.

وفي المقابل ثمة الأدبي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقضه الساذج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا تنتهمه ببلاهة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مقياسه، وأنه اكتشف بطول ممارسته له-أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرقٌ هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على

الأخرين وعلى العالم، والثاني عابر سبيل أنيق لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

-

أيا كان المزاج ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم ورصد ثوابته وقوانينه للتعامل مع الأخطار التي يفيض بها والأمر رهن بالقدرة على تجنيد طاقة اسمها العقل. ها أنت كالعادة أمام توجيهين متباينين.

الأول الأدمي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهلاً عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل.

الثاني الأدمي اللاعقلاني الذي يختلق الأساطير ويجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالسحر والصلاة.

هنا أيضاً يمكن للموقفين التجاور في نفس الشخص: نموذجاً نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعاملون مع ما يواجههم العالم من مشاكل عادية وإلى أي مدى تتباين قدراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع.

يقول ملاحظ حصيف في الشؤون الأدمية اسمه سيبولا أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة " أعراق " أدمية: الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء... الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار... الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء... الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيبولا خبر سيء وخبر أسوأ. بماذا أبدأ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكى لا يقدرّون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفاضلة.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قارة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

في نفس السياق للخليل بن أحمد رباعية أخرى تعكس بنفس التباين الموجود بين الأدميين وداخل نفس الأدمي وهو يمر من حالة لأخرى: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

"أن تعرف وأن تؤمن أنك لا تعرف... قمة الفضيلة (لاو تسو)

ألا تعرف شيئاً وتؤمن أنك تعرف... مرض الناس"

يبقى مع كامل احترامي لهذا الاستهجان الصادق أو المفتعل تجاه نوع معين من البشر والتصرفات أنني أجد فيه بعض التبسيط.

كم كان الجاحظ محقا: "وأن الغباء في الجملة أفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش اليهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلّم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء ..."

نعم كم كان الرجل حصيفا عريفا بالبشر: "وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابيون الصدق بتذكّر منافعهم وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مراقفهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون".

-

ماذا عن الثنائية التي تختزل أهم ما شغل بال الفلاسفة والأنبياء والقضاة والمصلحين وشتى مشتقاتهم من ثوريين أي ثنائية الخير والشرّ وما العنصر الغالب إن كان هناك عنصر غالب.

ما نعرف أن بوسع الأدمي تركّ الحبّ على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلّط والذهاب بهذه الغرائز إلى أبعد الحدود.

نموذجا لفيثا وهي تدمّر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمّم الأقارب والأباعد، لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضّع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سويّ.

في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح وبوذا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغاندي. نحن أمام النقطتين القصوتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشرّ هو الذي يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين.

هل ثمة تفسير لهذه الازدواجية المذهلة؟

في فيلم غنائي شهير يعرض أب متشرد سكّير على البروفيسور هيجنز بيعه ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظرياته في علم الكلام وربما أشياء أخرى.

ردا على استنكار البروفيسور وهو يظنه يساوم المبلغ يصرخ الأب: امكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب أخلاق وأن أنزل تحت عشرة جنيه.

ثمة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشتهم بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم. أسهل هذه الظروف الموضوعية رسدا تلك التي نصفها بالاجتماعية الاقتصادية.

ولأننا في نصّ يشبّه الحياة برحلة فلنتخيّل معي " قطار " نغير به هذا العالم وفيه أربع درجات جد متباينة في كل ما يخصّ الرفاهة والأمان.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها النساء الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتقاني الآخرين في السهر على رفاهتهن.

خلفهن ترتيباً مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لمتعتهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أقل من نساتهم لبعض العادات السيئة مثل شرّه التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام.

هم أيضاً من يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويَدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات "قطار" الرحلة هي التي تسافر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقدير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهم حتى هنّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة.

هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أُحدتكم عما يعانون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرّد الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يأكلون من فئات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حق غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايّد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوّر من أصناف الوجع.

إنهم من يخترعون الأديان والنقابات وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناجحة نسبياً. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهّلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعا، عوام، إرهابيون ومخربون.

بداهة ثمة ظلم فادح وراء هذا التنظيم لقاولة المرتحلين.

هل طبيعة تنظيم المجتمع المتقدم على ولادتنا سبب وجود الظلم، أم هل أن وجود الظلم كمكون صلب ودائم للذات هو سبب تهيكّل المجتمع على الحيف في توزيع ظروف الارتحال؟

لكاتب يدعى برنارد فربر رؤية تنتصر للاحتمال الأخير.

يلاحظ هذا الباحث الحضيف الآخر في الشؤون الأدمية أنك إذا وضعت سنّة فئران في دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضع المحدّد هذا يفرز بسرعة تنظيميا يتشكّل من سيّدين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وغبديين في خدّمتها، ومُتمرد، ومُتسوّل يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت سنّة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسوّل. إن أخذت سنّة مستضعفين أو سنّة متسولين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوماً، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل -اشتمّ مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فئراناً. ردّي أن المدهش ما تُظهره الفئران من أوجه شبه عديدة بنا.

المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الأدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يدعّمه. من يستطيع إنكار تورّع الأدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمرّدين ومتسولين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصول إلى التمرّد.

كل المجتمعات وأن تباينت تعقيدا و" تقدما" مبنية على نفس النموذج ... الخرفان في المراعي والأسطبلات، الذئاب في التكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون... والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبتد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب وصول المسيح المخلص... أوهام الذئاب حول دوام حال لا يدوم على حال... أوهام الأسود حول قدرتهم يوما على الحكم دون أن يصبحوا بالضرورة أكبر الذئاب.

أيّ عجب بمثل هذا التنظيم أن تتزاحم في الفضاء الرمزي ديانات سادة متسلطين وديانات عبيد متسولين وديانات ثوار متمرّدين؟

-

تعود إلى السطح إشكالية قديمة قدم الأدميين أنفسهم: هل هذا التنظيم المتكرر نتيجة كوننا كائنات مسيرة أم هل نحن بما نظهره من قدرة الثورة عليه وإن فشلت أغلب الوقت -كائنات مخيرة؟

تجد كالعادة ما يثبت الرأي والرأي المعاكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي. من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.

ترى من سيجهز على العدو مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمد له بقرية الماء ليبلل شفتيه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذاك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدّد.

خذ آدميا وضعه في أفسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرضة لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا، من ستتحكم فيه غرائزه ومن سيتحكم فيها؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وحرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

بخصوص هذه الإشكالية ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقلها من الاهتمام والحال أنها أهم ما يميّز الأدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكى يوما أنه شاهد بأمر عينيه خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الخروفية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضطراب جوع احتجاجا على تعسف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستنتحر أكثر أنواع الروبوتات تقدما (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقنوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أمامنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري.

توقف على الصورة قبل أن يطلق الأدمي الرصاصة على صدغه.

تخيّل معي كل رسائل هذا الراحل عنّا يوجهها لكل من يهيمه ولا يهيمه الأمر:

أنتِ الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائك جملة وتفصيلا.

أنتِ العالم بكل اغراءاته التي قيّدنتي بها طوال رحلتك لأتحمل كل موبقاتك وقسوتك ولامبالاتك، احتفظ باغراءاتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.

أنتِ القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأنني أرفض مواصلة تجربة لا أقبل بتكلفتها ولم تعد تعنيني لأسبابها ولا أهدافها.

أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حدائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردي هذا، لم اعرف من عقاب أشد من الارتحال معكم.

هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والادمي يثبت ولو عبر ظاهرة رهيبية مثل الانتحار أنه أيضا كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القافلة.

-

أيا كانت الأفعال التي يأتونها وأيا كانت نيتها فهي دوما في خدمة هدف قار قد يعكس هذه النواة الصلبة المشتركة التي قد تكون طبيعتهم.

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية لا يسعون إلا لتحقيق غاية واحدة: التحكّم.

هم يجاهدون للتحكّم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكّم في نواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي... للتحكّم في رفاق الطريق عليهم يكونوا مطية لا عقبة... للتحكّم فيما يسمونها الطبيعة يبغون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم... للتحكّم في العالم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل.

هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفن والتحليل النفسي.

كالعادة سترى الأدميين يتوزعون على طيف الظاهرة. في أقصى الطيف تجد العبد الذي لا يتحكم حتى في جسده. على الطرف الآخر تحكّم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكّم الشيخ في مريدة أو تحكّم الغاسل في جثمان الفقيد.

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة.

النتيجة عادة تسليم الأدميين يوما أن اجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقرر متى تخرج من الخدمة... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعتها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم... أنه يستحيل التحكّم في بعضهم البعض وقد جُبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزمّن... أن محاولة التحكّم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية خطأ الجهل وخطية الشجع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم عليها غالبا إن عاجلا وإن آجلا...

ثمة منهم من يعهدون لآخر محاولة قل لآخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون.

أنهم كل من تصوفوا أو انسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو التمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذوات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التدجيل على الذات؟

كل ما يمكن قوله لحد الآن أنه في حضور كل هذا التباين في المواقف والتصرفات وفي غياب شرط التناغم تصدق في وصف البشر إن قلت

الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم ' (المتنبي)

وتصدق في وصفهم إن عارضت الشاعر:

لعدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زلة فلعلّة لا يعدل

عن أي طبيعة بشرية يتحدثون إذن ونحن أمام كائن مثل وعاء يتجاور داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار؟!

**

بين التراب والتبر

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين، الخ.

ثمة في صراخهم هذا دوما ركن قار هو شكل من التفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة الأدمي الآخر.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين طوال الطريق يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فواحد يصرخ أنه من " شعب الله المختار " والآخر أنه من " خير أمة أخرجت للناس " وثالث أنه من " قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما " ... الخ.

لا غرابة أن تخصص أمة بأكملها ركنًا قارًا من أديها لشعر الهجاء والفخر.

لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيال حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد!

هل هذا الهاجس عند الأدميين -أيا كان موضعهم من السلطة والثروة والاعتبار- نتيجة شك مؤلم بخصوص ما يسوون حقا مما يعني وجود شرخ موجه داخل كل ذات؟

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبتّ في قيمة الأدميين هو مكانتهم بالنسبة للعالم. ثمة الذين يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة عظمية تلحق به وئمة الذين يتواصل هذا العالم بلا أدنى تغيير لا يلحظ اختفاؤهم أكثر مما لحظ وجودهم.

تصوّر في مستوى عملي حالة مجتمعاتنا لو أخطأ القدر فزلت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية، لا يبقى بيننا إلا جحافل من المخبرين والجلادين والإعلاميين المأجورين والسياسيين الفاسدين.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقسيم " الحقيقي " للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

يمكنك إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين يتركون بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية والذين لا يتركون إلا بعض الأطنان من البراز - تصلح على الأقل سمادا-وآلاف اللترات من البول وستين إلى سبعين

كيلوغرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظّ غذاء مفيدا للذباب الأزرق ولأجناس مجهولة من الودود والجراثيم.

ها قد استفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الأدميين يمكننا العودة للموضوع متسائلين بكل هدوء عن مغزى الظاهرة نفسها.

نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بأية أدوات نقيسها؟
لنحاول ...

تصوّر أنك تنتظر للأدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا أو الفلك المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.

أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا رميما تفاخر به متاحفنا. حاول الآن تخيل الثمانين مليار آدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطحه منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المفترض حاليا لبشريتنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكمون من حولك وستتبلور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بديهى أنه بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، يجوز الحكم بأنه ليس للأدميين أدنى قيمة.

تجربة ذهنية ثانية للتعمق في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، وعينة ثالثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العيّنات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدّما ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنها وكيفية عمل أدمغتهم.

ستكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة لأدمغتهم المثيرة لدهشة أكبر العلماء مهما اختلف ثمن الملابس التي يرتدون والساعات التي يحملون.

أي ردّ تتوقع من الباحثين العلميين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟

كأنك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لُفَّت في خرقة
قذرة وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لُفَّت في ورق ملون... ويسأله ساذج أي
زمردة أعلى قيمة؟

إذن بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقت، لست أرفع شأننا
من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأننا من أي سلطان جالس
على عرشه...مما يعني أنه لكل الأدميين نفس القيمة.
التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفة صنع كل الكائنات ومنها
البشر. بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن
العبقرية المخفية التي صنعت الأدميين تدبّرت أمرها لكيلا يشبه آدمي آدميا آخر
وهي تحرص على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل في
تكوينه البدني ولاحقا النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس
الرحم يتباينون في أكثر من خاصية.

كأنك في أكبر معرض للوحات أعظم الفنانين وكل لوحة رائعة وفريدة لا تشبه أي
لوحة أخرى.

أي استنتاج آخر غير أنه لكل فرد قيمة ليس فوقها قيمة؟

ها أنت أمام مفارقة جديدة تضاف لكل ما رصدنا للآدمي من مفارقات.

في آخر المطاف ما هذا الكائن الذي يتجاوز داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا
تنطفئ النار... الذي لا قيمة له وله قيمة لا تضاهيها قيمة ... الممثل والمخرج
والمفترج في كل الأدوار الذي يلعب ... الذي تصدق في وصفه إن قلت إنه الذي منه
كل وحشة، الذي منه كل نقمة، الذي منه كل نعمة والذي منه كل نشوة؟

كل هذه الغرابة ونحن لم نطرح بعد بخصوصه السؤال سيّد الأسئلة.

**

الكتاب الخامس

المهمة

لا تشيخوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج البشر وصخب
الحياة.

كونفوشيوس

مقدّمة الكتاب الخامس

يصل الطريق يوما إلى مدينة من بلاد سينا. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المارّة.
- سيدي أنا أجنبي عابر سبيل ولا أريد أن أتورط في مشاكلكم أرجو أنني لست وسط
مظاهرة طائفية؟
يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنظر ورائك. إنها محطة قطارات مومباي وهؤلاء الناس
مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جنّت في الأعياد؟
يا للرجل المحظوظ. هو يعرف ماذا يفعل كل هؤلاء الناس في هذا المكان، لكن هل
يعرف ماذا يفعلون كلهم في هذا العالم؟ ربما يعرف أيضا سبب تدافعهم أجيالا بعد
أجيال بمثل هذه الأعداد الرهيبة وكأن لهم فيه موعدا لا يخلف مع وعود لا يقاوم لها
اغراء.

لا جدوى من اعتراض طريق أيّ من المارة لتسأله عن الأمر. من الأحسن أيضا ألا
ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الاخصائيين ينطقون كل
المتسترين على الأسرار التي تهمنا جميعا.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيارة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية.
في كل الحالات هو كيقية المارّة لا يعرف ماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السرّ
على كل اللسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأدميين -الاناث تحديدا كما يدعي
الذكور- استحالة حفاظهم طويلا على أي سرّ.

مزاجي هذا الصباح ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة تدافع فرضيات أرد بها بنفسى
على السؤال سيد الأسئلة.

ها أنا أسمع في فضاء خيالي موظفو مركز شحن سماوي ما يصرخون في بعضهم
البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟
- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100- 2154879365 الذي
يقاوم الترحيل ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش
فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب
رأسه.

تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كانوا كلهم هنا لقضاء عطلة ممتعة لا لقضاء
فترة عقوبة مهينة؟

ليكن. الحوار "الحقيقي" إذن بين موظفين فاسدين:

- تُرى كم من رشايوي وتدخّلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد3100-2154879365 تأخّر وسيفوته موعّد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

عبث كل هذا؟ طيب لنترك المخيلة تستريح ولنلتجئ إلى الأداة الأخرى للذهن التي يسمونها العقل. ثمة فرضيتان لا أكثر لوجودهم في هذا العالم وبمثل هذا الاكتظاظ.

الأولى مرتبطة بالرهان على الأعداد الكبرى.

كما لا بدّ من مئات الملايين النجوم لتشكلّ حفنة من الكواكب القادرة على توفير الشروط الدقيقة لظهور الحياة... كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلوغرام من التبر... كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة... لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ وشاعر اسمه إيسا وأدمي أصبح إنسانا اسمه الحلاج.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدا في أية خانة يصنّفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالح كل قرائي والبشر أجمعين هي التي تسميها الرؤيا الرهان على الجهد الجماعي. إنها الفرضية القائلة بأن المهمة التي كُلف بها الأدمي من قبل قوة مجهولة أصعب وأطول من أن يتعهّد بها أدمي واحد.

لذلك كان من الضروري أن تتابع الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحاولون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق.

طيّب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيال؟ من يتطوع ليوح لي بالسّر إن كان هناك من يعرفه فقد تعبت من كثرة البحث عن جواب يشفي الغليل؟

ولم تستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا (الرازي)

أوف، خرجت أخيرا من الزحمة المرعبة. يمكنني التوقف لمسح عرقى. أغتتم الفرصة والرجل الواقف بحذوي ينظر مبتسما إلى كأنه مشفق على هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلادنا نحبي الآخر عن بعد ملوّحين بيدينا ليتبين له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نوّكد ونتأكد أنه ليس بين

الأصابع الخمسة خنجر صغير... ثم نُقرئه السلام. إلامَ ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى “نماستي”؟
- معناها نحّي المقدّس الذي فيك.
يضمّ الرُّجُل راحتيه اتسعت ابتسامته ثم يختفي داخل الزحمة.
المقدّس الذي في... أنا!؟

**

البيت الآخر

ذات يوم تتغير منهجية البحث بصفة جذرية.

لماذا لا أردّ بنفسني على السؤال سيد الأسئلة؟

لماذا لا أختار له الأجوبة التي تساعدني على تحمل هذا العالم ومواصلة رحلتي فيه بأقل قدر ممكن من الحيرة والقلق؟ اليس هذا ما فعل البشر دوماً؟

نعم لماذا لا أخلق لي أسطورة خاصة بي وحدي تغنييني عن القيل والقال لأخرين لا يقلون عني حيرة وضياعا؟

يتبلور شبح صنعته الذات لتتفحص عبره ما ينضج بصعوبة داخل فكرها وخيالها.

ترى هل سيعبرني الرجل اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي غير مبال حتى بفياق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين؟

ينتبه الناسك لوجودي. يبادرني بانزعاج لا يخفيه:

- ماذا تريد؟

أواه يا سبتا، برّب عشق طفل تهجّي في حبك أجمل روايات القصة المقدّسة، تدخلني، أريد نصائحك ولم لا بركاتك!

أهمس للشبح بين رجاء واستحياء بهدف الزيارة.

- كما خلقت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية حاجياتها المادية الحسية، خلقت أيضا مهندسين معماريين في الفضاء الفكري الخيالي لتلبية حاجياتها الروحية وأنت يا فالميكي من كبار هؤلاء المهندسين. جنتك لأخذ نصائحك بخصوص مشروع بناء بيت روعي لاستعمالي الشخصي لا غير؟

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع والمشهود لهم بجودة أعمالهم كثر؟

- لأنك لا تخفي أمرا يحاول الآخرون التستر عليه وهو أن كل ما نبني من فلسفات وأديان ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا.

يأتيني همس فيه مزيج من الاستغراب والمرح.

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا تكتفي بها؟

- جلّ الموجود من التصورات لا يقبل بها عقلي أو لا يرضى به فؤادي لا لشيء إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصدّقها.

- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاة والجالدين. حتى التي لا تحتاج لأي عنف لبقائها أعجز من أن تتحدى أنياب الزمان. فكما لن يتوقف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء

الرمزي-الخيالي، لا طاقة للأدبي على سَكَن نفس البنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتغيّر الذوق العامّ أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة فيما تبحث عنه من بنايات روحية جديدة؟

- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

- والمقياس الثاني؟

- أحسنُ الأساطير المؤسّسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة التي لا تخلق شعوبا مختارة يحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، التي لا تقسم البشر إلى مؤمنين وكفار، التي لا تخلق منبوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة، التي لا تخلق مستبدا في السماء يشرّع للمستبَدّ الذي على الأرض التي تسهل الحياة والموت للجميع، خاصة التي لا تتعدى أبداً على كرامة أيّ من الكائنات الحيّة.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم الطبيعة صدفة أو دمي خلقتها آلهة لا شيء إلا ليعيدوها! ...عجبي من تشبّثهم بقصص تعيّرهم بأصولهم، تسمّم رحلاتهم بعفدة نذب لم يرتكبوه، تجعلهم يعبرون العالم على مخاوف لا سند لها ولا داعي، ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية تبرر لظالمهم ما يرتكبون من ظلم فطبيع في هذه الحياة...
يعود الهامس الخيالي لتحسّس مكامن الضعف والقوة في محاوره.

-أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء مثل هذا. الحقيقة دوما إما نسبية وإما مؤقتة . هي في الدين ما تعتقده طائفة دون بقية الطوائف من المؤمنين ومن ثم هي نسبية. هي في العلم ما تعتبرها طائفة من الباحثين أحسن إجابة عن مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك مأخوذ؟

- بركاتك وتمنياتك لي بالتوفيق.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعبة بمداعبة.

- من أمّي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكي بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة.

- أخلق لك القصة التي تريد إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوائل.

القصة التي أريدها دعامة لببيت الروح! طبعاً الأجمال، الأغرب والأكثر احتراماً
للشجر، للحجر لكل ما في العالم من كائنات ومن كيانات.

**

الرواية المزيدة والمنقحة لقصة القصص

من خصائص البشر حبهم للسطو على أفكار وممتلكات الغير لا يترددون في الفضاء الحسي وهم منتصرون عن تدمير معابد أعدائهم ومصادرة أحجارها لبناء معابدهم هم. لماذا أتورع عن المشي في نفس الطريق بإعادة استعمال أثرى ما تحفل به ملفاتي من أساطير الأدميين؟

لأبدأ بالأسهل والأقرب أي الأسطورة التي نشأت عليها وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعد بلا خطر

فجأة طردا من الحديقة

قف. طردا من الحديقة!

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث تقول إن ثعبانا خبيثا زين لأدم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعاقبهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روعي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوقفوا كثيرا في مهمتهم.

أن يُطرد آدم وحواء لاكتشافهما متلبسان بالتدخين داخل المراحيض فأمر مفهوم لما يمكن أن ينجر عن الأمر من انفجار الجنة إذا كانت جنة طائرة أو نشوب حريق لا يبقى ولا يذر إن كانت جنة أرضية... لكن أن يطردا بسبب تفاحة!

ليسمح لي هنا بفتح القوسين للتأكيد على أن النص لن يدخل في مناقشة عقيمة بخصوص طبيعة هذه التفاحة اللعينة وهل كانت تفاحة كالتي تشتري من السوق ويتعرف عليها بسهولة الفم واللسان والأسنان... أم هل كانت تفاحة سحرية تختزل داخلها المعرفة المحرمة علما وأنه لا أحد يعرف لماذا حرمت المعرفة على الأدمي ولماذا تبلورت في تفاحة وليس في بطيخة أو قرعة.

الأهم من هذا-وذلك أيا كانت طبيعة هذه التفاحة المشؤومة-أنه يجب رفض سردية الطرد لأنها تعدّ صارخ على الكرامة ثلاث مرات.

إنها تعدّ على كرامة يافيه وهي تصوره كمستبد بخيل حقوق ظالم ينكل بمخلوقاته بسبب معصية تافهة أضف لهذا اتهامه الضمني بالخبث وسوء النية وهو الذي حدّر من المعصية وأغرى بها.

هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفى لمرتكبي المخالفات في الجنة.

هي تعدّ على كرامة آدم عندما تجعل منه كائنا بئسا قبل بالركل في المؤخرة والطرود والنفي ولم يردّ الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه.

مهلا. أليس من الظلم لوم من وضعوا هذه البداية لقصة القصص؟ هم لم يكونوا أقل ذكاء منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر. إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهنيا بمثل هذه الخطورة؟

يقال إذا عرف السبب بطل العجب. ما السبب يا ترى؟

نعرف أن وراء الكثير من الأساطير أحداث صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سُوّقت للأجيال المتتابعة على أنها حقائق لا يأتيتها الباطل من خلفها ومن امامها.

هل من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الافريقية وهي تبعد بالآلاف الأميال عن القبائل السامية المتواجدة في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية والتي أخذت عنها قبائل العالم هذه الرواية؟

أية أحداث حقيقية قد تكون ولدت سردية طرد آدم من الجنة؟

أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجسد فبالخيال والحنين.

كانت "ما" تبغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدّة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تفتقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياهها العذبة التي تستخرج من آبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهل المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشققها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت ترحم الغزلان والزرافات والفيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الى ارتخاء ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف مدمر والسبب بتغيّر المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول بعض أهل الاختصاص.

لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة-كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم يتنقلون بكامل الحرية داخل ارض

غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتدّ البصر.

ها قد أصبحت تدريجيا مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة.

ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الألسنة بالحلوق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجردان المتماوتة هي الأخرى جوعا وعطشا. لنتصوّرهم حول نار باهتة والمعنويات كتلك التي نعيش أيام الحداد.

ينطلق شيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تتبارى أناقة وجمالا. مؤكد أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أذكى الأطفال وأكثرهم فضولا وأسئلة مرهقة لكل من حوله... وأنه كان أكثر الأطفال انتباها لكلام الشيخ.

كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوائل اغضبوا اقوى الآلهة فسلط عليهم أظع عقاب ألا وهو طردهم من أراضي الخضرة والوفرة والمياه العذبة لينفيهم في هذه الفيافي الموحشة.

لنتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا مع كل المخاطر المرتبطة بهذه الصفة. ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الأوائل فأدت لطردهم؟ أه لا بد أنهم سرقوا شيئا لربّ الأرباب والربات؟ لكن ماذا؟ مؤكد أشهى ما في حدائقه. هل ثمة أحسن من التفاح الذي أحب؟! طبعاً إنه لتفاح! التفاح!

ها هو يتحول تلقائيا للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين: كيف يمكن استرضاء إله الآلهة حتى لا يواصل غضبه علينا ونعود إلى الجنة؟

قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية وعلمانية لم تقبرك إلا بهذه المنهجية: حبة من الحقيقية تبنى فوقها قبة من الخيال.

أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضا في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّرنا حفيداتنا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجدا.

أه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشيخة وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) وأطباء أسنان (الشيخة لا تنام وآلام ضررس العقل تفقدها عقلا) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشيخة قلقة من تقطع أخبار كتيبة المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيارة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أدكى البنات وأكثرهن فضولا: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجدات لتتهار العصور الذهبية؟

أي خطيئة ستختلفها النبوة ستربتوفسكايا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر؟ ربما أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها. كم أودّ أن أكون حاضرا لاتباع طقوس الديانة التي ستؤسسها؟
عودة لموضوعنا.

نعم واعتبارا لما سبق أن قلنا عن حطّ هذه الرواية من كرامة الرب والأدبي والعالم يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما... فزا منها.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتقول لي إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نلحم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردّي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم منّي بطول باع الأدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من السهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شكّ أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بدّ أنه كان لأدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما، ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الحبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمتانة روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الرب لا غير.

صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

إذن في النسخة المزيدة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واعٍ بمن أوحى له بالفكرة. ذات ليلة صارح حواء بالفكرة، فمطّت شفيتها

وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّدة أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها. في آخر المطاف... لم لا؟

[في طبعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الربّ بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحوّاء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزّب الجماع مع إبليس أو الثعبان.]

أيا كان صاحب الفكرة وبعد شجار مقرف ككل شجارات الأزواج يخسّم الأمر لصالح الفرار. هكذا اشتعلت شاشات المراقبة برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جدا". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتتفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الربّ، بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، قرّر فرار الغبيين، من يدي؟ ربما هما رهاني الناجح هذه المرة.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أولا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أنقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية- نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجاد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضعيفته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلثم بأولى كلماته

عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتبذيره الرائع والمرّوع
معاً سيتملكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معاً سيدان آدمية الشرّ والجنل.
تعبر الفضاء والقرون.
ومن خلال ضباب الزمان
تابعهما الصدى بالأمر

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة
الآدميين.

- "با"، بماذا أمر الصدى آدم وحواء وهما يفران؟

- قال لهما خذا معكما ابليس.

ربما واصل هامسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشرّ، ما
المسؤولية في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**

وقال لهم الصدى فلتتمخض هذه التجربة عما تزخر به من امكانيات الاضافة والتجديد.

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمامهما.

تدير حواء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللب أمام كل هذه الروائع، شلالات متدافعة من أعالي الجبال، أنهار متدفقة بين الروابي، بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار، كثبان من ناعم الرمل، جبال مكلّلة بمهابة الشيب، بحار تهشّ الريح فيها على الموج، غابات تعانق أشجارها السحاب، سماء مرفوعة بلا عمد...

يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا يا نافذ صبر لم يبدأ بعد.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت لا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.

ينتبه بطنا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العالم لا يوقّر شيئا عدا وجوده، أما تدبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم هم لا غير.

كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه!

ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّت العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعول إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل وماكول وأنا أكل الجميع.

هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مُضنّ وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكيد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري الذي سيرسم صورتها في لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفذ صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع.
هذا

فعل يلبق بابن أبيه ولا يلبق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدّة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذ "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبّل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب العوالم.

يكبر الطفلان، لتتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص.

ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل مستويات الزمان والمكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملت المهمة التي خرجنا من الجنة لإتمامها.

أي شاعر عبقري مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تتغنّى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟

يصرخ أحدنا: لننتجبه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جئنا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والثلج.

يصرخ أجبين أو أعقل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخائقة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تبتهج بلامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم. طب

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق

ها نحن ولمنات الألاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدِّد حدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعاً ومن الفيل قبل تمريقه إرباً إرباً، نقاتل الكواسر حتى لا نُؤكل ونقاتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير أخطر الوحوش.

أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية وبطنهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنفرة هم الأبطال الذين نخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟

توقف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئاً بخصوص من خطوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليباع للمسنين الذين تجاوزوا الثلاثين. ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تتبعث منهم.

حقاً من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعاً، وحتى أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرسقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من مصلحتها التوقف، لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضاً سليلة هؤلاء الشبان الهمج الننتين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم يجرّ حقيبة تُصدر صريراً مزعجاً. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، وبإعارة الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خانفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

إنه عالم لم يُخلق للجبناء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة والفاصل بين الحالتين حالة أزلية اسمها الصراع من أجل البقاء.

يأتي يوم يئن فيه أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكفّ عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس!

وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي تَبَّتت في فكِّ الجليد والتلج!
وآخر: يا للرعب الذي تبثه فينا كل هذه الكواسر نهارا وهي تتعقبنا بأظافر وأنياب لا طاقة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذئاب التي يمنعا عويلها ليلا من النوم نرتجف بردا وخوفا داخل مغارات مظلمة نتقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرزة!

تولول أنثى فاق رعبها كل حدود.

انتبهوا لهذه الطيور المشؤومة التي ترفرف فوقنا تنتظر من يسقط منا لنتهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفس!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فاق عنده أيضا الغثيان والدوران كل قدرة التحمل.

من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمل! ماذا نعمل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقَرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟

لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الآلمهم والتوجه للوحيد القادر على إغاثتهم.

صلاة الأدمي: يا من رفضنا جزيل عطاءه لنهرب إلى هذا العالم المبهر المرعب. حنن علينا قلب الأرض والبحر. ضعنا في حماية الشمس والقمر. احفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شرابا حلالا. وقر لجوعنا اللحم والشحم. فجر لعطشنا عيون الماء الزلال. يسر أمامنا الصعب والوعر. ضمّد جراحنا. جدّد فينا كل فجر شجاعة الأبطال.

الصدى: يا أحلام أحلامي، يا آلام الآلمي، يا آمال آمالي، يا أفكاري وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.

قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة الصوت. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأنّ وراء القول المسكوت عنه: ستتنسّون كل الأمكم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحقّقون لي المهمة التي شرّفتمكم بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تطمينات السلطات العليا تواصل المعنويات انهيارها أمام تفاقم الصعوبات خطوة بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أمه وأبيه: تخشبت قدماي من المشي، غصتُ إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقتُ أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأً، انكسرت كنتفي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليوصل هذا الطريقُ العينُ طريقَه دوني. لن أقدم خطوة أخرى.

أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، لقد توقف الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضراب عام.

تفتح البنت عينيهما وفيهما بريق التصميم كأن شيئا دخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- "با" ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدي لدفعي للركض والصراخ والرقص.

يستيقظ الرواد في الغد وبهم جدل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كنتفي، صارخا ضاحكا ومُعنيا أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قانلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغير حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف "ما" من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحه: أنتِ الباكية والبانلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثم تنفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.

- "با"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويه أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الأدمي المسكين لكي يذفاً ويبعد أنياب الذئاب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع- إلى الغاية للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلا أن صلّت لله ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر

الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرح إليها "با" وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع "با" من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع "با" لتدلّه على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقissime جدا جدا لا يمكن الدخول إليها إلا زحفا على البطن. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع "با" أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفت النار.

بعض العصف الخفيف وشيء من جذب الشعر. خصومة بسيطة تسهل السيطرة عليها من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالترشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار حتى في هذا النقص سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

البنتان صامتتان ثواني متتابعة. فرصة للاستيلاء على الكلمة.

- أنا الذي أفقد. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلبل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبلت أخذها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انفشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كبريت بحجم بيت وبجانها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكويلا.

تصرخ البنتان: "با"، لا تعش!

بجد، ليس لدي أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحول الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة التي كانت مهد الجنس البشري إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدب للصبر على ما لا يُتحمّل من البرد.

كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالأدمي فتصدى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مده بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنم نفسها.

لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للاستقرار النهائي في جهنم هذه. أما أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالماً، فهذا سيناريو لا يقبله حتى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المتقنين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأوائل على النار أو من أين سرقوها. لماذا أتكلف كل الجهد وحدي والقصة، قصة الجميع؟

المهم أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقة مضغ اللحوم النيئة وهضمها العسير.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لثوئيّ مُدبرة تُرتمي في أحضان "با" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدداً من النار. ترفض تفيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب تفاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسنا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمدة ألما مستديماً، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفتة من الأدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعدوا لبضع ساعات الخوف والجوع، والمساكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف منه.

تهزني تفيحه من كتفي: "با" استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة. نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ كل هذا كان متوقراً إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى للمهمة اكرهات قاسية لكن لا مناص منها فاستعدوا لدفع ثمنها.

لنفكر مليًا ودون أحكام مسبقة في قضية الهرب.
لا بد أن يكون سببه وضع لا يُطاق أو طمع في شيء لا توقّره حتى الجنة.
من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يُطاق.
لم يبق إذن إلا شره الأدمي لكل ما هو غير متوقّر فيها أو بالكمية المطلوبة.
ما الشيء الوحيد الذي لا توفره الجنة؟ طبعاً الموت بما أنها المكان الذي ألغى فيه
وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.
أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانبا
والانصراف لما أهمّ بدلا من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هذيانا
صرفا.
كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبا والانصراف لما
أهم بدلا من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفا.
فعلا هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الموت مع كل ما يصحبه من حالات
الخوف والقلق والألم... وأدعي رغم ذلك أن
نعم، بل سأزيد على نفسي لأتيقن من شرعية مثل هذه الفرضية.
أين يكتسب الموت صيغته الأكثر شراسة وقسوة؟ طبعاً فيما يسمى ساحة الوغى أو
الشرف أو سمّها كما نشاء.
كأنّي بك تهزّ كتفيك وتقول هذا الرجل حقا يستأهل كل ما يفعله به الأصدقاء
والأعداء.
مهلا. من أين لك أن تتكر أن الحرب صاحبت البشر ولا تزال مصاحبة الظلّ
للماشي في عزّ الظهيرة.
انظر كم يعتنون بها يهَيِّون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلا بعد جيل.
هم يعدّون لها أطفالهم باكرا، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم
يزينون القتل والاستشهاد من أجل الزعيم الأوحى والوطن المفدى والدين الحنيف.
أضف حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها
اكاديميات عسكرية يدربون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة
والاختباء كالحرباء والزحف كالثعابين والافتراس كالكواسر.

كم يحبّون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطقت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبوا وكبرت معهم اللعب.

حقّا ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبّة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البديء والأخضر البليد. كأن دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص بالمقارنة مع ريش النسور تيجانا وجلود النمر والتماسيح أزياء أوائلنا؟

لحسن الحظّ أنفد مخرج المشهد سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء.

كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدركات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكأن الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحبّ استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدوّ على حدّ سواء.

أختتم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبّة على متن عربة مصفحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد كان واعيا آنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبعبع الذي تعبدت له ذلك اليوم.

يا لخبية أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفف من عنف السياسة وسيقلل من حروب لا يعيشها إلا الذكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التستسترون و قوع السكرارى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان انتاج النساء من هرمون التستسترون جدّ متواضع، فإننا لم نر تحسّنا في عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلنا لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقّة والغلظة كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجبن، العقلانية واللاعقلانية، النبل والندالة، الأنانية والاثرة-موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحى وأن بطون الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان الشمال.

ثمة من قرّائي من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناثا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة اشعالها.

حقا؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكانت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واختفائها كليا في عصرنا هذا...وهذا لم ولن يحدث.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإننا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل ما زال قائما بإقناع القارئ بجدية فرضيتنا.

إذن إلى الطبق الرئيسي بعد مفتحات الاستعراضات والخطب الحماسية.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرّات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سويّ وإنما عقل آدمي. إلى الخلف أيها المتسلّم من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشّاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها لتفجير الكواكب والشموس والمجرّات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليوود في ممثليهم: "أكشيين".

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضا بسكاكين المطبخ، ببقباب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بحاملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق.

تتصاعد الهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا وطننا المفدى، يحيا ديننا الحنيف بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصيٍّ من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سآبارزهم بعقب السيجار ثم أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "النسق أخايد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوفوليوبسكي في جنوده أرسقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفو فورود تبركا وبحثا عن حمايتها، فتتهمر بالدموع عيناها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدتها، أن الضباب لفت المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعابة محاربين، فالعذراء لم تذرف الدموع لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موته الفظيعة على الصليب من أجل هؤلاء الشياطين عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

القاعدة أن الأدميون وهم في هذه الحالة، يأتون من الأفعال ما لا تتصور جيرانك وأصدقائك وحتى أبغض خصومك قادرون عليها.

على القائمة قطع الرؤوس، بقر البطون، فتح الصدور، تقطيع الأطراف، الدهس بالدبابات والرمي بك حيا من الطائرة.

في سجلّ الفظاعات أيضا ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجرائيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه ايشا.

أخيرا لا أخرا إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى الكاتار وماذا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين.

على فكرة، كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر وما زلت حيا أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مساكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي

المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلتَ منها أنا الذي لا أكفت عن الشكوى من سوء طالعي.

فعل الأفعال! طبعاً قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية... فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أفضعها في فنون القتل.

اللوحة الثانية

والآن جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقال انه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.

تمعنّ معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للأدميين... وانظر النتيجة!

أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الأدميين ... وانظر النتيجة!

يتسلّق ابليس -الذي أصر الصدى على أن يصاحب الفارين- قمة جبل الأجساد المتراكمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكّم والشماتة: وأرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خرّبوا حديقته.

نعم لكن هناك أيضا جولة أشوكا بين تلال الجثث بعد انتهاء المعركة.

إنه الامبراطور الذي قتل تسعة وتسعين أخوا للوصول إلى السلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك. مما تقوله القصة أنه صدم بما رأى، أنه استنقع ما أتاه من قتل، أن صرخة أم مزقت قلبه وهي تتوسل إليه "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي". وأنه قرّر أن يعتنق ديانة تنبذ العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات وأنه قضى بقية عمره رسولا للسلام وعدوا للحرب.

إن وجود الحرب بكل أهوالها في عالم بريء يفرّ إليه طوعا آدمي بريء كلام لا يصدقه عاقل، لكن أن توجد في عالم -منفى يقضّي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الربّ أخيرا كم هو شرّير وخطير فهذا أمر يقبله المنطق.

نعم، كل هذا صحيح ومع هذا... ربما الأدمي ليس مذنباً بالقدر الذي يخيّل لك.

في إحدى أشهر أساطير الأدميين يصفّر الربّ كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقي كل سيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلى: "لكنهم أساتذتي وأبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي كلّهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

يقطّب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟ يرفض الربّ حجج أرجونا لأنّ للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

يتوجه إلى عبده ملاطفاً:

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".

ثمّ يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقاتل فستكون خائناً يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيّل أفضع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عبّره الربّ بالخوف أم لم يعيّر.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل وممّة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهيرشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجرّباً الوعود البراقة.

- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه يواصل مناقشة الربّ.

- "ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا؟

كأني بكريشنا يهزّ كتفيه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر".

وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

يواصل الربّ التحريض مستعملا أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تغنّم لمن لا يستأهلون الغمّ؟"

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة.

- "إنّه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

ينكتّف صمت أرجونا ثم... يستسلم.

يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

مما يتضح من هذه اللوحة أن للربّ أسباب قاهرة تيرّر وتفسّر بل وتشرّع للحرب، وأن الأدمي مضطرّ للانخراط في المشروع المجهول للربّ أحبّ ذلك أم كره.

طيب، لكن ما هذا المشروع وكيف تخدمه هذه الحرب؟

لمواصلّة التمعن في إشكالية بمثل هذه الخطورة يجب مرحليا وضع المشاعر جانبا والتفكير كما يفعل حاسوب لا زال بعيدا عن اكتساب مشاعر البشر.

عودة للمعركة. تأمل كل هذه الحيوية والأدميون ينقضون على بعضهم البعض.

استمع للصراخ المتعالي من المتقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات الأبطال.

بربك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيئها مصابيح باهتة يبللك العرق وتخنقك

روائح الأدوية؟

بيني وبينك، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعمق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يجربها وهو بين المخالب والأنياب؟

من الفيلسوف القائل: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.

تقول هذا ما تعنى به العسكريون الارستقراطيون على مرّ العصور يمجّدون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.

معك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال - أقصد هذا النوع المزرکش بالأوسمة - ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعهد الحياة، أن البطلات هنّ النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخانق وإلى المحيط المرعب.

إذن كيف سنجد للحرب تبريرها بل وهل من الممكن تبرير وجود الحرب فما بالك جعلها هدف هروب آدم وحواء من جنة الخلد؟

ألم تفتح الحرب بالقوة الطرق التي وحدث بين قبائل وشعوب فرقت بينها المسافات الشاسعة برا وبحرا ليتسارع تبادل الأفكار والبضائع والحنيات... ألم تكن أداة خلق الدول والشعوب التي تصنع بصراعها وتعاونها هذا العالم... هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب وهي التي بنتها ودمرتها... أليس صحيحا أن المدن التي تدمرها الحرب أجمل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها... أخيرا لا آخرا، أليس الدمار الذي تخلفه الحرب هو الحافز الأساسي للتجديد والتحسين والتطوير في كل المجالات أي للإعمار الذي قَلما نربطه بالحرب والحال أنها هي التي مهدت له ؟

مما لا شكّ فيه أن الأسلحة التي تطورها البشرية باستمرار هي أدوات دمار هائل. لكن تطور الكم والكيف فيها مهّد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري. آخر مثال الانترنت الذي ينسى ملايين البشر المسالمين من مستعمليه أنه اختراع العسكر في بحثهم الدائم عن سلاح يتفوقون على عدو لا يفعل هو الآخر سوى البحث عن سلاح أقوى.

إن كان كرشنا يعلم ما يجعله أو يرفضه أرجونا: الحرب شرّ لا بدّ منه لتعهد عالم ممنوع عليه الثبات على حال.

هل تكون المهمة تعهد عالم جديد والدمار مجرد آلية في خدمة مشروع لم تتضح بعد كل أبعاده ومراميه؟

**

وقال لهم الصدى إنها مهمة د فيها الامتحانات والمحن لكنكم ستنجحون فيها كلكم بامتياز.

تأتيني من مذياع السيارة المرهقة بكثرة سنين الاستعمال آخر الأخبار عن الحروب
العديدة الجارية رحاها في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت
الاستعدادات الحثيثة لها.

لمزيد تكبير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة.
سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الشرسطين تحديا عسيرا لأعصاب لا ينقصها
التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام
المشاهد. كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المتفرجين أو بتساعد ثناؤيهم.
يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرت من التراشق بالكلمات إلى العضّ وجذب
الشعر.

يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة
من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا.
أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا
النظر من نافذتي.

بربك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدث عنها مذياع السيارة وتلفزيون البيت كل
ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة
الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مَدنه
عقبا له لأنه نظر من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القذر لنوافذه هو؟

أصرخ بأمر اعرف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي
والعدوان المبيت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة
واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه ورائها تخرج لها
لسانها.

تعود البنتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصالون تصرخ بالكفّ عن الصراخ.

أخيرا الليلُ. آخر واجب اليوم.

تصرخ البنتان وهم تفتزان على السرير: القصة، القصة، القصة، البقية، البقية!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفичه مواصلة قصة الليلة الفارطة شريطة أن تكفّ عن الرقص على السرير.

تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.

- تفичه لا تعرف شيئا، "با"، أنت من يقود...ونريد قصة جديدة.

أي قصة أختار لهذه السهرة تتماشى مع مزاجي أضع بها حدًا لآلام البشر وقد أصابني منها قرف ما بعده قرف؟

قصة الطوفان مثلا!

تصرخ تفاحة من أولى الجمل:

-إنها قصة نوح...

تصرخ تفيحة وأنا أيضا أعرف أنها قصة نوح ...

ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الأدميين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة حقيقة ما جرى. وحده من خبر كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصيرية قادر على رواية القصة الحقيقية.

بعد قراءة متمعة لمحاضر جلسات المشاركين في المؤامرة الكبرى وبعد مكافحة تقارير كل عيوني المبتوثة في أهم أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكنني أن أكشف لقراء الرحلة تفاصيل ما حدث وراء الستار.

"ولما عزمّت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان"²

قف، عن أي آلهة يتحدث صاحب التقرير ثم لماذا عزمّت هذه الآلهة على تدمير الأدمية ولماذا بالطوفان؟

بخصوص النقطة الأخيرة، السبب واضح وضوح الشمس. بديهى أن الحروب الجبارة التي يستعملها الأدمي باستمرار لإعادة صياغة العالم على هواه مكلفة لحدّ كبير للعالم الذي يحتوي على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية الأخرى. مما يعني أن المشروع الخفي الذي خرج آدم من أجله أصبح يشكل خطرا داهما على جزء كبير من سكان العالم الآخرين. ومن ثمة لا غرابة فيما يلي.

التفاصيل حسب مصادرني الموثوق بها.

يومها افتتح الجلسة المهيبية أمون رع بنفسه:

² نص منقوش على حفرية من البحرين عمرها بضعة آلاف من السنين (الناشر)

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونياً، اجتماعنا الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأدمية. حتى الصدى يبدو أنه انتبه للغلطة التي ارتكبها. هو مثلنا جميعاً مصدوم من هذه الكائنات. أخيراً فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكة لا مملوكة.

يتدخل زوس بقوة:

- حقاً لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم السرعة التي انتشروا بها في كل أصقاع العالم والحال أنهم كانوا مبرمجين لقطعة محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس الحية؟!، هل رأيتم تكاثرهم المهول؟ هل رأيتم هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظها العاثر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تفتقت عنه عقولهم المريضة من أصناف التنكيل ببعضهم البعض. قلّتها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالاً، يكفي ما كُلفت.

يغتم بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

-هل رأيتم ماذا فعلوا ببحاري. حوّلوا بما يكسون فيها من بلاستيك وقاذورات لقمامات سائلة... هل رأيتم ما فعلوه بالحوث أجمل وأعظم المخلوقات... هل تقدر أنهم بصدد افراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل

ينفجر بعلى ضاحكاً:

- أه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتَبِه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فَجَرْتُ على رؤوسهم بركان، “توباً”. يا للأسف، قدرة هؤلاء الملعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ آتينا في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كمّ هائل من الأجناس البريئة! أما وحقي لا يوجد رب ثانوي أغبى منك.

يصرخ أمون رع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الإلهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.

يستطيع أخيراً كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللآت والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم. يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان. يقاطعه ووطان بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافيةين:

- نعم لنغرقهم جميعا لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحل يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرة.

وهدما ايزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس غير متحمسة لقرار تصفية الأدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي بالرفض.

من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السذاجة فيما يخص نوايا الصدى وطبيعة الكائنات التي أطلقها على العالم.

إذن كما تقول الأسطورة:

أراد الإله إينكي إنقاذ الأدمية

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخرع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطولاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصّص له. ألم أقل لكم دوما أنني لم أتجنّ على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهمّ خصائصهم الجحود ونكران للجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته؟

[تلخيص المرافعة القيّمة]

“أيها الآلهة أيّتها الآلات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقّون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الأدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلّ واسترق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصدها بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضان.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستند وقتها القانوني ونُعدّ المكان للورث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية. ختاماً أودّ تذكيركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير. هو لم يعط أمراً بإيقافها خلافاً لما يدعي بعض الزملاء والزميلات. أما ادعاء بعض المناشير المغرضة أنه ندم على خلق الأدمية فمحض افتراء.

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض بتواصل البشرية، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقر. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت.

لا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضباً ومقتنعاً أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع.

على كلٍّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تنجح خطة زملائه غير الأعزّاء.

كيف وماذا فعل إينكي؟

تواصل الأسطورة:

فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان

ويقيم في أرض العبور

أرض دلمون حيث تشرق الشمس.

ينهر إينكي آدم صارخاً فيه أن يعجل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلاً بكل ما تريد حملة من عفش حتى وهو يعلم فعلاً أنه غير ضروري.

يصبح آدم جاهزاً للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين.

يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقاً كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل ثبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة آخر في هاوية تبدو بلا قاع.

تندافع الأفكار السوداوية في ذهن حواء: شكراً لك يا إينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه الحياة، وما على آدم إلا أن يتبعني في البيمّ أو أن يجربّ خلق حواء أخرى من عظم الساق أو من أي ظلع يشاء.

نعم تفكّر حوّاء في الانتحار ملت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وذريته الشرسة ولا ترى مانعا في افسحال مشروع النجاة لتنتهي كل هذه القصة التعيسة.

ككلّ انتحار أنثوي لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل اتخاذ قرار رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخرق أشعة القمر السحاب ليراها آدم وهي تفتح ذراعها مودعة الحياة في حركة مسرحية. طبعاً سيحث الخطى لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو من يعلم أن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ.

أصرخ فيها: هيا خلّصينا، اقفزي.

ترمقني أم الأمهات بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البنتان بصوت واحد متأقّل: "با"، لا نحبكّ إذا واصلت هكذا.

يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.

إذن تنفّس "ينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حوّاء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الرّبّان.

كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من الآلهة إلى اجتماع طارئٍ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد التمرد وإحالة على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين اينكي، لا شكّ أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها السفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟

هم أعدوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها اينكي النجاة لكنها الآن التابوت والمحيط المظلم هو المقبرة.

تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.

- هذه قصة التيتانيك، شاهدت مع "ما" فيديو جميل عنها.

تهمس تفيحة لنفسها:

-أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.

نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لاعتصار مزيد من المعاني من مكافحة القصتين.

إذن تغرق الباخرة ويطفو بعض الناجين على سطح المحيط النافذ الصبر لابتلاعهم ابتلاع القرش لصغار الأسماك. يمسك آدم بشعر حواء يجزّها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟

ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟

تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البننت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسكّ، تشبّث بالحياة؟

تتصرّع حوّاء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي أداته لا غير: أعطنا فرصة أخرى. سننجز المهمة هذه المرّة وسنعود لك بهذا الذي بعثنا نبحت عنه.

إينكي الآن على زورقه مجدّفاً ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلاً. هكذا، نعم هكذا، والآن ترفّق في جذبها وغطّها بسرعة؛ إنها تموت برداً، لا تنس دميّتها إيتي وإلا سترفض الصعود. ثم تتوجه إليّ:

- "با"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألسنّ رائعة؟

بل أنتِ أروع من رائعة يا حيوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

هل يجب أن نفرح بمثل هذه النهاية لانتصار الحياة على الفناء أم أن نزداد همّاً لتواصل محنة الأدمية ومحنة العالم؟... هل نغبط الغرقى ونبكي سوء حظّ الناجين أم نبكي سوء حظّ الغرقى ونهنئ الناجين؟

كأنّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة.

مهلاً يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسّمة بين حنين جارف للعدم وإغراء لا يقاوم للوجود.

**

كم منها في ملفاتي تعود إليها الذاكرة تتفحصها بمتعة لا تبهت أبدا!

في هذا اللحظات المباركة التي يمرّ بها دوريا عالم لم يعد ساحة صراع بلا نصر نهائي لأحد ، كل المواضيع عن جيرانٍ وصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به اليهن... عن الزواج الذي تأخّر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّر القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى للضيوف. إنّها ليلة ساخنة والضيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضيع أخرى ستشّد المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المفقور من القاهر وإنما طرفة الحبور والمرح.

وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العمات والخالات الشكوى الضاحكة (الرجال! الله وكليك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمّت سرا وأن العرس قد يحصل حال عودة الخطيب من بلدان المهجر محمّلا بالهدايا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتحلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الاحرام تؤكد أنه لا خوف من تجربة الوجود.

يجمع الحبّ كائنّين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعر كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالي كتّمت سرّ الهوى بالذجي لولا شمسُ الغُرر (ابن الخطيب)

مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر

وطرّ ما فيه من عيب سوى أنه مرّ كلمح البصر

يتكوّر بطن حوّاء شيئا فشيئا فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمّره بإعداد القهوة لأنه يتبجح دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثمّ ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذائقتها. يفعل التواضع يستحثّها بخبث

على مواصلة المديح، فقطعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

-

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يصل الطفل الموعود في الآبان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تنفتح الوردة لإطلاق أريجها.

ها قد أصبح حاضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كائنا موجودا في هذا العالم. لكن ما معنى هذا المصطلح الذي يستعمله الكل ولا أحد يفهم بالضبط عما يتحدث؟

المهم أن الطفل الآن مصدر فرح لأم فخورة وأب متهيب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمام وخال، من عمات وخالوات ... كيف لا والرسالة التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصلة الطريق إلى أبعد نقطة.

كم من ذكريات عن طفل هائج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صبية يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئا قدر شد شعور البنات.

ها هو يبحث عن أعذار تضحك كل من حوله: والله يا "ما" لسئ أنا. يكذبون علي. أه يا أذني. تؤنبه الأم الأزلية والأب كَفَّ عن الركض أصبنتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجداتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تم الاستيلاء عليه من قرصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجيدات والخالوات والعمات -خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقديمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بؤسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبولنا علي أكثر من مرة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقل هذه اللحظة-أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

كيف لا والحال أنه لا أسهل من توليد الفرح في هذا العمر أيا كانت الأسباب القادرة على توليد الشعور المبارك من بين كل المشاعر.

يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "منوع

الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظمّ. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنوّة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكّاس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من العشّ. ثمّ ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

الفرح أثنى ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... الحالة التي تمرّ بها الذات وقد توقف الزمن عند حاضر مكتمل لا حاجة لها بذكريات ماض جميل مصنوع من الخيال ولا بمستقبل مشرق مصنوع من الوهم.

-

ها قد أصبح الطفل أبا وهو المكفّ الآن بالسهر على تغذية الفرح لكيلا يتوقف العالم بين أزمة وكارثة عن اتخاذ حالته المباركة هذه حتى ولو لأقصر زمن. تهزّني تفاحة من كتفي بقوة:

- "يا" كفى نوماً، وعدتنا بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة ل'ما' ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة اللذيذة.

لم لا شريطة أن أغتنم كل فرصة للاستلقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع برؤية تفيحة جاثية على ركبتها تتأمل مندهشة كأننا ما زالت لا تعرف له اسما في يتحرك على غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلزون.

من جديد تفاحة واز عاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "يا"، ارتفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفيحه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلاً.

هل من خيار آخر غير النهوض متناقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظّمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتني أعدّل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.

تصرخ تفيحه فجأة وهي في قمة الجذل لقدوم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أغني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلتقط تقيحه عُود خشب ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكل مشغول بالشمسية دفاعا عنها وافتكاكا.

تنتبه تقيحه لمرور الساعات وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما" تنتظرنا. عَجَلًا.

لكن تفاحة منسغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:

- "با"، انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك "ما"، يجب أن أجد حلاً لكيلا تتفطن.

تضع البننت إصبعها بين أسنانها مستغرقة في التفكير لإخراج اببها من ورطة صغيرة.

- سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظفه.

الحلف الأزلي بين البننت وأببها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلف لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضد الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!

كأنني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُوء القَط. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. مَنْ يعلم أحسن منه أن هذا الأدمي الممعن في وداعته، لا يفعل سوى استعادة قواه للانقضاض عليه مجدداً؟

المهم أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه فما بالك بمحاولة التخلّص منه.

أتوجه إليه: انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابتسامته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.

نعم إنها لحظات لا تقدر بثمن وهي التي يكشف الوجود وجهه المضيء وأنه ليس فقط صراعاً مريراً من أجل البقاء.

تندافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجه منعا صارما بدخول بيت نُظف لتوّه ونحن بكل هذا اللبل والوحل ملء أحنيتنا. تصرخ الزوجة المزممة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم - وخاصة سيادة الأب- مسؤولية الزكام وما ينجر عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكرا على الباقية يا

حبيبتني إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئاً بخصوص الأحذية. تُنزع كلّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً. تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

- أعدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذيذة إذا بردت.
- الدلال مع "با" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدّد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدية الأمر واستحالة تجاهله.

أخيراً وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.

تحتجّ ضاحكة: كفى قُبلاً بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخفونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة.

-

وفي هذا العالم بل-قل طوال حالته المباركة هذه-يمكن لكل أب مرهق أن يتمتع بأماكن توفر الهدوء والاسترخاء مثل الحدائق العمومية. ها أنت تبتسم لرضيع تدفع عربته الصغيرة أم جميلة تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنصف إلى المشهد العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكانتات تتدافع إليها لتأخذ نصيبها من الخُب ومن الخُب.

أيضاً المقهى الصغير على الضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمتجهم، كلهم استبتنوا نصيحة الشاعر:

قال البشاشة ليس تسعد كائنا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإنك بعد لن تتبسما

إنه مقهاي المفضّل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أنتنفس مء رنتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه والظهر مسنود إلى " جونس" الشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكان آخر يستخرج أحاسيس ومشاعر بالغة الرهافة والرقّة تجعل من تجربة الوجود النعمة لا النقمة التي نعاني منها في الوجه المظلم للعالم.

خذ الأسواق مثلاً. كم أحبّ الوانها وروائحها! كم أحب صراخ باعة مرحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي مشادة أرجأوا معاركهم التي لا

تنتهي! كم أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي
وعما يأخذ. كم أحبّ التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والتوابل الآتية من
أبعد أصقاع العالم أنتقي ما أحتاج لألذّ طبق يساهم في الحفاظ على صحتي
ومعنوياتي!

على ذكر الأطباق اللذيذة. هل ثمة مكان أحسن من المطبخ في العالم وهو في حالته
المباركة هذه؟

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبى حذر مفاجئ

- أنقذت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة
مشفقة.

- أحسن من هذا....

- لا وجود لأحسن من هذا.

- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. هيّا اتركني
أعمل.

- الآن؟ في منتصف الليل.

- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوّب بعض الشوكولاتة
وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.

كم من مرة رأيتها تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة
وبخشوع من يصلي صلاة الجنازة والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت
صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.

دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة
الطهي... والنتيجة كعكة جافة كلياً لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلها
تؤكل أشلاؤها بالملعقة.

هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أدنى.

في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة
الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.

- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟

- تظنّيني غيباً؟

- فسّر.

- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول لـبوزون" هيـجز، فإن...

- لا تكن سمجا. سيصبح سائل الكعكة يابسا بأسرع من الخليط الذي وضعتـه في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابسا هو الآخر.

- هذا بالضبط ما فهمت وسأهنئ نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفـة. على كل حال، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.

تنتهد" ح"، بـداهة غير مستعدة على غير عادتـها للدخول في أي مزح.

- أتساءل أحيانا ما الذي حَبَّبني فيك؟

- عجبب، إنه نفس السؤال الذي يقصّ مضجعي...متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟

- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟

- لا.

- إذن تفضّل على برّه.

- كما قال لا أدري من: نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.

- انتبه، لا تضطرنـي لاستعمال العنف ...

- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.

تـهاجمني" ح" بين ضحك مكثوم و غضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنظلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ موصده الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح" ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.

الحياة اليومية (رامبو)

بأعمالها المتواضعة السهلة

مهمّة بامتياز

كم تنطأب من الحبّ

نعم المطبخ صرة العالم وهو في حالته المباركة هذه؟

كل الأفعال التي تمارس فيه لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخصّ بالذكر منها أفعال أكل، تذوق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالم عبّره أغلب المسافرين وفعل جاع أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروس، بريك بالتن، طاقين جبن، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست برّبك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما

تضيفها إلى ما وضعته الأدميةُ النهمَةُ تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكري والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنمو وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

لنتذكر فضل المطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقي وتقدم.

أليس أولُ مختبر تمعّن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخنّها ونتمتع في نتائجها؟

من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنساخ. حقًا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف.

هنا لا بقوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّررنا -مع بالغ الأسف- إلى التهامها، خاصة الدجاج بسبب كل ما عرّف منا من خنق وسلخ مُعتبراً زلّة لسان لا تُعتقر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثاً.

أغتنم الفرصة أيضا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مذهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز، والتين والعنب والبرتقال.

تقول، نسيب الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منّعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟

تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار نسب في آلاف قتلها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة ولذاتها النادرة.

بربّك من أعان البشرية أكثر وسهّل رحلة الملايين: مشاهير أباطرة الدين والسياسة والعلم والفقّ أم من نعرف ولا نعرف من الطباخين.

ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والباذنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود بينما نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أوهام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المادية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتَّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شكِّ في السلامة العقلية للطباخ؟ أخيرا لا أخرا، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة تسمم، أو تعدل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرِّ القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبقى ولا تذر؟

تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطبّاخون. بديهى أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأهوال التي نقاسي منها جيلا بعد جيل.

من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة المحسنين للجنس البشري: إسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبيدة الجراح أم الذين اخترعوا البقلاوة والمقروض والغريبة والشبكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية؟

-

ثمة مكان يمكن أن ينافس السوق كصرّة العالم وهو في حالته المباركة هذه: الملعب. الملعب! أليس المكان الذي أريقت فيه دماء القرايين البشرية والحيوانية على مرِّ العصور، المكان الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذاك، المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة، الذي تنظم فيه مسابقات الغرور، الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى، المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم، المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم، أحدثك يا صاحبي عن ملعب العالم وهو في حالته المباركة هذه على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وأفخم طراز من ملاعب العصر وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف من المتفرجين وصراخ الفرحة والحماس في أوجه.

السقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الدمار والموت التي تزمرج حولها وداخلها.

كيف لا يتفجّر هذا الفرحة عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيرا تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيرا ولو لزمان قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود. لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإبذاء. على المدارج لا اثم ولا فسوق. على الساحة التي أمامهم لعبة قواعدها

واضحة لا مكان فيها للعشّ والظلم...وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الربّ المخفي يعاقب فوراً وعدلاً كل من يتناول عليها.

فجأة ينقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئاً فشيئاً يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهباً كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة الشماريخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاخب جذلان وسعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسحب الصنم بعيداً إذ لا يجوز إبقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التواري بعيداً عن الأنظار ليقى محفوفاً بالغرابة والسرّ.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبد.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي طبقة أعمق من الرسائل والمعاني. إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سكّان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب "كاسلعالم".

ثمة إذن داخل فرح الأدميين بالتواجد جنباً لجنباً لا وجهاً لوجه، فرح آخر بأن هذا المخفي دوماً عن الأنظار موجود فعلاً، بل يسعنا تأمل شكل له لا يهمّ أنه شكل من وحي تعطشنا لأي شكل يتخذه المقدّس.

كم تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية... هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير... كم عبد البشر من أوثان قادت من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار وكم سيعبدون منها في المستقبل! آه لو قيّض لي رؤية آلهة وكهنة وطقوس دينيات العشرة آلاف سنة المقبلة!

تتواصل الطقوس والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعا لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض.

فجأة يتعالى صراخ الجدل وقد استطاع ممثلونا على ساحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادراً ما نصيب شباكه.

نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتمي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأقل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء.

وفي هذا العالم بـل قل طوال حالته المباركة هذه-تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفاق في وجهي. أرددش معه وأنا في قمة الحماس والجدل، أليس يوما رائعا؟ حتى الطقس يريد السلام. هل تتصوّر أنها أول مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي سنشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتما. ثمة الفرحة بأننا أكثر مما نتصور وأننا كلنا متضامنون متحدون ضدّ نوبة الدمار المقبلة... قد نستيق الأحداث نتصوّر فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب الملعونة نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها ويخرج الأغبياء للاحتفال بالنصر.

وفي هذا العالم -أو قل وهو في حالته المباركة هذه لم يعد لنا حاجة للأبطال المزعومين وساحة المعركة تتحول من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية والبطل هذه المرة... الدجاج المحمّر.

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدو؟ من؟ المهرج الرسمي! الذي يرافقه في حلّه وترحاله. ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغيبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه مذكرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عينا. آخر استعطف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شبعا،نأ، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومتمنا في قرارة نفسه قيام المهرج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله.

يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة “الوغي”.

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.

ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهراً... دجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئاً يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟ |

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصَفِّ بعد؟
- لا والله.

- هل هتكتُّ لك عرضاً؟

- لا والله.

- هل قتلتُ لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقتُ منك شيئاً؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قتلته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العنّ الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعاً مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسماً وروحاً.

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- تتحول ساحة المعركة في هذا المشهد إلى ساحة لعب بين أخوة لم يعد لأحد قدرة رميهم في أعناق بعضهم البعض.

يغتنم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائزة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضاً يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصبّون سخطهم على أكلٍ لا أشبع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّ كرة قدم فيتدافع كهول استعادوا طفولتهم لمباراة ستبقى في ذاكرة الأجيال.

يتعالى صراخ المرح والضربات البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفعها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السموات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية ويقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فيطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

-

في الملف الذي تبلغ فيه فرحة الحياة ذروتها -والعالم دوما في حالته المباركة هذه - يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرّجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم أمامي بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهرواتهم الموجهة.

إنه حفلٌ آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملوّنة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضع". بداهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناس يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسمّ حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلى وإن بأزياء مختلفة وبطبول تفرع أنغاما مختلفة تدرع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو أورلينز، نوتينج هيل، اورورو، تنريف، كيبك، بازل، ساو فنسنت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرح الجماعي.

لا زال الفرح سيد الموقف كل ما يتغير طرق التعبير عنه.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يتربّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون ينحني ملك الزولو بمئزره الأحمر وطاقيه جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصيني فتقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجله خشب الركح. تتقدم الراقصة البالينية لتنتنى على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكّر الليالي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

في فضاء خيالي توصل المديعة الجميلة ذات الشعر الأسيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريبر ماء السواقي: من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطفٍ غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصي الموضوع صرّح لنا سواق القطارات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة زفّع المسافرين السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك. والآن نمزّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان.

-

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- تنهار في الجزء الخيالي من فضاءاته الأربعة جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقاتل لمعرفة اي القوارير أحقّ بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الادييرة فرغت من رهبان وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر فهموا أخيرا انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر حتى داخل زناناتهم المغلقة.

خلت في القفر أنى اصبحت وحدي / فاذا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)

هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من باخرة تواجه أشرس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصور ان هذا سبيل النجاة بالنفس... وأن ادارة الظهر لمآسي الانسان بحثا عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في الآم وآمال البشر.

أجمل بركات هذه الحالة التي يمر بها العالم دوريا أنه لا أحد يدين أحدا والله نفسه لم يعد يعبأ بخطأ أو خطيئة.

شاهدت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيام)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس

ما أروع كل هذه الحالات التي نكتشف فيها نعم الوجود، هذه النعم التي لا تستمد قيمتها إلا من ندرتها وبالمقارنة مع نعيش أغلب الوقت من محن وامتحانات!

بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كأنه حلا للفنان الأعظم الذي علّم الرسم موني وبيسارو إعادة تلوين السحب.

ها هو يضع بريشته على أطراف رماديهما الكئيب لمساة جد خفيفة من الأصفر الوضاء متابعا بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرّج حواشيها. ثم كأنني به يغيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضما المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد.

أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن اقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمات أغنية غناها

أقبح - أجمل صوت لأكرم فنّان.

" أشجار مزهرة

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصفحون بعضهم

قلت في نفسي

What a wonderful world!

ترى ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل؟ بانتظار أن يجد أحدنا ردّا وافيا لا بدّ أن يكون هو الآخر جميلا، لا أحسن لكل مرتحل من اتباع أمر أحد كبار المنتهيين.

عش للجمال تراه العين مؤتلفا في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)

خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين

حتى يعود اليك انتباه الطفل والشاعر والرسام والعالم والفيلسوف لروعة هذا العالم اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين كأنك تتعبد.

افتح عينيك كما لم تفتحهما يوماً لتتأمل عبر ومضات البرق الخاطفة ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا قنطرة فوق شرخ النور. لم يبق إلا رصد كيف تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السماء إلى صمتها على استحياء كأنّ الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوماً في صمتها المتعالي. ركّز الآن على الطيور وكيف تخرج فجأة من مخابئ لا يعرفها أحد.

انظر كيف يرتفع قوس من الألوان المبهرة بلا أعمدة، يمضي تحته الأدمي مظفراً منصوراً والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد وكيف يختفي تدريجياً كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبورة السماء لا تريده لسبب مجهول علماً ثابتاً كالشمس والقمر.

نعم صدق الشاعر

ثمة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت

جنّاه للموت فقط... أم للمهمة الغامضة التي لا نستريح من أهوالها في واحات الروح والجسد إلا لنعود لطريق المسامير والشوك نجري وراء هدف غير محدّد؟

**

وقال لهم الصدى أنتم مشاريعي الحرة المسؤولة فابهيروني بما تبعدون

على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرات الأدميين على الدمار ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخ وأهات وحشجة... على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة الغارقة في صمت مهيب التي سنشهد الاحتفاء بأروع ما يقدر عليه الأدميون في مجال الخلق والابداع.

يا للفرق الهائل بين بشر ساحة المعركة وبشر هذه القاعة رغم أن لهم نفس الأجساد ونفس العقول والقلوب!

هم الآن وهنا جالسون جنباً لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى ثرثرة هامسة يحاذرون من السعال والعطس. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران القاعة حروبهم وخصوماتهم التي لا تنتهي. كلهم انتباه، انتظار، تشوق إلى ما سيحرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجربونه إلا نادراً.

أمامهم بشر آخرون منهمكون في تجربة آلتهم للتأكد من جودة الأصوات التي سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف.

يتوقف البصر مطولاً عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلتها لأنها منافسة شرسة، أنه لا عازف كمنجبة واحد سيضرب عازفاً آخر مدّعياً أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الأضواء وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي آله على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان!

تأمل الآن الأدمي الواقف مديراً ظهره للمستمعين وجهاً لوجه من سيتلقون أوامره الصامتة.

لن ينهض أحد من الجوق ليبتك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعية أمامه.

هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليلبور أحسن ما عنده همّه الوحيد، إبراز المواهب والتنسيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الأدمي الذي تُنفذ أوامره ونواهيه وهو لا ينطق حرفا ولا يهدد أحدا نموذج كل من يحكم؟

نحن إذن أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جمّدت صراع النرجسيات ووحّدت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل.

أين ترى شيئا كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضا خارج تنظيم الأوركسترا السيمفوني؟

يتصاعد صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما ليذكروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الأدميون ارادتهم.

الموعد الليلية مع رائحة من روائح عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية.

يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مراهقا.

- يا بُنيّ إنك تصمّ آذانَ الجميع والجيرانُ يتذمرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلا نهارا؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئ ابنها نصف عار، منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقًا بدأتُ أخشى أنك مصاب ب....

لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما بموجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع أنغام ترفع من ينصت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.

ذات يوم تعير المراهق فكرةً مثيرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة الإسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟

- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهابدين وتشايكوفسكي.

- مَنْ؟ لا أريد إلا بتهوفن.

- انتظر، أنت محظوظ. أُظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسفونية التاسعة.

تمدّ إليّ العجوز كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعاطفا أم تهكما ثم تقول لي ضاحكة:

- التاسعة هي السفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغنيّ ليس بتهوفن.

تتكرر المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى مَنْ يتوجّه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزءٌ من الشكر لامرأة رحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن تُصدّق أن صبيها بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبّا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرٍّ ومن قبح.

فجأة يصمت النشاز المفعل لتتصاعد أولى نوتات السفونية العظمى.

يدويّ قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لا في السماء.

تتحرك أعماق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكأبة وترتفع معها إلى أعلى درجات الفرح.

هذه السفونية التاسعة معلّم بناه الأدمي بتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور لاوتسو وابن عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات أروع القصائد...مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين من المادة الصماء كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ.

يا للمهندس الفنان الألمعي الذي جمّع أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة للصدف أو للأيادي الجاهلة ليستخرج منها أقصى ما يزخر به العالم من جمال!

هل ثمة شيء يبرّر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها غير قدرتها على اختراع الفنّ لإعادة بناء العالم أو لخلق عالم موازي أجمل حتى من العالم الأصل؟

لكن يا للثمن الباهظ! من يستطيع استحضار ما عاناه بتهوفن من آلام قبل وأثناء تجميعه هذه الأنغام التي سحرت الملايين؟ أي أزمات نفسية رهيبة دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه فقدانه السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف؟

وقبل بتهوفن من يستطيع تخيل عذابات شبيرت وموزارت وكم من عمالقة الفن والفكر الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه....

ثمة إذن ثمن رهيب للإعمار يضاف لثمن الدمار أيا كان فضاء إعادة التصنيع.

لكن أليس لكل ثمين ثمن باهظ وهل ثمة الآن وهنا أثنى من هذه النغمات التي تمسح
عن الذات كل ما علق بها طوال الرحلة من أحزان وآلام.

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرحة عاد سيّد العالم، تصالحنا
أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات، بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته،
راض عن أدائنا وفخور. انطلقى يا ذاتي إلى الأعلى، حلّقى، رفرفى، زغردي،
غنى، ارقصي، ارتفعى، ترّفّعى، توّهّجى، أضيئ لي ما بقي من الطريق.

تتعالى حناجر جوقة المنشدين من الرجال والنساء بالنشيد الرسمي للبشرية انتهى
الصراع بين الكلمة والنغمة تظافرت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها
من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل
شعر بالنغمات.

تقدّموا (شيلّر)

تسارعوا

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه، ابحثوا عنه.

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان "إني بين ضلوعكم تقلّبي الأنفاس جنبا إلى جنب"³

للبحث عنه شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وقدماء الإغريق إلى دلفت وقدماء البريطانيين إلى ستونهاتج-درنتون وقبلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار وبركان وهضبة مرّبة وسط صحراء بلون الدم.

هم يشدّون في عصرنا هذا الرحال إلى مدن اسمها شافين، كوباسان، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك.

بحثا عنه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنتهد "ما":

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوما.

لي فقط؟ كان الحجّ حلّمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت البوح به حياة من أن يُعتبر طلبا وتكليفا... كم ردّدتُ لنفسي أنا جدّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت، هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.

- فات الأوان يا بني، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليها والسرطان ينهش جسدها وعليّ والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك... لست مستعجلا، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلا هذه المرّة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تمّ اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تعرفُ الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

مؤكد أنني سأعوّض زميلا تدخل له كل كibar القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوّض. اللهم إلا إذا

³ ابن عربي - من ديوان ترجمان الأشواق (الناشر)

عَيَّنوني للمهمّة لأنتسك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء فيرتاحوا مني نهائياً.

- بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوماً أسئلتي عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجاً وما زلت شاباً؟ حدثني عن كل تفاصيل السفارة المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف ما حدث أم أنافق أنا أيضاً؟

فيما نسميه الواقع يبدأ الرحيل بالوقوف لساعات مضمّنة في طابور تسوده الفوضى لإجراءات البوليس وتسجيل حقائب ملأنة بالثياب وبما أعدّته زوجته كأنها تخشى عليّ من الموت جوعاً. يواصل الشيطان المكلف بالسخرية من بأحلامي العبث بأحلامي بحشري في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها.

عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقيبتني عن الكتب الممنوعة، ثمّ التدافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحج.

أي حلّ غير الاستجارة بفناء الخيال لمحاولة نسيان الضجيج والحرّ وروائح البنزين والعرق؟

كم حلمت بهذه الرحلة داخل الرحلة! ... خُطاي في خُطى أجدادٍ كان حجّهم إلى الأراضي المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر ناقّة بيضاء علّقت في عنقها الأجراس والتمايم... النوم بالنهار والسعي ليلاً تحت القبة المرصّعة بالنجوم... المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى لمواجهة الأخطار الكامنة في كل منعرج...

فجأة يدوي زعيق الفرامل وصراخ الركّاب:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيّدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تنفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرّته بذلك وكنّ في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتني. أيقّل أن تصبح أقدس سفرة حلمتُ بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفارة؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعاً. لم أكن يوماً ضيفاً ثقيلاً على بشر أو إله.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلتُ من الحافلة متوجهاً إلى حقيبة رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض ورائي والقمر يقهقه ويحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقبّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحقّق فيّ مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهمّ أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة الى أمثالي أهمّ من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعده مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أسّرت لأقصر الطرق المؤدية إليه.

أخيرا صراخ سائق الحافلة: يا الله، كلّم على برّة بهدوء، لا تتدافعوا لا تمشوا على رؤوس بعضكم البعض.

حال وصول المدينة التي توصف بالمنورة آخر ساعات الليل رميئُ بالحقيبة اللعينة على فراش النزل. هرعت إلى المسجد أترنّح من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرهم.

زحمة مخيفة. تدافعُ فظٌ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الأدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرّب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأدميين بأكثر العقوبات إذلالا.

ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأدميين.

لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبينوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا للإبهار واستغلال إيمان البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!

ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة للقديسين والمسامير المزيفة لصليب المسيح!

بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.

حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنني من مثوى هذا الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعته... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعنا لغة الضاد وطنا.

يصرخ فيّ أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟

لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيب، كل الخشوع، كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلّمنا العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.

أجيل البصر مطولا بين مثواه الأخير ومثوى الصديق الراقد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحركون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.

تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إليّ...

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساهر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على دنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي. قالوا وقد حان وقت الصلاة في مستوصف البعثة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيب قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يرثل في الأثناء. كان حقًا موقفا محرجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمري!

تتسع ربع ابتسامه "ما" وتعود لها بعض من حيويتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها. - من استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدوية. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. نتحنت بوقار ثم توجهت إلى مساعدي قائلا: لا فضل هنا لطبيب على ممرض إلا بالقوى ثم من شيمنا تجيل أكبرنا سنًا، فليتقدّم فلان يوم بنا هو الصلاة. لا تقوى "ما" على التماسك فتتفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلطة" با" لما فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاغية يأمر وينهى لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولما ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم الأبدي من سماع بقية قصة مشوقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يقي بحقه أو يستفده وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها...

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدة الاكتظاظ... ومع هذا يا له مشهد يا أمه ليس كمثله مشهد في كامل عالم الأدميين.

طواف البشر حول بيت ربهم كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرة... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض، أصف الوجه الآخر للعالم أم التزم الصمت الحذر؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس وأنا أمام أقدم وسائل علاج الذات مما يلحق بها من امراض نتيجة طول الاحتكاك ببشر أجزم أنهم هم من علموا الشيطان مهنته. يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولب بالشيء وبعبكسه، وكأنّ بممتجنه نيّة مسبقة لإسقاطه في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. تصوّر ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بالسجود لادم لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم!

ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظف عنده أن يغيوهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لَمَا أغواهم غاوي! تتوجّه أفكار المراهق الساخر للكهل المتزايد حرّجا: مَنْ تلعنّ أوّل معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لست أداة أو بوقا؟ أليس هو جدّ كل الثوار الذين تدّعي أنك واحد منهم؟

ثمّة أكثر من آدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السياب)	رباه لو أن في طول انتظار غد
طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا	وما كان حتما علينا أن يعذبنا
يوم الحساب ومثعنا بدنيانا	النار أشهى فهات النار تصهرنا
إلا شقيا على الأولى وغرثانا	إن كان لا يدخل الجنات داخلها
فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا	وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا. إنه الوسواس الخناس هذا ما علمني سيدي الشيخ وما كتبتّه على لوحى في الكتاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضع من النص مصارحة الأدميين بالحقيقية التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّر فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثّه عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم

أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعت فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجذّر فيكم، أزلي، متجدد لا يجتثه فنّ أو علم أو دين.

ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسبًا لكل الإمكانات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لنتم أنفسنا والتخلص ممّا بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلّ مشغولٌ بتصفيّة حساباته مع كيش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأنّ التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن لكل شخص الخروج من الزحمة المرعبة حيّا.

قال فيهم أحد المنتبهين: كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها.

ها أنا أجرب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلاتٌ صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسام الضاغطة على جسدي بحثًا عن نفس قد يكون الأخير؟! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقِي اليسرى معه إلى جوار.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للادميين وهو الذي يحاولون عبثًا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجوز مكانهم في الحافلة. يعنونون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيونًا متجهمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق حدّك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي يصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في أن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقتناعها بتأدية أخطر طقوس الحجّ والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

نتهار المرأة البدينة أمامي مغشيا عليها بين أقدام-بل قل بين حوافر-قطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة.

ثُرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجينه غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثاً لاستعادة الفضاء وكلّ الروائح التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟
كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يختنق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟
من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغائتها إلى اليوم في أذني وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوّح بالوداع لعالم غير مكثرت.
كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضاحك ليس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدها ليقول لي اللعين: الزم مكانك وإلا الدور عليك كلّكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسى على حافة السرير.
- هوّن عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوماً؟ لست مسؤولاً عن موت هذه المرأة.

تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.
لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصلّيت بين جدرانها.
تنصبب تفاعحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهش وهي على سرير الموت.

تنوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.
- "با"، ماذا قالت جدّتي لما قلت لها...؟

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلّ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.
تنوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدّق. إنها دهشة من يكتشف البحر تجرّ منه ماءه فالساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يومُ غَسَلِ الكعبةِ والملكِ بنفسه من يقوم بالعمليّة. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرُ أمرِي لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهويةّ والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.

بيادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفلُ-المراهقُ-الكهلُ فمه يكاد لا يصدق ما يرى.

في معابد الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه بتشييد أعلى المباني لا يترجعون تزلّفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرّون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه ولفظٍ على تصوّره؟ طبعاً "هو" ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لنشعر بحضوره الصامت حولنا وداخلنا... لتحدث المعجزة التي أسمىها اللقاء.

تنهار فجأة كل الحواجز كالسدّ أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل... الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد... الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر... الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم... الحمد لك والشكر على الموسيقى على الحب على هديتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجرًا: الحمد لك والشكر على الجراد، على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلبُ منه شيئاً!

خاصية قارّة في الأدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خارج الذات قوةٌ محبّة تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلاً يُستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالماً بأسره لنعبره سادة لا متسوّلين! كم تشمّنت دوماً في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف

أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها! كم روضت نفسي لأكون من غير طينتهم
أرفض أن أتكف بشرا أو إلهة الأنفة أمام البشر والحياء أمام الله!
يواصل الطفل صراخه وكأنه لن يغفر للغبى الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.
- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟
من أحوج إلى الإعانة مني خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة
المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا أغصانها، يا كل أوراقها ويا
كل ما ثمارها، النجدة، إنني يانس إنني بانس، إنني تائه، دلني على الطريق.
غريب سرعة استجابة الدعاء. إنه "هو" لا غير الذي يدلني على طريق الخروج
والحاجب يرفع من نبرة همسه: يا الله برة، وصل جلالة الملك خالد.
كل الفضاء يعقب بامتعاض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب
أكثر مما فيه من التقريع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني!
معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتبجح، يا من
أغدق عطابها لا يهمله حمد أو شكر، يا من أوضح وفسر وبين كل شيء ونحن من
يصرون على عدم الفهم.

حانت لحظة الوداع. ينفطر العقد ليركض كل واحد في اتجاه.
ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكان يحج له الأدميون لم الشمل دوريا لعائلة تاه
أفرادها عن بعضهم البعض لا يحنون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقهم جمعهم
ولو مرة واحدة في هذه الحياة!
تتحرك الشرطة بحثا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة
الربوع.

فإن غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)

وليس غرامي بالأماكن والتراب

تستعجل "ما" بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-أرجو أن الإياب كان أقل تعباً من الذهاب.

نعم كان رجوعاً رائعا لكن كالعادة في الفضاء الذي لا يعصى له فيه أمر.

أخيرا مدينة السلام للسلام على روح الذي تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل
تعلّمه... مازة يتغامزون: درويش من أراضي المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ
عن آثار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة
الذبح... هنا جلدوه ألف سوط وهو يردد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله
اليسرى... هنا صلبوه العذر مخالفة الدين والسبب مخالفة السلطة... هنا انتظروا ودمه
ينزف إذن الخليفة بضرب عنقه... هنا علّقوا رأسه... هنا حرقوا جسده لتلتحق ذاته
بالذات القدوس... ورائي في المسجد يهمس في أحد المصلين: يقول لك الشيخ هون
عليك حتى لا يقتلك كل هذا الألم ثم يخفتي قبل أن أفيق من ذهولي... والآن إلى
بلادي التي جارت علي وما زلت أصر أن فيها ما يستأهل مواصلة حبّها... قافلتني

محملة بقرب ماء زمزم ، بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت،
بعطور سقطرى ويكل ما جمعت من نفائس المخطوطات... لا بد من البحث عن
قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور القافلة لأعطيهم منابهم مما تنن بحمله
الإبل... عند وصول واحة الآباء والأجداد توزيع ما بقي من حمولتها واطلاق
سراحها لتتعم هي الأخرى بالحرية... أنا الآن داعية الشيخين أو اصل تعليمهما في
كل البلدان... أمامي السلاطين وفقهاء السلاطين في صفوف متراصّة والشرر يتطاير
من عيونهم... الفرار! إلى أين والدهاء أخطر سلاح السلاطين الفاسدين في كل
مكان؟ الثبات، الثبات لمواصله رسالتهم وإلا أي جدوى لحياتي!
تلمس "ما" كتفي برفق لأواصل حديثا هو كل ما يشدّها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى. أعد كيف كان الرجوع، أنا متأكدة أنك نسيت بعض التفاصيل.
- أه يا أماه! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات
السابقة. اغتتموا كلهم فرصة الحج لشراؤها لبيوتهم وأيضا للبيع والترّيح. "حجّ
وحاجة" مثلما يقولون. كادت الطائرة ألا تقلع بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به
لسفرة آمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بجهاز فيديو.

- أنا! أنا ابن أينفئاس عدت بفيديو مثل بقية العامة! وكمشني عون الجمارك الوحيد
الذي لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزفر من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع
الغرامة! وكدت أعثر في جدّ أبوه الكلب هذا الفيديو اللعين وأنا أجرّه مع حقيبة ملأنة
بالتياب القذرة، ودفعني أحدهم بغلظة ليركب قلبي آخر تاكسي موجود في المطار ...
من أسمعك هذه الاقتراءات؟

- أنت ... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جئت به خصيصا ل....

- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّه سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد
التعيس الذي لا يصدق اقتراءات الناس عليّ؟

لا نجرّب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما
نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.
تسلط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لأخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس، عِدني فقط أن تُصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمّ بأن أطمئنّها لترحل واثقة بأن الحرب التي
أرهنّها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تكي لا هي ولا أنا.

- على فكرة، أتندكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة
ويعيد طبع أوراق المكتب وحتّى ملفات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسم
كان يدعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أبوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أمامه، بل قُولي من يمثّل أمامه ولو كان القطّ.
- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
- من الذبيرة والقسمات، الأمر ليس الكفّ عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت.
- من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا تفاحة؟ من أنت يا تفاحة؟ وأنت التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدّمت إليّ يوما تحت اسم "يا"؟
- لا أحبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع.
- تظنين أنني أعتاب من هبّ ودبّ؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما: كن أسدا وكُنني؟
- واصل، لا أريدك أن تسكت.
- أتذكرين قصة وصول أيفنفاس الأراضى المقدسة كما رواها هو بنفسه...
- يا ولد!
- طيب قصة وصول زوجك العزيز وأب أطفالك المحبوبين...
- يا ولد!
- طيب قصة وصول الرجل المسمى "يا". إنه هو الذي روي كيف وصل الأراضى المقدسة فنزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمّه غير مبرعاع القارّات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تذكّرين كم مرّة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزاع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة.
- تواصل "ما" منع ربع ابنتامتها من فضح ما يعتمل داخلها.
- أه يا بنيّ من أمراض أبيك!
- ما أحلى تلك الأيام. كأيّ أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرّفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.
- كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثّل اللحظة التي يرهبا أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمنّعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.
- آه لو كان مريضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجلبك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجدداً، فمفكر؟
- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف؟
تنتهد "ما":
- لم تتغير رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنت المخطئ وهو المصيب.
- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوماً تحبين هذا الرجل وما تزالين.
- هو أيضاً كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهره!
- وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!
- وأيضاً كان يردّد: أنا الشرارة وهو اللهب.
- شكراً على حسن ظنك بي وعلى جهودك الطبية لإصلاح ما يمكن من علاقة
تقاطعني " ما " وفي لهجتها عتاب رقيق:
- يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالماً لوالدك!
- مؤكّد أن الرجل ظلّم بقدر ما ظلّم ولربما أكثر. ظلّمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل -كما هو الحال دوماً مع الأدميين- لتحتفي يوماً الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.
- ظلّمه أيضاً ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات. إنها الصور النمطية المبتدلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟
- ماذا لو كانت التضحيات لا تخلف عند الآباء والأمهات وأنه نفسُ الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدورَ الأجل هو نتيجة استنثاره بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقاً بحثاً عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوّق مكرهين على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامّة؟ هل نجاحهنّ في تسويق صورتهم على حساب الذكور المغفلين أكبر عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟
- كرجل وكأب، وتحمّلاً لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركاً لكل ما سبق من مظالم لحقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النصّ أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسنجعل عيد الآباء -نكاية في الحركات النسوية- يوماً ثلاثة أيام كاملة لا يوماً واحداً وخالصة الأجر بالطبع.
- لا بدّ أن ترحل "ما" دون هذا الحمل الذي نغص جزءاً كبيراً من حياتها.

- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصاً أثقل من عصاه يزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

ليكن في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصف لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعداً عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوفيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركة لجليل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم تنفيذ الاتفاق، علماً وأن كل من وقوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات وامهاتهن -طبعاً في قاعة أصغر - علماً وأن مآلها مال معاهدة الأبناء والآباء، لكن هذا شغلهم وليس شغلي.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريباً آخر قبلة على جبين الرجل الذي أثّرت قصة حياته في قصة حياتي كما لم تؤثر فيها أي قصة أخرى، أن دمعة حارقة ستسيل على خدي سكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

يحضرني كم كان معجباً بشاعر جعل من قصائده الكلام المقدّس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثال؟ هل لتعريفه في آلامها على الآلام التي عبّته طوال حياته؟ هل كانت ذروة مأساة هذا الأدمي المعروف تحت اسم المتنبّي وقوفه اضطراراً على أبواب الملوك يستجدي من يحتقرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختير قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير بها عليه؟ ألهذه الأسباب وجد "با" نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الشاعر الذي لم تعد جعجعته الفارغة تثير فيّ إلا هزّ الكتفين.

تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت عليه لكنه هو الذي انتصر عليّ بالضربة القاضية وأنا لم أجر طوال حياتي إلا وراء طموحه هو ليكون السيد الذي يقف بين يديه الشعراء.

نعم، لم أعرف له مثيلاً على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنونني أسخر منه وأنا اسميه السيد أئيفنّاس وأنا أقصد كل كلمة. أيّ والله، أين في الناس أب مثل أبي!

كم سيخيب الرجل ظني ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائياً أنا الذي آمنْتُ دوماً أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضاً يجردّه من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأول مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر.

تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدن ليلية اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لآخر مرة.

- أتعرف لماذا قُدر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟
 - الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهَار بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.
 - هل كان يريد منك شيئاً آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئاً ولا تخشَ أحداً.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمّتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.
 ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي سترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقّف بصرها على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. ثلامس يدي الشعر المجل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلاً الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها وإنّما تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.
 أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا نأتي هذا العالم حجّاجاً.

تتلقي "الباشاماما"⁴ رفات "ماما" والدفن فيها كالعودة بعد طول الفراق إلى حضن الأم. هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم فظيع.

ولو حفروا في درة ما رضىتها لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)
 ولو أودعوك الجوّ حفناً مصيقيهُ ومَشْتَاهُ، وازداد الصننن من الصنن
 فيا قبر واه من ترابك، لينا عليه وآه من جنادك الخش⁵

آخر حفنة من الثرى تمّ صوت المرثّل: اللهمّ تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردّد روعي: آمين.

حولي كلّهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

⁴ الباشاماما اسم الأرض الام في لغة الشعوب الأصلية لأمريكا الجنوبية
⁵ الجنادل: الحجارة (الناشر)

إنا لله وإنا إليه راجعون!
راجعون إليه بماذا؟ بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها... أم بالبشرى أننا أدينا المهمة،
بل وعلى أحسن وجه؟
إنا لله وإنا إليه راجعون!
من إنا هذا الذي هو من الله وإليه يرجع؟!
**

الكتاب السادس

الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن

حافظ

مقدمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد.

حقًا إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار رحلة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة. الدليل أنني مدعوّ إلى أضخم حفلة نظّمها الأدميون في تاريخهم الزاخر بتنظيم الماتم والأعراس.

كم غريب أن تكون هذه الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة شاءت الصدف أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -واستبقا للحدث بسنة كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير مراسم افتتاح الحفلة الكبرى من طرف ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها تونجا هي أول مكان يهلّ عليها الزمن الجديد. تترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل هذا الزمن الواعد. يتسلل الطيف غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئًا فشيئًا.

تتصاعد هتافات الفرح والترحيب به من مكان يدعى موسكو.

عند وصوله مدينة اسمها روما يخرج إلى الشرفة المطلّة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

ثم تشتعل أنوار برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارًا. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخهم تعجبًا وإعجابًا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الأفنية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار وصخب شماريخها تحيل الليل نهارًا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سيورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألواحًا مبهرة... كل نقطة لمحة كائن حي... هناك في ذلك الركن البعيد من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقًا، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها... أي أهمية للأمر يكفيني شرفًا أنني كنت جزءًا من العرض.

بداهة قرّر أهل هذه المدينة الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال

سنوات آخر حرب عرفت خبرة في إسقاط كل مغير آت من السماء؟ هل من مغير أخطر من هذا الزمان الذي يدعي التجديد وقد يكون محملاً بما لم نعرف لحدّ الآن من الولايات؟

لحسن الحظ أو لسوءه يعبر الزمن المعقود عليه كل الآمال سماء المدينة بسلام ثم يخترق المحيط الشاسع ليحطّ في ساحة اسمها تايمز سكورا. نفس الحشود الأدمية بنفس الفرح. أخيراً ينتهي ببسط ظلاله على البشرية جمعاء وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسّي.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيراً شاخصاً بين الفينة والأخرى إلى السماء كأنني سأرى هذا القرن الموصوف بالواحد والعشرين على شكل ضباب خفيف يمرّ فوق رأسي.

قرن محمّل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد وبهّل له هؤلاء الأغبياء! لكن لماذا أسيء به الظن؟ هل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

يجب أن أداهنه، علّه يكون أقلّ فضاضة من القرن الذي ولى الأديبار لا هو متأسف على فراقنا ولا نحن أسفون على فراقه.

أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيراً العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية للبشر كلهم وحتى لبني حرية وآل ثبات.

حقاً! كل ما أنا متأكد منه أن المحتفلون بهذه الليلة المشهودة سيفيقون غداً بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الداننين وقد انتهت نوبة السكر.

المساكين! يطمنون أنفسهم بهذه الطقوس السحرية أملاً في مستقبل قد لا يكون إلا دورانا في نفس الحلقة المفرغة.

بعد السلام الحرب (برنارد فربر-بتصرف)

بعد الحرب السلام

بعد المركزية اللامركزية

بعد اللامركزية المركزية

بعد المدن، القرى

بعد القرى، المدن

بعد البرلمان، الحكم الفردي

بعد الحكم الفردي البرلمان

بعد الهدوء، الانفجار

بعد الانفجار، الهدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة

للصراحة آخر ما يهمني مستقبلهم، كل ما يهمني مستقبلي وهل سيفتح أخيرا أمامي باب هذا السجن الواسع الذي يسمونه الوطن وقد أصبح الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها.

**

التائهون بين الجحافل

المنفى مرة أخرى وقد فتح أخيرا باب السجن الكبير.

داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مراقبين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحنت رفاقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك!

لا مجال للإفلات من خصومات الآدميين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة. أهز الكتفين مفضلا الخروج من العربة في أول محطة. واقف على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج من الأنفاق والانتباه على أقصاه.

على السجاد الآلي من الاتجاه المعاكس تندافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي سريعا وهي تتجاوزني تعوضها بنفس السرعة وجوه أخرى مُشابهة ومختلفة.

كلها كما نحتها جيا كومتي في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الملامح المتجهمة والأبصار الشاحصة نحو الفراغ والكلّ منغلق على ذاته في صمت ثقيل.

كلهم كُتِبَ مُحكمة الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان... أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلقون على أسرار بانسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عائشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الآلام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

فتاة ممشوقة القامة بقربي وكل نظرات القادمين في الاتجاه المعاكس مسلطة عليها. نظرة خلّتها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الآدمي جديرٌ بالاهتمام. كم مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مرهق مهموم.

"كم تسكّعت شرقا وغربا! (شاعر صيني مجهول)

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتدّكره

تعبت حقائبي

ظلّي وحده الرفيق.

لا أحد من هؤلاء الأدميين يقف مسلماً ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبْل والدموع. أه أخيراً بيتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف. يختفي بالسرعة التي برز بها. إنه تائه مثلي يقول لسان حاله: تشجّع ثمة مخرج لنا جميعاً من كل هذه الأنفاق!

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشارات الصامتة وحدها الدليل. أي كابوس لو انطفت كل الأضواء نهائياً واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام!

فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقّف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، ويبيدي اليمنى تمسك بيد اللص ويبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة تابعت الحادثة: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيداً سهلاً، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة! من قال لهذه المرأة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تمّص منّي لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه المرأة لتناول القهوة لتمدني هي بتصريح مطوّل عن حالة رحلتها، غلّي أزيح بعض الغرابة عن الأدميين بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشاراً، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة... الصنف الذي ستخرج من صفوفه الأنواع الأخرى من الأدميين الذين سيجعلون من حياتك جنةً وجحيماً. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألّقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدفة والأقدار.

أخيراً الهواء الطلق.

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمّلها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار.

قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصعّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتظ، السُيَّاح والمتسولون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهرُوا الخَدَم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على مَنْ؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجَزَار الكبير الذي رَفَعه، لكن مَنْ يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثاً. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل، كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباءً، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كلَّ الذين التهمتهم الحربُ ولم يحفظ لهم التاريخ مآثره أو اسماً. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل! آية قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأُم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسميوت أشبع مَيِّتة، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايينُ المجهولين إجلالاً أمام قبره ولا أحد يعرف اسمه.

فجأةً التفتُّ خلفي مدفوعاً بقوة قاهرة لأهزَّ الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجتُ أو قُلُّ طردتُ هذا الصباح من بولستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرٌ يتنقَّس في عنقي في كل خطوة.

نعم لا مخبر ورائي يكاد يلمسني في إطار ما يسمونه المتابعة اللصيقة لتخطيم أعصاب الطريدة. لكن كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقى عليّ من نظرات متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهذَّب للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النفيس أن يكون غريباً حيثما كان”؟

ما يخفّف عنيّ لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقفون فيها غربة عن غربتي. كلهم سيرحلون عن هذه المدينة بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها قصصاً فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيراً عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل بي الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كمّ هائل من أفطع قصص الأدميين.

قُطِعَ في هذه الساحة حسب من حسبوا 1119 رأس منهم رأس ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكاً، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكاً في غير الزمان المناسب!

انتبأه لاختلاجه، امتعاضاً هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلأأ. ليسرعوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصبٌ على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيدة إلى الخلف كُدسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة الرهيبة المنتصبة وسط الساحة. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس على وَشك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصيصاً لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدراً لا يُحتمل من الأُم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولد ملكة، بل وفي غير الزمان المناسب!

لو جاءت قبل بضعة عقود أو بعدها لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجايز والعداري.

كيف الإفلات من صُراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بُعد بضعة مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميراً ووليّ عهد ملكٍ على وَشك الغروب! ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبأ بكل ما عرف من مآسي.

بعيدا على يساري برج حديدي أصبح رمزا للمدينة يمتلأ على نهرٍ هو منذ نشأتها شريان يضحّ في جسمها حيوية التجار، والمهريين، والمسافرين والغزاة.

فجأة تصلني كاللطمه على الأنف لعنةٌ سَكَّير اتَّخَذَ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تُلَفِّظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحايه طاولة القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكا وملكة واطفالهما قبل قرنين.

مَن قال الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها مَن أفقدتهم المصائب كل صواب.

أية غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماه جانبا، ضاق ذرعا بجمال ليس من ورائه نفع؟! كم من خطام بشريّ سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منتقم هو الآخر مجهول!

هذه امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدّد بمولود جديد لا يدرك على ماذا هو مقدم. أتوجّه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدّقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربّما ستنجح القوى المجهولة في تخيل عالم أقلّ خطرا وفضاعة، أمّا هذا!... ثم هل فكّرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالمتهور يهزّ كتفيه. يجب ألا أحنط وأن أواصل تحمّل مسؤولياتي تجاه مستقبل الجنس البشري.

يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن... ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحست أنني أريد بذريتها شرّا.

قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها طلب بوليس النجدة. لا أريد بك إلا خيرا... وأنت لا تريد بي إلا شرّا! آه منكم يا أولاد حواء.

قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير النساء وأمّهاتهن. أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حالّ ظهور بواذر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلّم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعدت الكرة وهي فخورا بما اقترف المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

آه هذه آدمية أخرى يبدو أنها تنتمي لكنيسة تبشيرية ما تظنّ أن بقدرتها أن تفعل لي شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أتقياً. تُبادرنني الصبية البلهاء ببراءة تثير فيّ موجة من العطف.

- هل تعرف المسيح؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

- لا، شكراً، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسير هذا الكون، أما حُبّ ربك لي، فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحاً هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيراً هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلاً. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آلام روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك لا تنسيّ آلامي أنا أيضاً وقد تحالف ضديّ كل ما في ملّتي من أشرار ومن أختيار.

آه هذا هو الحيّ الذي زرعه سنواتٍ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. لا أحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريث، لا تسمع إلا بعضاً من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. لا أظن أحداً انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيراً بحثاً عن الدفء لسعتهم ولسعوك، إن بعُدت عنهم كثيراً عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثت عنه دوماً: الدفء دون لسع.

إنه مكان لا يُحبذ أصحابه أن تطيل فيه المقام. يجب أن أنهض لأواصل المشي.

هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعدّر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أيّما كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكنهاهم بيوت الطين والحجر مرآة أقطع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحاكم وثكنات وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يومياً... ومرآة أحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتّبت الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فهذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكاتب التاريخ. وأيضاً هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان: فكّر من خارج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جِدّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة.

صَحَبُ مفاجئ. متشرد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل. أمامي حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربات ضخمة بالغة الضجيج والقبح تسد الطريق على سيارات نفذ صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفا الذي يتخيلون. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

الطريق ليس صعبا (كبير كجار د)

الصعب هو الطريق.

لا شك أن بينهم كُتابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، أو غريقاً أنقذ آخر لحظة من برائث البحر، أو مغامرٌ يائس بانس يخترق الجبال خلسة ليلة صقيع يُمزق أحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب هذه المدينة شبة ميّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جناحي.

ربما يأتي يوم ينشد فيه المرتحلون القادمون من كل أفاق الزمان والمكان.

تحت أزهار الكرز (ايسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب

أصعب ما في الوضع ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعجّ بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسي.

**

التائهون داخل ذواتهم

يحدّق في الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: بونبول⁶، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
الوعد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أسنثمرها في صدقة تعود عليّ
بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا الأجنبي!

لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأني السارق وهو المسروق.
ما يجله هذا الشقيّ أنني أجنبي مرخص له في الوجود في بلده وليس كالغرباء الذين
يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف البوليس أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.

الدليل على متانة وضعيتي القانونية أن في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على
هاجس فقدانها أو سرقتها مدّتي بها سلطات البلد -ببالغ الامتعاض- وهي تحفظني
مؤقتاً من عنف الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.

قد يكون من مزايا هذه البطاقة تطميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن
اسمي وأقبي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي
ليبروقراطية المراقبة والتحكم عن بعد.

مما يقال هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما
أعرف نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول
حتى قبل أي قرار مني. يا ليتنه يقول لي أخيراً من أكون اللهم إلا إذا لم يجرؤ على
الأمر ترفقاً بي. في الانتظار لا خيار غير أن أعوّل على نفسي وأن أتحمّل مسبقاً
تبعات ما قد أكتشف.

لكن كيف؟ أمرنا سقراط "اعرف نفسك". أما كان عليه أن يقول اعرف...نفسيك؟
ألم يأتيك يوماً الشعور أن لك أنانين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد
رسمي ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.

هذا الأنا المخفي هو الذي يحدّد طوال الطريق كيف ومتى الجوع والعطش والراحة
بعد التعب. هو من يفكر ومن يتذكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم
ولحظة الموت.

⁶ سبة عنصرية في إحدى البلدان (الناشر)

لا تشعر بجبروته قدر شعورك به وهو يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرد طرد يُسلّمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلاً؟

بربك ألا يدهشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيف مجهول!

من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدث الجبل!

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القريبى بيننا؟

كم مرّة تحايّلت على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق البحر!

أواصل مع هذا استفزازي: هل تقبلُ لذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟ هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه هو الذي يبتسم ولسانُ حاله يقول: مرفوض، مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذا الوضع.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء لهيبه بهذا المخدّر أو ذلك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً. طرقت بابه بالعلم فلم ينفع، بالنفلسف فلم ينفع، بالفنّ فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتّيجة أيا كان الباب الذي تطرق، والشيء أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلّم.

في آخر المطاف ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضجّ بالشكوى،
وجزاء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير،
لجزء يجهل تقريبا كل شيء وجزء كأنه يعلم تقريبا كل شيء؟

إنني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!

لم لا أنتقم لنفسي من هذا الساكن داخلي حتى ولو كانت نفسي؟

ها أنا أدخل إحدى الدور المظلمة التي نحبّ الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات
الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي. أتوجه إلى المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم
المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها
وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات.

سيناريو انتقامي آخر.

أتوجّه الى المرأة وأنا أخلق ذنبي: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس الأخرى التي
ترفض أوامري وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّة؟ تعطي إشارة
الانطلاق لعملية امتصاص الأنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية
بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام
مرأة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا
يجدون تفسيرا للظاهرة."

ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرقهم الخصام واستحال بينهم
الوفاق.

أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضدّه هذا الأنا الآخر الذي
يعاكسني؟

ماذا لو سارع هو بتقديم القضية ضدي عملا بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي
وسبقني واشتكي.

كأنّي أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئا، يسمع ولا
يُنصت أبدا. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأنا. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم
واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيف. لا
يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أنظفها دوريا فيسارع إلى

ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثرا. أشير عليه فلا يسمع. أنبّهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلّم. أهدّنه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولا. أمره بما هو في مصلحته فيتنطّع. أدفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيُمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلّل. ألف لعنة على هذا الشكل الذي قبلتُ التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّق مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة، بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعاً إذ لا ينفع في الأنا المخفي أي تهديد. تَدْخُل فراش النوم هاربا منه فتجده يتربّص بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك. تنتكّر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به البيدُ التي تربط الحبلَ والرجلُ التي تدفع بالكرسي. طوال بحثك عن هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللامتناهي وبقربه الشديد، أنه أنت تتأمل صورتك في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأملك أنت. ولما تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن انغلت قبضته على الريح. أي خيار غير مواصلة البحث عن طبيعة هذا الأنا المخفي والتحكّم فيه بفهمه لا يعني شيئا آخر غير اكتساب أكبر سلطة يمكن أن يحلم بها آدمي.

الذي يعرف البشر دوما حذر (لاوتسو)

الذي يعرف نفسه محفوف بالنور

الذي يروّض البشر قوّي

الذي يروّض نفسه جيّار

طوال هذا السعي لمعرفة من أنت حقا، أنت كما يقول أتباع بودا كالفارسات الذي يركض في كل اتجاه بحثا محموما عن الفرس التي يركب!

**

الطريق المسدود

في أضخم الملقّات المتعلقة بهذا البحث، تحديدا بما الذي يوجد تحت غلاف الذات، يبادرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.

كان صديقا عزيزا من بلاد الشام مهذارا لا يكف عن المزح وكنت سعيدا أن يكون هو لا غير من سيعينني على تحمل حصة تشريح لم يكن ممكنا تفاديها.

- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. أريد التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملف هذا المسكين.

- تؤمر أمر لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.

- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.

يا لبختنا ونحن أطباء هذا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجى على الجليز لا خوف من شرطي وقاض وجلاد! كم من أطباء في عصور غير بعيدة غلّفوا في المشانق لتشريحهم في الأقبية المظلمة جثنا مسروقة من المقابر...هم أيضا كانوا يفتحون مثل هذه الجثة حجتهم العلم والدافع الحقيقي اشباع الفضول بخصوص القوة المجهولة المختبئة تحت الجلد...القوة التي تجعل منا أحياء عندما نكون وجثنا هامة عندما تختفي بسبب هذا الورم الحقير أو بأي سبب آخر!

يرسم الزميل بسكينه أخدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلّا بفضاظة ودفعة واحدة اللسان والحنجرة والمريء والقصبه الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحبّ.

لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جانبي قفص العظام يمتلنان بأول نفس للقدام الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.

يرمقني الزميل ساخرا.

- مالك؟ هدى من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.

كأنّ هذا الغبي يعلم، كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي! يواصل استفزازه شجّع تزايد ارتباكي.

- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟

- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!

يصرخ متكفًا مزيدًا من الاستفزاز:

- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

ما زال على ملامحي ما يستفزّ عند الرفيق مزيدًا من العدوانية الضاحكة.

- يا ولد، منظرِك يرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظةً لتتنفّس شيئًا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكنم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.

- قلت لك كفت عني لسانك وابهرني ببراعتك في قصّ اللحم.

نواصل التشريح بصمت مفاجئ ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتراع والتقطيع. لم تطلق شفتاه أها واحدة احتجاجا على انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أول من اعتدى عليها؟ بل هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا؟ هل كان حقًا سيّد جسده هذا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك أنت لا غير هو منذ الإفاقة تحت سلطة الآخرين بدءًا من الأيوين والمجتمع والدولة والأطباء وصولًا لحاملي النعش وحافري القبر ثم الدود والجراثيم.

كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي (عبد اللطيف الإدريسي)

الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئًا من لحم الكتف لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط اللقمة من يديك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجامعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل أعراض السرطان كانت في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

- هل ترى شيئا؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لنتظر المعلم، إما بيرنك وإما الويل لك من لسانه. والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة رَوَاقان مزاجي لسياحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينفضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

آه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل النفس الفكر والعقل!

انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلاء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطّقة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المنغلق على أهمّ محتوى اسمه الروح الآن مثل كتاب مرّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيتّ منها كلُّ الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئا ولا يقدران ما ورائها من عبقرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ بالنسبة للطبيب إز عاجا عن تقطيع الجثة.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السمّية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكأف الممثل.

كان يقلّبها بقضيب حديدي يتأكد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفقناها وفق أوامره. كانت دقة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسر آخر فشل للمريض وآخر تشخيص خاطئ لطبيب مكسوف.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأعماء المفتوحة.

- انظر إلى هذه الحبة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان... آه كم مؤسف!

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبرة التي يتقن بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد. لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا " مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.

يفتعل الرجل الترقّع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلّم" وقد ينتقم مني.

- هل يظن هذا البليد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!

- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجانا بالمشخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيظ الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

- جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصص!

- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهوه.

- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.

يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بتشخيص دقيق لسرطان قتل مريضا آخر. يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها متزايد الحيرة أمام عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.

**

الحاوي والمحتوى

في ملف أول لقاء مع الكلمة الغامضة، تطلق "ما" صرخة مدوية وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذرا بحدث جلل.

ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء يلطمن خدودهن ووسطهن رفيق اللعب مسجي بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقه. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجدّ إعراض حسين عن قدومه؟ مؤكداً أنه سينهض صارخا من مرقد ليقفز جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز.

يواجه الطفل لأول مرّة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه لا هذه المرّة ولا المرّات القادمة.

يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمه متزايد الحيرة والهم.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مردّ لحكمه. عند الرجوع إلى البيت تتراحم الأسئلة في ذهن الطفل: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الخروج من جسده فيضعونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتلول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شبّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد الشرّ عن وليدي وسبعة أطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قلّ أعوذ برب الناس من الشيطان الخناس.

حقا الحب تطّف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعننت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق. الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما" أين ذهبت روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنّها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ربع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روعي.

لا تزيد الإجابة الطّين إلا بلة تضيف الحيرة للخيرة.

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصدّ ظهور الدليل الآخر. لا بدّ أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

في أول لقاء يبادر الطفل والده بسؤال غريب جديد.

- "با"، ما هي الروح؟ لماذا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟

تتغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وابل القبل متحدّثا بكلمات غير مفهومة عن حضور الساعة دون أن يتكلّف عناء شرح ما الساعة ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمّى الساعة وليس الدقيقة.

وممّا بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها ممّة من الله حبانا بها دون الحيوانات، أنها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحركنا وتتحكّم في كل ما نحسّ ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.

كم كان الرجل يغالط طفلا بريئا وهو يتبخر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنّه كان يعيش على تصورات ساذجة تشيعها منذ آلاف السنين رؤى غير متقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه.

يوضع الملفّ على رفّ من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه وقد توفرت معطيات جديدة وإن لم تكن حاسمة.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى.

الصبية في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء الفالسيوم سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ. لا بدّ من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا أنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية. كأنني في حلم. تقول أُمِّي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت. تقول إنني أتكلّم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقمص وكأن الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة تخرج في هذه الحالة لتحلّ محلّها روح أخرى، غالباً روح شيطان ما؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متناقل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحنك على الصور نظرة متمعنة مقيماً ما سيلفاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئاً لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجبت عليها المريضة المبتجّة، يتجمّع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كاننات وصلت لتوتها من عالم آخر.

يُحلق شعر الفتاة لتنتثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شفّاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الروح وعريتها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن منتبهاً أشدّ الانتباه، حذراً أشدّ الحذر، حاضراً بكلّ حواسي، خاصّة و "المعلم" صارم لا يرضى من مساعديه إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيراً العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث.

مسكين ذلك الفيلسوف المسمّى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعياً أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة نتيمة تتوسّط العضو الرخو ومنها تخرج كالهواء من بالون مثقوب لتذهب إلى مكان آخر تواصل فيه قصة دخلت منعرجاً جديداً.

كم من علماء أكثر منه جهلاً أدعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطين الأول والتخيل في البطين الثاني والفكر في البطين الثالث والمشاعر والحركة في البطين الرابع ... والحال أن هذه البطينات فراغات داخل الدماغ لا تحتوي إلا على الماء!

كيف لا يضع هؤلاء المفكرون الروح داخل الدماغ وكان البعض منهم قد وضعها في السابق في القلب والكبد وقد قد ينقلها بعضهم غذا داخل الخلية، فالصبغيات فتشوارد الذرّة... إلا يعيشون داخل تصور لعالم كعلبية كبرى تحتوي على علب موجودة داخل بعضها البعض على طريقة الدمى الروسية؟

يلحظ "المعلّم"، ونحن نقترّب شيئاً فشيئاً من الورم، شرود ذهني. ينهني بفضاطة فأنته محرجاً. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ينفصم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتراً.

الروح، النفس، الذات، فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ الانتهاء منها باعتبار الروح زبدة خصائص الجسد وأوج قدراته في حالته التي نسميها الحياة... بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زبدة خصائص الدماغ السليم وهو سليم في أوج عطائه... داخل تصور كهذا لن نكون بحاجة إلا لمفهوم واحد هو الذات وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد والوجه غير الحسي الذي سماه الأوتل النفس أو الروح... نموذجاً قطعة النقد الواحدة المنحوتة من نفس المعدن وبسطحين متباينين لا يمكن الفصل بينهما.

تتصاعد حدة صوت "المعلّم" وهو ينهر الممرضة والمبنيج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع كل هؤلاء الاغبياء المحيطين به. الرجل في حالة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجدّ. بداهة هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار الظالمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الأدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه. يضع الأستاذ جانبا كل أدواته يخلع قفازه وينصرف صامتاً. أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

-سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهرّب. هذا أيضاً جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببيكاء صامت.

ألود بالفرار لأرمي بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممرّ. أخلع حدائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبّة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاها؟ هل تمثّعت يوماً بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشياً على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟

لماذا لا أخلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صلف الجهلة أن معقل الروح في القدمين وتحديدًا في ابهام القدم اليسرى؟

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تنحت لهم التماثيل، ليقترصر تمثالي على قدمين التحمّتا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عندهما لا يعنيه المحمول فوقهما وهو جسدي هذا المتماوت تعبا.

ما زال هذا الجسد متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفكّك وتقديمه غذاء للكائنات السافلة... ما زال النمر الذي أروّض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أنفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنعه من التمرّغ في الوحل والجمل الذي يحمل كل الأثقال والذي لم تقصم ظهره لحدّ الآن قشّة.

يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ. تداهمني صور بالغة الازعاج لكنها هي التي ستخرجني من الطريق المسدود لنموذج الحاوي والمحتوى لتضعني أخيرا على طريق مفتوح قد يذهب بالبحث إلى أبعد نقطة ممكنة.

**

أو كيف أن الذات ذاكرة متعددة الطبقات أو لا تكون

على تخوم عالم النوم واليقظة يتوجّه عجوز نحو نافذة الغرفة ليتسّمر محدّقاً في شجرة زيتون علاها الغبار. يلتفت إلى بابٍ يفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادره مُفتعلةً المرح:

- صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلّا تبعنتي الآن لمقابلة الدكتور.

من هذه الأنتى؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟

تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأنسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعاً، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجيل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وامّحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء أقطع نهاية.

الأدمي الآن ضحيةٌ أخبث مرض يمكن أن ينهي الرحلة وكل ما عاشته الذات، كل ما تعلمت وخبرت وجربت بصدد التفكك والتلاشي.

يتفحص الطبيب الشاب شكله المرتعش القادم من مستقبل غامض مغالبا قلقاً لا يفهم تفاقمه، ثمّ يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخّل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تلمس دمعها:

- خطيبٌ مَفوّةٌ لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "با". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسيَ أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:

- معقول ألا يتذكّر أنه قابِلنا البارحة! أننا نحن مَنْ أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيناه يمزّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضا.
تريدان العجوزَ مهذبًا وهو يتابع لحظةً بلحظةً ذاكرتهُ تنزف كما ينزف المذبح مما فيه من دم وذاته تلاشِي ذاته شيئًا فشيئًا كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى وهو عاجز عن فعل أي شيء.

يقاطع المرأتين شبح هو الطبيب والمريض.

- سنبدأ بقياس اضطرابات الذاكرة في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر... وحتى لا قدر الله فإننا الخ، الخ.

من طبيعة الكوابيس -قل من مهامها-كشفت أخشى ما تخشاه الذات... ما تحاول عبثًا رميه بعيدا في أعماق اللاوعي.

أليست الذاكرة كفعلٍ (التذكّر)، وكمادة (المعطيات المحفوظة) الشرط لتواصل هذه الذات في المكان والزمان بكل ما يميزها ويربطها بالذوات الأخرى؟
أليست كل المهارات التي تمكّنها من بناء العالم مرتبطة أوثق الارتباط بما تخزنه وما تراكمه وما لا تتوقف عن استعماله لرفع مستوى هذه المهارات؟
هل كل أسرارها مضمّنة في هذه الذاكرة التي بدونها لا وجود لها؟

لا شيء والرحلة على وشك الانتهاء أهمّ من تجنيد هذه الذاكرة قبل أن يُطفئ الموتُ قَتيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقير اسمه العته.

**

ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع

السفر الآن داخل الذات في مخطط استكشاف شبيه بالذي تضعه لنفسك وأنت تقرر زيارة بلد سياحي حافل بالأماكن الأثرية الموزعة على أكثر من مكان.

أسهل طبقات الذاكرة تحمصا تلك التي تحتفظ بملفات أحداث لا زالت حاضرة في الوعي بأغلب تفاصيلها رغم مرور السنين والعقود أحيانا.

في واحد هذه الملفات تكفكف "ح" دموعها.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائيا. تراجعته آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

- لم أكن أقرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبيكي ورأسك على صدري.

أقول ل "ح" أعود للاستفزاز الضاحك الذي طبع دوما علاقتنا.

- كفى رومنطقيات مراهقين، هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا. لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أنتسكين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالا لا أقوالا.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزل فمها وأنا أدفع الحساب:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. هذا ثمن الغرفة مسبقا. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزل تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجعته في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

- بلي، وداعا.

عبثا أصرخ في "ح" وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

من ثوابت قصص الحب والغرام أن لها نهاية كما لها بداية. كأنّ الذات وهي تصل آخر فصل من القصة في علاقتها بالذات الأخرى جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تفيق كل ذات لحدثها كأنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

القاعدة الأولى التي لا تخرج عليها أي قصة أنه لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كيف لا يكون الأمر كذلك مع "الذي منه كل نشوة".

مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحبّ بغير قلوب

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع

القاعدة الثانية أنه ثمة في كل قصص الحب ثوابت لا تتغير أيا كان الزمان والمكان، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة.

أيا كانت ملفات البنوة والأبوة والحب والصدقة والعداوة والتنافس التي تحافظ عليها هذه الطبقة من الذاكرة، كلها متغيرات تحافظ على طرافة الذات وتميزها وكأن مهمتها منعها من أن تكون نسخة طبق الأصل من الذات الأخرى.

هذا ما يجعل من قصتي مع "ح" وإن تخضع للسيناريو العام قصة فريدة لم تحدث إلا لي إذ يستحيل أن تكون ذات أخرى قد جربتها في نفس الظروف زمانا ومكانا وتفاصيلا أو عالجتها بنفس الكيفية. ترى ما الذي أضافته قصتي لقصص الحب والغرام؟ هل كان فيها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس السيناريو الأزلي؟

آه هذا ملفّ ثقيل هو أيضا لكنه عن علاقة حبّ من نوع آخر.

تدافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الأدميّ أذنيه عن كلّ نداء، وقد اقتنع أنه لا ذكاء يبهر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا

رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولاً. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكناً.

دخلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟
أحاول فتح مَنفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تحرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.

- طبعاً البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميّة وموتها على حسابك وحدك.

يتواصل إضراب البنت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الالام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرّة فاقت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تتهدّد: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرّخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

تنتهي تفيحه في غرفة إنعاشٍ قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفضّع ما في العالم لامبالائه لا ما يلحقه بنا من ألم.

كم يخيل إلينا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمس وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاص الطائشة أو المرض الحقيّر لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهمه من أمرنا شيئا.

أقطع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعبء وممن افتكّ منه كل ما يملك.

لم نجن بنينا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنأ من مات بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس

كيف تواجه الذوات الأخرى الألم عندما يتجاوز كل قدرة احتمال؟ كم من قصص رهيبية عمن استجاروا بالخمير، بهذا المخدر أو ذاك، وهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمة الحلّ الجذري الوحيد القادر على إنهاء عذاب تجاوز كل الممكن قبوله.

لَيَنْتَه كل الهمّ والأحزان والأسف دفعة واحدة للجميع وإلى الأزل. لتتمت تفيحه ولأمت حدوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبعة" من اللاوجود. تخمة من العدم. طفرة من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبدية... وكل هؤلاء الأعياء حولي الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه.

لهذه المحن الكبرى الدواء الناجع لما لا قدرة لأي دواء على علاجه اسمه الحبّ.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أقطع ما أعيش من الأم. على العكس حَيّ الآن لها لا تَسَعه السماوات والأرض.

أحسنَ من فهم طبيعته الأعرابي الذي سئل أيُّ أطفالك أحبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الحياة. بقدر ما تتعاضم هذه الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعِينا لحمايته بكل ما نقدر عليه ولا واعز إلا الحبّ.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك من هذا الذي يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه... الحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددةً حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قِيلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.

أقرب يدي من اليد المتدلّية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفق السوائل المغذية في زراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات.

أتوجّه للرافدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كأنّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أثر في شيء ما... غير وجهة المسار. أ يكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما

تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيرا من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماق القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

لا أصدقُ أذني وأنا أسمع تفيحه تهمس مبتسمة بردٍ ليس فيه كلمات.

تتجدد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إلي وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عيني بدأت تدب فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكَّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصل المشوار؟

- لمواصل المشوار.

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد نعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسخ كابوس مرضها من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فرص تدارك ما مضى من أخطاء. حقا عرّف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتم. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملابساتها ونتائجها لم تحدث إلا لي أنا والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بالذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت ابنا لأب دون كل الموجود من الآباء، لأمّ دون كل الموجود من الأمهات.

لنسمّ هذه الطبقة من ذاكرة الذات ذاكرة الأنا دون سواه... أو إن كنت تفضل صورة الشجرة على صورة المنجم ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع.

**

ذاكرة الغصن الوارف

أينما تولّي الوجه بحثا عن ذاتك إلا ترتطم دوما بذات الآخر وكأنّ الفصل بين الذاتين مستحيل استحالة الفصل بين الجزء الأيسر والجزء الأيمن من نفس الجسد.

أمامي ملفات متراكمة لكل الذوات التي لا أتصوّر ذاتي بدونها أثقلها على الاطلاق ملف الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم أُنِفَأَس.

هل كانت ذاتي توجد وتوجد بجلّ الخصائص التي هي خصائصها لولا هذا الرجل.

يتحوّل البحث عن ذاتي إلى البحث عن هذه الذات التي تفرّعت قصتي من قصتها والأرجح أنها ما زالت تفعل فيّ فعلها الصامت وعيت بالأمر أم لم أع. بديهى أنه عليّ أن أفهم من كان "با" لأفهم من أنا. المشكلة كثرة الفراغات في قصته.

أول مصدر للمعطيات الناقصة ذاكرة "ما" وهي تتذكر مقاطع من قصته لم أعرفها أو نسيته.

- ألا تعتقد أن لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يُقاسم لَمَّا أفرط في دلالة علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما" بحدّة غير معهودة فيها:

- لم تُدَلِّه يوما أمّ.

ثم تعصّ على شفيتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة مدحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته، أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه... ولا شيء بخصوصها!

كل ما يحفّ بذكرى هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مشبوه.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرة تحريكها. لكن فضولي أهمّ من ترقّق يحضر ويغيب.

- لم تُدَلِّه!؟ تقصدين أنها كانت مريضة، أن مرضها أثر في طبيعتها وفي طبعه، ربما المرض هو سبب عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

كلّا لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تُغيّر الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتياب مينة. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكين "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل.

ثم ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبيعتها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟

هل هذه الجدة سبب الوجع الذي جعل "با" طول حياته كاننا متألما مؤلما كم تسبب لي وللآخرين في كم هائل من الأوجاع؟ هل كانت هذه المرأة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبب في سلسلة من المصائب لكُم من نساء وأطفالٍ أبرياء على امتداد أجيال؟

يجب أن يكون رَفْضُها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شدّتها التي التصقت باسمها؟ لكن ما سبب هذه الشدة؟ أيكون جرمائها هي من حب لم تستطع اعطائه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدتي؟

هل قد انتقل البحث عن ذاتي إلى البحث عن الذات التي شكلت الذات التي شكلت ذاتي.

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم مقاومتها الصامتة.

- وأيضا؟ تكلمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمة شيء لا يمكن لأم أن تحدث فيه ابنتها... شيء ربما تهاست به النساء يوما بعيدا عن أذان الأطفال!

لأحاول الجَمع بين مختلف قطع "البازل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تخبّط في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤه للنساء وتكيله بكل أنثى رماها الحظّ العائر بين ذراعيه مكديسا الخليلات والحليلات يشبعهنّ إذلالا وخيانة وطلاقا.

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جدُّ مُستبعد. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والرغاريد. مفهومٌ رجال ذلك الزمان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهَم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا- بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهاست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيا كانت الأحداث التي مرت بها هذه المرأة فهي لم تحدث لها في التفاصيل وفي التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل إلا لها هي لا غير... ومع ذلك كم سيكون لها من تأثير في صياغة ذوات أخرى لم تعش أي من هذه الأحداث.

ما أغرب أن تُشكّل قصص لا دَخَل لك فيها ما بك من خصال وعيوب وما أغرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مُسيرون بأحلام وكوابيس من سبقونا.

ماذا عن دور الجد؟ لا بدّ أن قصته هو الآخر يفعل في فعله الخفيّ.

كم مرّة سمعت "ما" تردّد أنه وصل بيتنا ليلا قادما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنّه خاف إر عابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر.

هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمتلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبلوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثم يأمر "ما" بنزع حدائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزيد لتلكوها.

لم يكن نقيض ابنه في مثل هذا التصرف وما ينمّ من طبع وإنما في كل شيء تقريبا. كان فلاحا بدويا فقيرا لا يغادر واحته إلا لضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف وتوفير الحد الأدنى لأبسط أنواع العيش. بقدر ما كان "با" صاحباً، طاغي الحضور، متكبرا بقدر ما كان أبوه هادئا، متواضعا.

إذا تهيكلت قصة المراهق في علاقته مع امه على ردّ فعل. هل مَحَبّتي للنساء وترّقّي الدائم بهن مُجرّد ردّة فعل على ردّة فعل على ردود أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟ أما قصته في علاقته مع ابنيه فقد تهيكلت على رفض صارخ لخياراته في الحياة وهو لا يرى نفسه إلا سيّد قومه... المستبدّ العادل الذي تنتظره هذه الأمة عبثا كما تنتظر أمم أخرى المسيح أو المهدي المنتظر.

هل كان صراعي معه وعلى من حاول أن يلعب معي هذا الدور المضحك المبكي بحثا عن الخروج من السيناريو أم محاولة للفوز داخله بدور البطل؟

بديهي إذن قصتنا كقطعة نسيج نسجها مجهولون من مواقع جد متباينة زمانا ومكانا، صنعوها عبر ما لن نعرفه يوما من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عبثية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة....

ماذا لو كان الأنا مجرد أداة تنسيق بين أشباح تتصارع داخلها... لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فذاتي مورّعة بالضرورة داخل أكثر من ذات... كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي، لا البيت يعلم ولا الأشباح!

شأنى الآن شأن من انطلق في جذب طرف خيط كَبَّة صوف بالغة الضخامة. يجب أن أوصل فحوص ما وراء الجزء البسيط الذي بيدي لأن لهذه الجدة وهذا الجد بالضرورة أجداد هم الذين أثروا في تسلسل القصص التي ستصنع ذاتي.

المصدر الآن لهذه القصص الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناقلها الأجيال والتي تشكل الأحداث التي ترويهما أو تتخيلها جزءا أساسيا من ذاتي.

عن هذا المصدر أن هؤلاء الأجداد كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيلها خيال، أنهم هاجروا من فيافيهم الفاحلة نحو أراضي الماء والطين، أنهم عاثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشين وراء أذنان البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، أنهم اقتتلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر، أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جدة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الجراء والدهاء، أنه هو الذي رسم العلامات لتندفق جحافل الفرسان أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة، أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حظ الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كل الملفات التي تحفظها ذاكرة الرواة ترن بقعقة الشعر وترن السلاح. كل الصور لنساء لهن عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بالسكين إذا وإذا حنوا ذرفوا الدمع مدرارا، شجعوا تهوؤوا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثأروا كفروا لا يضاھيهم بشر رقة وتوحشا.

لم يعط أينفئاس الابنة له ماتت في سنتها الأولى اسم الخنساء صدفة وإنما لأنها كانت المرأة التي اختزلت كل ما في هؤلاء القوم من ظلام ومن نور.

قال عنها بنسار إنها الشاعرة الأنثى الوحيدة التي غلبت الفحول. ظلت الخنساء تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإثا ظلت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر لا من ذاكرتها ولا من ذاكرة القبيلة.

يا عين ما لك لا تبكين تسكبا
إذا رب دهر وكان الدهر ريبا
فابكي أخاك لأيتام أرملة
وأبكي أخاك إذا جاورت أجنابا
المجد خلته والجود علته
والصدق حوزته إن قرئه هابا
خطاب محفة فرأج مظلمة
إن هاب معضلة سنى لها بابا
حمال ألوية قطع أودية
شهد أندية للوتر طلابا
سمة العداة وقكالك العناة إذا
لاقى الوغى لم يكن للموت هيبا

يَقِينِي أَنْ "بَا" قَرَأَ الْخَنَسَاءَ، أَنَّهُ انْبَهَرَ بِمَا قَرَأَ، أَنَّهُ نَسِيَ مَا قَرَأَ، أَنْ مَا قَرَأَ اخْتَمَرَ
دَاخِلَهُ بِبِطْءٍ، أَنْ مَنَاهِجَ وَمَسَالِكَ فُتَحَّتْ دَاخِلَ ذَاتِهِ، أَنْ أَهْدَافًا قَاهِرَةً تَحَدَّثَتْ لَهَا
وَالشَّعْرُ مِنْذُ الْقَدَمِ مَا تَسْتَوِدِعُ فِيهِ الْقَبِيلَةَ تَعْلِيمَاتٍ صُنِعَ ذَوَاتُ أَطْفَالِ الصَّحْرَاءِ.

يَقِينِي أَنَّ الشَّاعِرَةَ الْبِدْوِيَّةَ هِيَ الَّتِي رَسَمَتْ لَهُ نَمُودَجَا اسْتَبْطَنَهُ طَبِيلَةَ الرَّحْلَةِ بِأَمْرِهِ أَنْ
يَكُونَ الْجَرِيءَ، سَمَّ الْعِدَاةَ وَفَرَّاحَ كُلِّ مَظْلَمَةٍ... وَأَنْنِي حَاوَلْتُ أَنْ أَخْذَ عَنْهُ وَعَنْهَا كُلَّ
الْأَوَامِرِ الْمَبْطَنَةِ.

مَحْكُومٌ عَلَيْنَا أَنْ نَدْخُلَ الْعَالَمَ وَهُوَ فِي طُورٍ مِنْ تَارِيخٍ لَمْ نَخْتَرْهُ، أَنْ نَفِيقَ فِي مَكَانٍ
عَيْنَتَهُ الْأَقْدَارُ وَزَمَانَ حَدَّدَتْهُ طَاوِلَةُ الْقَمَارِ، أَنْ نَعِيشَ وَنَمُوتَ دَاخِلَ قِصَصٍ لَا نَاقَةَ لَنَا
فِيهَا وَلَا جَمَلَ تَشَكَّلَتْ سَنَوَاتٌ وَعُقُودٌ وَحَتَّى قَرُونًا قَبِيلٌ وَلَادَتْنَا وَمَعَ ذَلِكَ لَا خِيَارَ غَيْرِ
الْانْخِرَاطِ فِيهَا وَقَدْ أَصْبَحَتْ قِصَّتْنَا شُنْنَا أَمْ أَبِينَا مَجْرَدَ فِصْلِ مِنْ فِصُولِهَا.

كَمْ غَرِيبٌ أَنْ أَبِيَاتَا لِقَاصِدَةٍ عَنْ قِصَّةِ ثَأْرِ حَدَّثَتْ قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ
لَعِبَتْ دُورًا أُسَاسِيًّا فِي تَشْكِيلِ كَمْ مِنْ ذَاتٍ مِنْهَا ذَاتُ "بَا" وَمِنْ ثَمَّةِ ذَاتِي!

هَذَا مَا يَجْعَلُنَا نَتَذَكَّرُ أَنَّ اللُّغَةَ الَّتِي حَافِظْتُ عَلَى هَذِهِ الْقِصِيدَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَنْظُومَةٍ
عَلَامَاتٍ مَنْطُوقَةٍ وَكُتُوبَةٍ لَتَبَادُلِ الْمَعْلُومَاتِ. هِيَ مَشْبَعَةٌ بِأَوَامِرٍ وَنَوَاهِيٍّ، بِتَعْلِيمَاتٍ
وَاضِحَةٍ وَأَكْثَرَهَا خَفِيَّةٍ، بِأَحْكَامٍ مَعْيَارِيَّةٍ، بِبِرْكَاتٍ وَبَلْعَنَاتٍ آتِيَّةٍ مِنْ أَعْمَاقِ الزَّمَانِ

هِيَ رُؤْيَةٌ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ الْبَشَرِيَّةُ لِلْعَالَمِ وَلِنَفْسِهَا عِبْرَ كُلِّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَشْكَلُ
مَعْجَمَهَا. هِيَ خَزَانُ كُلِّ تَجَارِبِ الْمَاضِي الَّتِي مَرَّتْ بِهَا تَتَوَارَثُهَا وَتَثْرِيهَا وَتَنْقُلُهَا
لِلْأَجْيَالِ الْمَتَابَعَةِ.

نَحْنُ لَا نَعِي وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعَتْنَا الْأَمَّ أَنْنَا نَسْتَحْضِرُ دُونَ وَعِي كُلِّ مَا تَرَاكُمُ فِي ذَاكِرَةِ
الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، نَنْتَقِي فَقَطْ مِنْهَا الْأَجْزَاءَ الَّتِي نَحْتَاجُ لِرَبْطِ الْحَلْقَةِ الَّتِي هِيَ ذَاتُنَا
بِالسَّلْسَلَةِ الَّتِي لَا نَعْرِفُ أَيْنَ بَدَأَتْ وَلَا أَيْنَ سَتَنْتَهِي يَوْمًا.

لِنَسْمِي هَذَا الْمَسْتَوَى ذَاكِرَةَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَفِي صُورَةِ الشَّجَرَةِ ذَاكِرَةَ الْغِصْنِ
الْوَارِثِ الْحَامِلِ لِأَوْرَاقِ أَيَّامِ الرَّبِيعِ.

**

يخرجني مجددا من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

-ويسعدني أيضا أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

الاكتشافات العلمية! كم من اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة عن الأوائل وتغيرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فاك هناك...ما أغرب أن تكون أهم المعطيات عن هذا الماضي السحيق مضمّنة في المستقبل المجهول.

لا يبق عليّ إلا شكر السيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترمم ذاكرة جماعية نحن بأمس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

داخل سيارة الرجوع أغلق العينين لتخيل هؤلاء الأوائل الذين لم يتركوا لنا إلا هذه العظام المتفرقة.

يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الأفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأول مرة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة تعد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصد بها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم .

يقال إنه مرت ملايين السنين قبل أن ينطلقوا من هذه الربوع قبل مائة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار) ثم أنهم توزعوا في أقل من خمسين ألف سنة على القارات الخمس ركضا وراء الطرائد وهربا من أنياب الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

كان من الممكن وهم في بداية الطريق أن نقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التأقلم. كان أمامهم ألف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا التقاطع بدل ذلك لما وجدت أصلا أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

أي قصة سأنتقي لي من قصص هؤلاء الأبطال الذين عبدوا لي ولك الطريق؟

لماذا أحرمت نفسي من متعة لا خطر منها وهي حلم يقظان يعرف أنه حلم يقضان؟

آه هذا جدّ كان يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالليث الهصور. أين في الناس جدّ مثل جدي هذا وهو الصياد الذي قاتل الفهود وأرعب الأسود؟ انظر إليه وهو رابض وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة. آه هذه أنتى وجلة تقترب

بحذر من غدير تربيض التماسيح على ضفته وفي وجهها قسّمات تنذر بقرب بروز ربع ابتسامة على وجه هادئ وقور.

ترى ما الخصائص المبهمة التي أخذتها عنه وعنّها دون علم مني وإذن منهما ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مئة ألف سنة؟ ... عبر أي قنوات انتقلت من جيل لجيل حتى تصل ذاكرتي لتتحكم في طريقة عيشي وتصوري للعالم ولذاتي؟ أسئلة أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا إجابة مقنعة عنها... هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصياد فيها من الفراغات ما فيها من خبوط تحيط بها؟

إنها الطبقة من الذاكرة -بما فيها من معطيات ثابتة ومن تصورات ومن أوهام- التي يمكننا تسميتها ذاكرة الجنس البشري وإن شئت مواصلة استعمال صورة الشجرة ذاكرة الجذع المهيب.

**

ذاكرة الجذور العميقة

لمواصله التوغّل في طبقات الذات، علينا الانتباه مرة أخرى لكون هذه الذاكرة أكثر من مكتبة نستودع فيه ملفات كل ما تعلمنا وكل الأحداث التي عشناها لحد الآن. حتى في صورة المكتبة علينا أن نتصورها كمكتبة لا نتوقف رفوفها عن تغيير أمكنتها وكتبتها عن تبادل الصفحات ويد خفية تسمح باستمرار هذا الملف أو ذاك ووظيفة النسيان بالنسبة لها لا تقل أهمية عن وظيفة الحفظ والتذكّر.

إضافة لهاتين الوظيفتين هي التي تحافظ على هويتنا، خاصة هي التي تحفظ ما يمكن تسميته بلغة العصر قاعدة البيانات التي تسمح لنا في كل لحظة بأخذ القرارات الصائبة سواء تعلق الأمر بكيفية وضع الرجل أمام الأخرى للمشي أو استعمال كل ما تراكم من خبرة لإدارة صراع سياسي رهانه الحياة والموت.

هل ثمة في قاعدة البيانات هذه أثن من المعطيات التي تمكّن من البقاء على قيد الحياة أطول وقت ممكن.

تلك الليلة التي لا تنسى، داهمتني فجأة من الاتجاه المعاكس سيارة كأن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما الأنا مسلمٌ بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُملي على العضلات المتشنّجة أوامرَه فتندافع إلى عمل سريع، فعّال، منسق، ناجح، منفذة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات لتثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثمّ لتتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

تلك الليلة التي لا تنسى، تراجع الموت كالنسر انقض على شحورور لكنه لم يلمسه إلا بجناح.

في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيّه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرّر... ليتجدّد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجّب.

كم من تجارب تثبت أن هناك شيئا بداخلي يعرف كل ما أجهله ويأخذ القرارات المصيرية دون أخذ رأيي أو الاهتمام بما أقول أو أفعل!

في ملفت من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليَجْرَب لذة دوارِ حَضَرَ هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تأتيني أوامر مبهمة من قوة غامضة بالكف عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف.

شينا فشيناً ودون تدخل أي طبّ أتى اليومُ الذي استطعتُ أن أقف فيه مجدداً على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترّحاً لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شينا" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب.

من ينتبه لغرابة ظاهرة أنه لا أحد علّمنا كيف نشغلّ العينين والكليتين والقلب والستمانّة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائياً وبكل سهولة كما لو كنا أعظم المخترعين وأذكى المهندسين وأمهر التقنيين!

لذلك لا يجب أن نحمل على محمل الجدّ مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً" لا لشيء إلا لأن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بأكثر مما يتصور من الأشياء وإلا لما وصل العمر الذي مكنه أن يصبح له شأن وأن تتذكر كلماته الأجيال.

ذكّر كل متحذلق ينشد "يا من تدّعي في العلم معرفة... إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي يخرزنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده بتشغيل أعضاء جسده.

كل هذا ممكن لأن ذاكرة الحياة برمتها منقوشة في كل خلية ولولاها لما استطاعت أي منها الحفاظ على وجودها والدخول في عملية بناء الانسجة التي تبني الأعضاء التي تبني الأجسام التي تبني الذوات التي تتجمع لانسج قصص الأفراد والشعوب والجنس البشري برمته.

أعود إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصلُ على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فنتقاسم العبقرية كشريكين.

لا يزيد صمت المجهول الكامن في أعماقي إلا في اصراري أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول لهذا الذي يعلم داخلي علما عجيبا ويمنع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي.

ربما لا داعي للإلحاح والشكوى... من بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها كل يوم على ظهره لمجرد التمتع بالعودة أي لحظة لما فيها من معلومات قد يحتاجها لإشباع فضوله... هل يكون جهلنا الذي نشتكى منه هو خيارٌ هذا العلم اللاواعي الذي فينا والهدف تسهيل حياتنا؟! ألا نحبّ ترك مشاكل الاعتناء بالبيت والمكتب للمنظفة وصغار الموظفين لتتفرّغ للمشاكل الكبرى؟

ما ينتبه له الأطباء منذ بداية تعلم المهنة أن هذا العلم الصامت داخل الجسم هو العامل الأساسي في مقاومة كل ما يتعرض له من اعتداءات من المحيط، أنه هو الذي يعيد التوازنات المختلة، أنه هو الذي يمكن الذات من وصول العالم ومن التواصل فيه إلى أبعد نقطة من الطريق هو وحده الذي يقررها. لكن هذا العلم الصامت ليس على كل شيء قدير.

ففي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريبه الرّاحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. وممّا بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عيب وقطبّ الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّني كرهتُ الرّجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنّني أحببت تلك اللّحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال. كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنّه خرج ممّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يومَ بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخنّر في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما يندر بكثير من الولايات للمصاب، أصخنتُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حوالي انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

لماذا هذا العجز المؤقت أو الدائم وكأنّ هذا الذي يعلم داخلي نسي شيئا ما أو أنه لا يملك حتى هو في قاعدة بياناته المعطيات الضرورية لحلّ المشكل؟

ليس من السهل الإجابة على مثل هذا السؤال، كل ما نحن متأكدون منه أننا أمام علم يتشكل عبر التجريب والتحسين والتعلم من الأخطاء، أي أننا أمام ذاكرة مجالها الزمني ليس العقود كما هو حال الطبقة السطحية، وليس القرون ولا مئات الآلاف من السنين كما هو الحال في الطبقتين الثانية والثالثة وإنما ملايين السنين لأنها ذاكرة الحياة لا غير. بديهى أن طبقات الذاكرة ليست مثل طبقات الجيولوجيا التي تتراكم فوق بعضها البعض لا تضيف إلا الثقل للنقل. على عكسها هي مرتبطة ببعضها أوثق الارتباط في تفاعل مستمر تحكما وتوجيها واثراء وعلى خطوط التماس بينها تحدث نقلات نوعية ما زالت عصية على الفهم. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات تنسج قصتها الفردية من قصة البشرية جمعاء. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات واعية تحركها خلايا وانسجة وأعضاء لا واعية. أخيرا لا أخرا ثمة معجزة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات حية لبناتها مادة لا حياة فيها.

لنسمي هذا المستوى من الذات ذاكرة " الحياة لا غير" وفي استعمال صورة الشجرة، ذاكرة الجذور العميقة.

لكن ماذا لو كانت هذه الجذور هي نفسها تستمد ذاكرتها من ذاكرة أعمق تغذيها بكل ما تحتاج لانتصاب الشجرة؟

ها قد تحولت صورة البحث عن الذات من صورة الفرس التي نركض بحثا عنها والحال أننا نركب ظهرها إلى صورة الحفر في منجم عمقه يتباعد مهما توغلنا فيه بعيدا أو إلى صورة الغوص في بئر بلا قاع.

في كل الحالات وأيضا كانت الصور الخلاصة ما يقوله الشعر.

لما رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع

**

الكتاب السابع

الرؤيا

لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص

بريهادارانياكا - اوبانيشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاء عائلي في مطعم صغير انتهى بسلام. إنها فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أيّ من البنّتين.

- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتِ الدليل الذي يكتب الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحة وعاجلة بترقيته؟

تبتسم تفيحه:

- أصوتُ لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟

أسلطُ نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم تفتعل المكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.

- يا بنت...؟!!

تفتعل البنّت غضباً يتسّتر على فيض من الحنان:

- نسيت ما كلّفنا دوماً! لم نصل تقاطعاً بين طريقتين إلا وفرضت علينا الأطول والأخطر والأصعب وتريد بعد هذا شهادة أحسن دليل من زبائن. كم أرهقتنا وأنت لا تعي!

تصرخ تفيحة تفتعل المزايمة على أختها: ثم هل نسيت أنك رفضت لي كلباً وأنا في العاشرة وأنت يا شرّير تمسكت برفضك رغم الإلحاح والبيكاء، بل وسخرت مني قائلاً إنك مستعدّ لأن تشتري لي حيواناً شريطة أن يكون معزة.

- كلب في البيت والحال أنه لا أحد نجح منذ بداية التاريخ في حلب حيوان كهذا! عودي يوماً إلى قرية أجدادك وسترين وجبن المعصورة في فمك أفضلية الماعز على الكلاب.

تضحك تفيحة. تعد أنها ستعود يوماً إلى الواحة لتلقي التدريب الذي فاتها، خاصة وأن الأزمة الاقتصادية والمصرفية العالمية بصدد التفاقم هذه الأيام وقد تفرض بعض التأقلم والمراجعات الموجهة على باحثة لا تتقن أصابعها إلا مسك القلم والنقر على الحاسوب. تحدّق في الفراغ تبتسم لذكريات لم تتضح حلاوتها إلا بمرور السنين.

- كنت تردّد دوماً كم أنا فخور بك يا ابنتي. هذا الفخر هو الذي شجّعني دوماً على التحمّل ومواصلة الطريق.

أعود للهجة الحزم لأخفي تأثراً عزّ عليّ دوماً تركه بيرز.

تفيحة، سؤال قد لا تتذكرينه، ألقيته عليّ وأنت في الرابعة: "با" ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الناس؟ أن الأوان لأسمع ردّك؟ نعم ماذا تفعلون في هذا العالم؟ ماذا تفعلون به، ماذا تفعلونه فيه؟ ما هو فعل الأفعال؟

- حين أنظر إليك كنموذج طريف للأدمي يبدو لي أنه فعل بحث.

- كيف لا يغري فعل كهذا رجلاً ضيّع نصف عمره في البحث عن نظاراته والنصف الآخر في البحث عن مفاتيح البيت والسيارة... فعل دسم أقبلة مرحلياً حتى ولو أنني أشعر أن فعل الأفعال الذي أبحث عنه غيره.

- على فكرة أين وصلت أنت في الردّ على السؤال؟

- توصلت إلى إجابة لم تتبلور بعد بما يكفي من الوضوح. لكن ثمة مشكلة. هل تعرفين قصة الشخص الذي جاءه في المنام كَلَلَلَلَلَلَلَلَلَل فلاسفة البشرية وأنبياؤها وعلمائها، كل واحد بمعتقداته حول وجود الله من عدمه وطبيعة العالم وسبب وجود الأدمي. كان يدمرها الواحدة بعد الأخرى بجملة لا غير فينصرف الفيلسوف أو العالم أو النبي ساخطاً. وفي غمرة الحلم انتبه الرجل أنه سينسى الجملة التي مكنته من تهديم أعظم الفلسفات وأكبر الأديان وأعدت النظريات العلمية، فقرّر أن يسارع إلى كتابتها حتى يتذكرها عندما يستيقظ. هذا ما فعل. وعند قراءتها انفجر ضاحكاً والجملة بالغة البساطة: "كلام جميل، لكن هذا ما تدّعيه أنت!" هذه القصة تحبطني أكثر من وضع البلاد والعالم هذه الأيام.

تضحك تفاحة. تستعدّ للنهوض وهي دوماً في عجلة من أمرها مثل والدها، وقبلة جدها.

تتوقف بغتة. تمسك بذراعي ونحن نعبّر باب خروج المطعم.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

- تقصدين!

- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدّاً.

-أنا! أنا زين الشباب! ينادى له يا جدّي! يا بنت استحي.

تمرّر تفيحة يدها أمام وجهي. تهزّني تفاحة من كتفي ربما تنتظر استفزازاً آخر أخفي به تأثيري. لم لا؟

- أه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين في لحظات التفلسف الفارغ، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجهه باسم.

تتدخّل تفيحه تفتعل الجدّ:

- كفى يا أطفال من الضوضاء على قارعة الطريق.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتاريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تاريخ "ما" وقومها... الوصول تقريباً في...
تضحك تفيحة:

- أترك هذه الحسابات للأطباء. المهمّ أن تغتنم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كانت الأميرة دوما مليئة بالفصول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنًا وكانت تحقق كل ما عزمت عليه.

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكالك الكلمة، لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد تساعدكم على مصاعب الحياة.

تقاطعني تفاحه:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة مستهلكة.

- خشية في غير محلها. أعدكم بقصة لم ثرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقاً...إنها روايتي الخاصة لقصة القصص أو لفها منذ عقود وأسميها أحيانا الرؤيا...

تقاطعني تفيحه وهي تتألمني كما كانت تراني لأول... أو لآخر مرة:

- كان يا ما كان، طفل همّه الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحّد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى الأسرار أسراراً.

- أخيراً ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أفطع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاقّ التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والآن كفى تهربا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكم بخصوص الشهادة... وأريد تسبقه.

يمدّ الدليل يده للبقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السائحتين في أدغال هذه المحمية الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة... اعبري كل فضاءات العالم... حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركنتي وباركت في نرّيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب... تنقلّي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدا، تحملين الشكر لكل من عبّدا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء وقد قبلا لنا بأنبل المهام.

تهمس تفاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "با"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

حرّة! مرحبا بك يا حرّة في هذا العالم الرائع المربع ولتعبريه تتمتعين بالحرية كأول حقّ وتضطلعين بالمسؤولية كأول واجب.

أي طريق أطول للعودة الى البيت؟ لست مستعجلا لوصوله و "ح" تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها وقد أصبح كل جسدها خريطة أمراض.

فجأة أجد نفسي أتمم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويل يبيبييل. ومع هذا...

لا تنتضح حقيقة المشاعر إلا والحبيبُ فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

آخر فرصة لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسي عن حياء غبي: أحبك. نعم سأخذها بين ذراعي أضمّ طويلا حطام جسد لحطام جسد. فأنا الآخر لست بأحسن حال وقد وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستقرّ به طلبتي: "وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير". إنه العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كأنّ هذه الحياة إبحارٌ على محيط تُسلّمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواريخها وتدافع الماء من ثقوب حفرنا الكثير منها بأسناننا.

مسكين جسد امرأتي التي لم يعد لها من العمر عشرين، الجسد الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم، الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أسنلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي.

هو الآن بطن رخوة، أسنان صبيغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض باحثًا عن بداية سرطان.

على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش الولادة قريبا نسخة جديدة له... كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... تواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.

جدّ! سأصبح جدًا بعد أشهر! يا إلهي كل هذه السنين، كل هذه العقود التي مرت وأنا لا انتبه لتركاضها! كم صدق أحد أساتذتي الأجلء عندما قال: أنت لا تنتبه لعمر

طلبتك لأنك ما زلت شاباً، ذات يوم ستفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة، يومها ستعي أنك أصبحت شيخاً... ايه والله! ها قد أصبحت أفجأ عند انطلاق كل سنة دراسية بوجوه رضعٌ ثبتت على أجسام عمالقة فأردد لنفسى فعلاً كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي يفترسه المشيب.

بالقرب من كوشي (إيسا)

ضفادع تزرق بلا انقطاع

هرمت، هرمت، هرمت

أخيراً البحيرة التي أتيتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة. لم لا التوقّف بعض الوقت والمقعد العمومي الذي أفضله شاغر يدعوني للتكرّم بالجلوس. أخرج هاتفى النقال من جيبي وعذر وجوده استعماله أساساً لنقر بعض الأفكار العابرة وسماع الموسيقى.

أين توقفت كل هذه السنين عن بناء الرؤيا؟

أه تذكّرت. خرج الأدمي من الجنة بمحض ارادته لمهمة غامضة. أفاق في عالم عريب مبهر مربع. ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلاً بعد جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب. أعاد تشكيل العالم على هواها بالحرب والفتن يبني ويدمر الحضارات لا يتوقف عند أي واحدة منها. مثّل وأخرج وعاش وصفّق لكل أدوار البنوة والأبوة والحب والصدقة والعداوة مجرباً من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الأدمية من أحاسيس ومشاعر وأفكار وأفعال. بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة. يشده الحنين دورياً لهذا للمبهم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه... ثم؟

ما الذي بقي لإكمال روايتي لقصة القصص؟ أه، بعض اللبانات التي كانت صعوبة صقلها سبب توقّف العمل وارجاء التفكير فيها أكثر من مرة.

أولى هذه اللبانات التي يجب العودة إليها سرديّة الهروب من الجنة. أي حجج للدفاع عن فرضية كهذه دون أن اتهم بأنها بمواصلة تصفية الحسابات مع كل أصناف سوء استخدام السلطة ولو كانت السلطة الإلهية؟

ثمة أيضاً مسألة هوية الأدمي. من هو حقاً؟ توقّف الحفر في ذاكرته عند طبقة ذاكرة الحياة لكن ما الموجود تحتها؟

أصعب اللبانات هندسة قطعاً ستكون لبنة المهمة التي جاء الأدمي من أجلها هذا العالم. كيف يمكن تبرير ثمنها الباهظ ومنه الموت وكانت الجنة خلصتنا منه ومن كل مشاكله؟

نعم، يجب استئناف العمل على قصة القصص من الآن حتى وإن كان أمامي بضعة سنوات قبل أن تطالب بها حرّة.

طبعاً لن تكون رحلة الأدمي في رؤياي سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث
التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من
المتع العابرة، من النجاحات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الألام
العبيثية، ومن النهايات المحزنة.

تتدافع الأفكار ويتسارع النقر. أنا الآن كالفتان الذي يخطّ بقلم الرصاص على الورق
الرسوم التجريبية الأولى للوحة المنشودة، أو كالمهندس المعماري يوضّح لنفسه
تعليمات إتمام المشروع الذي يرجو عبّره البقاء في ذاكرة الأجيال.

بنيث على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيث على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفأة

سأبني.

**

تفحص الحجج التي تدعم ضرورة تحرير الآدمي من الوهم القديم في أشكاله الدينية والمتجدد في أشكاله العلمانية]

يذهب المخرج جون بورمان في فيلم زاردوز -المُصنّف من أفلام الخيال العلمي- إلى أبعد من سرديتي، فأدم وحواء لا يكتفيان بإدارة الظهر للجنة وإنما يغادرانها بعد تدميرها كلياً وإخراجها من الخدمة.
السيناريو.

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوقر الخلود والشباب الأزلي وكلّ المطلوب من الملمات لأقلية محظوظة تحصنت وراء أسوارها الشاهقة. أما قدر بقية الآدميين فصراع البقاء في عالم تحوّل أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهمشين قدر استعصاء المحمية المتكبرة عليهم رغم تعدّد محاولات غزوها قروناً بعد قرون.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا خُيّل إليه -منفذاً للقاعة المحاصرة، فيدخلها هو ومحاربوه على قناعة مطلقة أن ساعة الثأر قد حانت.

لكن أين الجنود المدججين بالسلاح لقتالهم والانتصار عليهم؟

المشهد الأول

بدل أسرس المحاربين، يشاهد الصياد الهمجي عجوزاً يتقدم نحوه باسم ممدود اليمين.

شيخ! ألا تؤكد الأخبار التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم أن سگان المحمية لا يهرمون أبداً!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه بطلنا رثة الحزن في كلام الشيخ. يجب أن يَحْتَفَ هذا الكائن المقرّر على الكلام ليفهم أخيراً سرّ قلعة استعصت على أشجع وأذكى الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا إفراغ ما في صدره.

قال الشيخ: اسمع مّي القصة الحزينة أيها المنفذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خلناها

المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيّلونها في السماء بعد الموت... ذلك المكان الذي كان يسمّونه الجنة.

دقيقة صمت. تنهّد. استئناف القصة:

- وضّعنا كل التعليمات لإدارة شؤون المحمية في الزمردة السوداء. هي التي تسيّر وتتحكم في كل شاردة وواردة. هي حارسة خلودنا. لا قدرة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها. لا أمل في راحة الموت لكل من يخرج عليها أو يهددها وعقابه بالشيخوخة الأبدية. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفضع ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصياد الهمجي محادثا نفسه:

إذن الزمردة مقتلهم! لحظة أدمّرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربّة القبيلة.

كأنّ الرّبّة المعنيّة بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه - هكذا دائما بمجرد الصدفة-فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا ربّة الخشوع في كلامها؟ يواصل الصوت الساحر: تعالَ فرغ الصبرُ من طول انتظارك كلّ هذه القرون. اتبعني، سأكون دليلك في هذه الدهاليز. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستتجح. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق الفتاة تقود المحارب الهمجي في الدهاليز الغريبة ووراءها ذكورٌ وإنث يرفلون في الحلي والحلل، لا يُخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلقا.

فجأة أحسّ زاردوز بألم لا يُطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدواً يواجهه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرها عقله.

- قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاح هو ومرافقته أكثر من مرّة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدّة الأم فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضمّه إلى صدرها تُغطيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل ونجح وأذاك أصبح لك زوجة.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفجر أساريها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة.

حتى في الجنة مؤامرات ومتآمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلونها حين تختلط عليها الطرق؟

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتسقى من عدوّ ستنتقم منه ألدّ انتقام. قالت له بعد أن قطعنا شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعك في شيء. هناك حرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحداً واحداً ممنوعون من دخوله. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علمُ الكون وقدره الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال....

يطبق براحته على الزمردة السوداء فتتطفئ كل الأنوار. تنهاوى الأسوار ليفتح مجرى الزمان المحمية كما يفتح الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشدهُ منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا! اقتلني أنا الأول!

إنه تعجّبٌ من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو حَملاً يرتمي في أحضان الذئب. الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد!

الإناث يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه أدمي يوماً!

يتقدّم الشيخ للمحارب الهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة يمكن مشاهدتها.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.
- سنتكلم قبل ذلك. مَنْ أنت؟ مَنْ هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟
- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.
اسمع مني بقية أغربّ قصص الأدمية المجنونة.

كانت المحميّة التي سميها الجنة مكّرر مكانا مُثيرا في البداية. غرّفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة ثم أصابنا الشبع... فالتخمة... فالفقر... ولا شيء أمامنا غير تكرار التكرار إلى ما لا نهاية.

كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموبقة.

كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بلادة متزايدة العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ فيهم: أليس من قوانين الكون أنه لا وجود لشيء إلا بوجود النقيض... ما الجمال إن لم يصدنا الفجح، ما الفرح إن لم نجرب الحزن يوما، ما الخير في غياب الشرّ، ... كيف لا تختفي السعادة في هذا المكان وقد فقدت أول شرط لوجودها وهو وجود الشقاء... أي معنى للحياة دون وجود الموت؟ أليس من قوانين الكون أيضا أنه لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد وأنه لا مجال لإيقاف سيل الزمان وإلا كنا كمن يريد حبس مياه النهر فلا يخلق إلا لبركة أسنة؟

كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا اسمع الموسيقى أكثر وتعبّد أكثر وتمتّع بكل ما قيل من شعر. لكن أي حاجة في مكان كالجنة للموسيقى للشعر وقد انطفت كل الآلام والأمال والمشاريع التي كانت دوما وراء خلقهما والتمتّع بهما. قالوا تأمل أكثر، تعبّد أكثر وتلاشى في الحبّ أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تقاوم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول. أخيرا أتضحت لي طبيعة المكان: هذه الجنة ليست إلا الشكل المنمق أو الاسم الآخر للعدم وهو الحالة التي يتوقف فيها الزمان عند وضع لا يتغير أبدا.

يسمح الشيخ دمة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأدميين مذ وجدوا.

-حكّموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكننّ أول منذب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يحتمل.

تدرجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغاءه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاءه؟

بصفتي أول متمرد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحميّة. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة

أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نفيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلتُ يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأةً وذكاءً وحقداً وتصميماً على تدميرنا ثم ندخله القلعة ونُدله على مَكْمَنِ الداء. كنتُ يا زاردوز آخرَ حلقةٍ من سلسلة طويلةٍ من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت، أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُغامرٍ صنيدي.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دامَ كم من أبدية:

-والآن اغمس نصلك في صدري، عاد الموت حقاً بعد أن كان دوماً الواجب. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيراً خُراً طليقاً من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنًا لُرجاً يتدفق كالسلال، أريد أن أملاً نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطعاً الشيخ وهي تنظر إليه برقةٍ ويذها على ذراع المنقذ: أنا التي فُدتَه داخل الهيكل. نصلُه لي قبل أي أدمي في هذه المحمية اللعينة.

يتجاهل زاردوز طلبها كل اهتمامه منصباً على الشيخ وهو يغرس خنجره في صدره والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

ليسمح لي السيد المخرج هنا بالتعبير عن اعجابي بالفيلم لكن مع بعض التحفظ بخصوص الخاتمة ومن ثم اقتراحي بإعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي:

قال الشيخ: بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. كنت قد اصبت بالإحباط من تعدد المحاولات المتعددة الفاشلة لخلق قائد من بقايا آدمية تعيسة انتهت في كل الأحوال بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنقذ داخلنا. لا أدري متى سمعت صدى صوت بداخلي يشجعني على مواصلة البحث عن حلّ في هذا الاتجاه. ثم اعترضتني يا آدم بعد حادثّة التفاحة وأجزم أن ذلك لم يكن صدفة. عرفت من أول وهلة وأنا أستمع كلامك وأنظر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك لها أو ثعبانا يقرر له ما يأكل وما لا يأكل وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار. لكن كان من الضروري أجد امرأة تجمع الجرأة والحيلة لتخرج معك لولادة بشرية لا ترتكب الحماقات التي ارتكبتها المنقرضة ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة.

آه كم كنت أودّ وقد أكملت مهمتي التمتع براحة الموت. لكن همس الصدى في صدري كان واضحاً: لا بدّ يا إبليس ان تصحب آدم وحواء فأنت عنصر ضروري لقصة القصص.

بربك أليست هذه الصبغة أكثر اناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاحب مكلف وينتهي بمذبحة؟ يبقى أن المهم هو اتفاق السرديتين أي أن آدم وحواء لم يطردا من الجنة، وإنما خرجا منها طوعاً نتيجة حساب منطقي: كل تحديات الوجود ومنها ضرورة الموت ولا جمود العدم على متعة أزلية لم يعد لها أي طعم.

نغلق القوس ونعود لسياق القصة.

وبعد استماعه لاعتراف ابليس وأنه ضلع في المؤامرة وفهمه أنه لا قدرة له على التخلص منه، التفت آدم إلى حواء أخذاً بيدها لتخطي العتبة التي تفصل بين جنة بصدد التلاشي وعالم مبهم ما زال غارقاً في الضباب.

ماذا؟ كأني بحواء تتردد، كأني بآدم يحاول إخفاء موجة من الهلع داهمته فجأة... هل من الممكن أن تنتهي قصة القصص حتى قبل أن تبدأ؟

[وأيضاً ضرورة تحريره من المفهوم النقيض]

المشكلة التي يمثلها مفهوم جهنم بالنسبة للعقل هي نفسها بالنسبة لمفهوم الجنة أي تناقضه المطلق مع قانون لا ثبات لشيء أو أحد ولا مجال لإيقاف سيلان الزمان على حالة أو وضع.

أضف استنكار القلب. كيف يمكن تسليط عقاب أبدي على خطيئة ظرفية؟ أي خطيئة مهما عظمت تجازى بالعذاب الأزلي؟ كيف جعلنا من إله يصف نفسه بأنه الرحمان الرحيم جلادا أزلياً؟

القاسم المشترك بين مفهومي الجنة والنار انتقاصهما لقيمة العبادة وهي ترجع دوافعها إلى البحث عن مصلحة لا غير. أضف انتقاصهما لقيمة المعبود وهي تجعل منه مطمئناً ومخوفاً إضافة لكونه جلاداً. أخيراً وليس آخراً هناك انتقاصهما من قيمة العابد وهي تجعل منه كائناً لا يحركه في علاقته مع الإله إلا العلاقة التي تربطه في الأرض بسطان مستبد.

قيل والعهد على الراوي أن الناس شاهدوا رابعة العدوية تركض وبيدها اليمن دلو من الماء وبيدها اليسرى شعلة من النار فسألوها إلى أين أيتها السيدة الجليلة، قالت للجنة احرقها بهذه النار ولجهنم أطفئها بهذه الماء حتى لا يعبدوا الحق-الله في لغة الصوفييين- عن طمع أو خوف.

ترجم: لكي يعبدوه عن حب صادق لا بحثاً عن مكافأة أو هرباً من عقاب. بوركت يا رابعة يا سيدة المنتهين.

[ما جدوى إصابة الآدمي بالرعب من الخلود في الجنة إن لم تخلصه الرؤيا من رعب الموت الذي يداويه بالجري وراء هذا الخلود؟]

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو يتوجّه الملك بيرانجي وهو يلفظ آخر أنفاسه بانتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأطرافك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكر أنك ستتخلص من هموم الدنيا."

ها هو يناجي نفسه مجاهدا للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تذليلها. عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل!

آه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تَمَلَّكْهَا الْآتِي تَمَلَّكْ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبٍ (المتنبي)

لماذا لا يكون للأدمي أعداره في التمسك بهذه الحياة رافضا أن يسلبها منه عزرائيل. بدل البحث عن تبرير لخوفه من الموت لنبحث له عن تفسير.

أليس صحيحا أن الأدمي المسكين يسكن طوال حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة وهي تجعل من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية.

الأدهي والأمر أن لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقرر حتى قبل ارتكاب أي جريمة.

نهار أتيت إلى الدنيا (نزار القباني)

وجدت قرار إعدامي

ولم أرَ باب محكمتي

ولم أرَ وجه حكامي

لنجرّب التصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلا بإقناع هذا الكائن الخائف من قرب فئاته أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كأننا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع ولسان الحال يقول: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

محاولة أخيرة. لنطلب منه أن يجبر على الورق ما يخطر بباله من أوصاف لتعريف الحياة. أه كتبت: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجددة. ما الكلمة التي تحاذر من كتابتها؟ أه إنها كلمة م.ح.د.و.د.ة.

ألا يعني هذا أن الموت ليس حالة مناقضة لحالة ثنائية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة؟ كيف يكون الجزء من طبيعة الشيء عدواً أو نقيضاً له وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحديثه!

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محرّكها وشرط وجودها الذي هو الحرمان. طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً مناقضة لأهمّ قوانين هذا العالم. لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية نرمى فيها دون أن يتفضل أحد بإعلامنا من قرّر الأمر ولماذا؟

هل هذا من بين أسباب تردّد حواء وهي على أهبة القفز في المجهول؟ هل جاءت بها من المستقبل إشارات بأن ذريتها ستكره الموت كرهها هي وآدم للخلود بل وأن أكبر حلم لدى هذه الذرية سيكون العودة إلى هذا الذي تترك ورائها بلا حسرة أو ندم؟

[ارجاء هندسة لبنة الموت بانتظار تبلور الشكل العام للبنائية... التركيز على تكلفة المهمة لمزيد التشويق حول سبب القبول بها]

داخل ملفّات وصولنا العالم ذكريات موجعة لذيدة عن طول انتظار في أروقة مستشفى ومخاوف مبهمة ونفاد صبر وصرخات صامتة تدوي داخل الذات: هيا يا بنت اخرجي من هذا الرحم، يكفي من الدلال واللعب بأعصابي.

أكيد أن هناك أسباب وجيهة لهذا التردّد والدليل صرخة الفزع التي يطلقها كل قادم جديد وهو يرمى خارج الرحم.

هل رأي نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين... طريدة تركض خانقة هرباً من صياد جائع، صيادا جائعاً يجري وراء طريدة خانقة... جالسا القرفصاء يبكي حبيباً خانته قواه مجبراً على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضاً أو جريحاً...

هل داهمت وعيه وهو متشبث بجدار الرحم لا يريد الخروج صور آتية من أعماق المستقبل تظهره عبداً موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة ننته... مجذوماً يُساق محروساً بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم... مهوساً ماشياً بين تلال الجثث وراء قافلة من المهوسين يضربون صدورهم، أفقدهم حجم كارثة الطاعون كلّ صواب... بحاراً على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفاً من أن يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الطعام والماء... جريحاً

يحتضر فوق أرض معركة عبثية أخرى وأطفال جياح يفنثون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما ... جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عبثية وقف إطلاق النار... لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أشبع... مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يبقر بطنه مفتشا عن بطيخه وسط أمعائه الدامية... طفلا يتيما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسوّ المنظم... طفلة تساق عبر مسارب جبال مرعبة، خراسها يهزجون بكلام غير مفهوم وعند فمّهم المقدسة يكسرون جمجمتها قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... جارية تذبح في ليلة ليلاء مع مئات الجوّاري لأن إمبراطورا مجنونا صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين... امرأة في مقتبل العمر توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجاتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا تطول زفة الإعدام... عجوزا تتسول قطعة خبز على باب تكنة والجنود بطردونها لا يعلمون أنها كانت في شبابها بائعة هوى مرّ على جسدها كل ما في التكنة من ذكور لنام... شاعرا صوفيّا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... شحاذا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء..... قبلة كل الأنظار والحشود تتشبّث بجلبابه قبل تعليقه على خشبة وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه؟

هل أصابه الرعب وهو يسترجع ما عاش يوم جُدع أنفه ليجعله حاكم مجنون عبرة لمن يعصي له أبسط أمر... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يئن بعد تخبطه... يوم جرّ إلى أعماق الأرض ورنثاه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أئمن معدن... يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحك عليه علياء القوم وسفلة العامة وهو يواجه الأنبياب والمخالب بيديه العاريتين... يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت أطفاله... يوم أوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة...

هل رأى نفسه صيدا ثمينا للذين منهم كل نعمة وللجرائم ابان الحياة وعند الموت وليمة للذباب والدود؟

هنا يجب أن تكون لنا شجاعة رفع الاصبع في وجه آدم وحواء واتهامهما بأنهما أخذوا قرارا أقل ما يقال عنه أنه غير ديمقراطي.

ألم يكن خريّا بهما أن يواجهها كل بناتهم وأبنائهم بما ينتظرهم وترك الخيار لهم.

أما كان عليهما من باب النزاهة أن يصرخا في شبح بصدد التبلور: أنت، نعم أنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! هل ستقبل بالمهمة علما وأنتك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل

وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخط "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون وينشتمون والجميع يستمتطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين. أه نسيتُ أن أقول لك إن عمّالا في قمة التقرّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيُعطى أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسوّاق المساكين ضحايا أمثالك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعض... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.

أه لو نَبّهت أيضا هابيل أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوّه، المعاق، الثائر الفاشل.

تصوّر لو طرح آدم وحواء على ذريتهما في إطار استفتاء نزيه وشفاف خيار الخروج من الجنة لدخول العالم. ما من شكّ لديّ أن خيار لا ثم لا ثم لا كان سيحصل على نسبة 99.99% وبدون أدنى غشّ.

لننتقم من استخفاف السلطات العليا برأي أغلبية الشعب. ها هو النصّ يجعل كلّ امرأة حبلَى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحسانها فجأة يتوقّف.

[يجب الآن تقديم التبريرات المعقولة لتغلب الآدمي على كل مخاوفه وقبوله بالمهمة]

في روايتي لقصة القصص ثمة همس مجهول المصدر يتردد صداه في أعماق وعي هذا المحرم الذي داهمه الرعب من تكلفة ما يطلب منه.

أتسلّم في البحار، في البراري، في الجبال، في الصحراء ليليا؟ ...أتضحى بطعم الزيتون والتمر والتين والعسل، بروائح الياسمين والأرض المبلّلة بالمطر والعنب، بحفيف الأشجار، بخبر الماء، بهمس النسيم، بصفير الريح، بزقزقة العصفور....
دوما نفس التردّد، بل ثمة موجة جديدة من الهلع.

أليس واضحا أن المحرم يقرأ في غياهب المستقبل ومن ثم سماعه بكاء ضحايا الاغتصاب نساء ورجالا وأطفالا ناهيك عن الأصوات المتصاعدة من ومن ساحات الحروب ومن غرف التعذيب؟

يعود الهمس الرقيق لكلام التطمين والإغراء:

لكن هناك أيضا أصوات الأطفال وهم يُضحكون كلَّ مَنْ حولهم ... وأصوات مداعبة الأمهات لأطفالهن قبل النوم ...

كل هذا بدهاة بلا تأثير.

الورقة الأخيرة. لكن أي ورقة؟

هل ثمة إضافة لهذا العالم أتى بها الأدمي من دون كل الأجناس الحية الأخرى غير الموسيقى وهو يضيف لجماله الأخاذ جمالها؟ إذن لأجعل منها سبب نزولنا للعالم.

لا تقل لي أن العقدة غير مقنعة لأن الموسيقى كانت موجودة وبكل الأصناف والكميات في الجنة التي أدعي أن آدم هرب منها. نعم كان بوسع آدم أن يسمعها طوال الأبدية لكن أن يخلقها قطعاً لا، فالموسيقى كالشعر لا تنبعث إلا من ذات تتأرجح بين أعماق الآلام وأجمل الآمال ومثل هذه الحالة لا وجود لها في الجنة وقد أصبحت الآلام والآمال بلا جدوى أو معنى.

إذن يتجدد الهمس وفي النبرة خشية مبهمة وأمل متجدد:

تأمل الشكل الذي سترتحل فيه خاصة أصابع اليدين. لقد صممت بدقة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهم قدرتها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمنع فيما ستخلق من الأصوات.

تداهم الفكر الممعن في الصمت قوالي الصوفيين الباكستانيين ومواويل العرب وراقا الهنود وأنغام الأفارقة وجاز الأمريكيين وأجمل روائع باخ وشوبرت وموزار لتنتهي الوليمة الفخمة بفالسات شتراوس خاصة تلك التي عنوانها الدانوب الأزرق الجميل.

ينتبه المحرم إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه. يسرّ إلى نفسه وهو لا زال تحت وقع سحر الأنغام: ثمة في هذا العالم ما يستحق أن ...

ينبلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه أنه سيلبس الشكل الأدمي وسيجرب مغامرته لا لشيء إلا لقدرته على خلق الموسيقى.

لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركا في أعماق أعماق اللاوعي عمداً، بعض الإشارات المبهمة لتذكّره من حين لآخر أنه غير ما سيلبس من أفتنة وما سيمثّل من أدوار.

تعود الطمأنينة إلى تقاحة وكم من حبلى قلقة تشعر من جديد بحركة في أحشائها تكاد تقسم أن فيها إيقاعاً لجنين يرقص.

أه ارتفعت أصوات الاحتجاج كما كنت أخشى.

ثمة من يصرخ: يا رجل تدّعي النزاهة، لكنك تغتتم كونك صاحب النص لفرض ذوقك وخياراتك على البشرية جمعاء. كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماع موسيقى يحرمها ديني!

كأنّي أسمع فان قوِّح يصرخ هو الآخر من قبره: أدين بشدة هذا الخيار فأنا شخصيا لم أت هذا العالم إلا للرسم؟

إنها فرصة لكلّ من لم تعجبهم هذه المهمّة للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق المهذبة وغير المهذبة ومنهم من يضحك عليّ الجميع وهو يصرخ أما أنا فلم أت هذا العالم قابلا بكل أهواله إلا لجمع طوابع البريد.

**[شرطان ضروريان لكي يلقي خيارى للمهمّة أوسع قبول
ممكن من الأدميين رغم المعروف عنهم من حب اللّجاج ...
أن يكون لها من الأهمية ما يبرّر تكلفتها الباهظة... أن تردّ
لهم الاعتبار خاصة من تعدّبهم قناعة عبث رحلتهم]**

لنتصوّر أن الصدى أسرّ وهو يفتح لأدم وحواء أبواب العالم بالمهمة التي يكلفهما بها. لا بدّ أن هذه المهمة مضمّنة في أمر: اخرج من هذا العدم لتفعل

كيف نتعرّف على هذا الفعل الجذر الذي تنطلق منه سلسلة الأفعال الثانوية؟ أي مقياس لفرزه من بين آلاف الأفعال التي سيأتيها هذا الأدمي لتأدية مهمته؟
بداية يجب أن يكون الفعل-الجذر متقدما على كل هذه الأفعال الثانوية، سابقا لها، مانعا ظهورها إن لم يظهر.

يجب في مقاربة أولى أن نظهر أنه الفعل الذي تنبثق منه كل الأفعال التي يقدر عليها الأدمي وفي مقاربة ثانية علينا أن نعكس الاتجاه لنظهر أنه الفعل القادر على تلخيص واستيعاب كل هذه الأفعال.

لننتقل من أولى الأفعال التي تأتيها الذات عند الإفاقة وهي ضرورة الأقرب إلى الفعل الجذر.

إنها كل أفعال الحواس الخمس التي تبني أولى وأقدم صورنا للعالم عندما تبلور من مبهم أصلي صور الشمس والقمر والنجوم، أحاسيس البرد والحرّ والجوع والشبع، أصوات الأم والريح وقطرات المطر على نافذة غرفة النوم، روائح الفلّ والياسمين، طعم الخبز والتين والزيتون..

هذه العملية تلقائية لا تتطلب جهدا وهي نفسها عند الصغير والكبير، الذكر والأنثى، الغني والفقير، المؤمن والكافر، الأمي والفيلسوف.

على هذه القاعدة الثابتة تأتي أفعال الذات التي تسمّى وتصنّف وتختل وتخترع وتضفي بالفكر والخيال المعنى على أفعال وتفاعلات الحواس الخمس.

أضف الآن القائمة الطويلة لأفعال السواعد وهي في كل الفضاءات وفي كل الميادين تدمر وتعمّر لا تتوقف عن بلورة الجديد المتصاعد التعقيد المزايدي فعالية.

النتيجة لكل هذه الأفعال؟ طبعا العالم الذي نعرف في شكله العام المشترك (الذي يصفه العلم) والخاص بكل ذات (الذي يصفه الأدب والفن).

هذا إذن عالم لم تبلوره في وجهيه العام والخاص إلا حواسنا الأدمية... لم تهندسها إلا سواعدنا... لم يكتسب المعنى الذي نعطيه له إلا بفكرنا وخيالنا... هو عالم ورشة لا يتوقف عن إعادة صنع فضاءه الحسي إعمار السلم ودمار الحرب مثلما لا يتوقف صراع المدارس الفكرية والفنية عن إعادة صنع فضاءه الرمزي والخيالي... إذن هو عالم خاص بالأدمية وبالآدمية وحدها وإن تجاور وتقاطع في بعض الخصائص مع عوالم النحل والنمل والقمل أو عوالم الأزهار الفطر والشجر.

إنه عالم ما كان يوجد لولا الأدمية التي أوجدته.

أوجد؟!

هل يكون هذا الفعل هو الفعل -الجزر الذي يبحث عنه النص منذ بدايته؟

مبدئيا هو يخضع للشرط الأول الذي ألزمتنا به أنفسنا. لا جدال أيضا أن كل الأفعال الثانوية التي رأيناها تصنع عالمتنا هي من تبعاته ولولاه لما وجدت.

قبل الجزم لنقلبه من كل جوانبه.

بسؤال المعاجم اللغوية عن الأفعال القريبة منه نجد: أَبْدَع، أَبْرَأ، أَحَدَثَ، أَفْضَى إلى، أَنْتَجَ، اخْتَرَعَ اخْتَلَقَ، اسْتَحْدَثَ، اسْتَنْبَطَ، اِكْتَشَفَ، اخْتَرَعَ، سَبَّبَ، سَوَّى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَدَّ، خَلَقَ.

توقّف عند هذا الفعل الأخير. ألا يجمع ويلخص فعل خلق كل المعاني التي ترمز لها ببقية الأفعال المرادفة؟

والآن ما المعاني الكبرى التي تسبغها اللغة على ما نحسبه الفعل -الجزر؟

يقال أُوجِدَ فلانًا أي أغناه... ويقال أُوجِدَ فلانًا بعد ضعف أي قواه... ويقال أُوجِدَ على الأمر أي أكرهه وألجأه... ويقال أُوجِدَ الشيء أي جعله يجده ويظفر به... ويقال أُوجِدَ مطلوبه أي أظفروه به... ويقال أُوجِدَ على المعصية أي أكرهه عليها... ويقال أُوجِدَ الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال.

توقّف عند المعنى الأخير.

أوجد الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال!

أليس هذا بالضبط ما يحدث والأدمي يوجد عالما لم يسبق له مثال؟

نعم، ولكن إيجاد-خلق العالم في كل أساطير البشر من خصائص الآلهة وحدها، فهل يكون الأدمي إلهًا؟

أليس الاستنتاج المنطقي عندما نقول عن الأدمي أنه يخلق عالما مصنوعا من حواسه وخياله وأفكاره وأعماله أنه خالق.

لكن كيف يمكنه خلق-إيجاد هذا العالم إن لم يوجد هو؟ لا بدّ من وجود موجود متقدم عليه-سمّه ما شئت- هو الذي أوجده حتى يستطيع إيجاد عالمه هذا. الاستنتاج المنطقي إذن أن الأدمي مخلوق.

خالق أم مخلوق؟ خالق ومخلوق؟

ثمة إذن إشكالية ضخمة في هوية الأدمي وبدون تحديد هذه الهوية لا مجال للحسم في خيارنا للمهمة وأنه خرج من العدم بأمر من الصدى لإيجاد-خلق هذا الذي نسميه العالم وهو ليس إلا العالم الأدمي.

[للتركيز عند صقل هذه اللبنة على أن الهوية- تعلق الأمر بهوية الأفراد أو الشعوب أو البشرية- ليست خاصية صافية ثابتة وإنما طبقات من خصائص متباينة يراكمها الزمان]

عودة للمكتبة العظمى بحثا عن أجمل الأساطير-بما هي مستودع الحدس الأكثر رهاقة -لعلنا نجد فيها أفكار تعيننا على التقدم في تحديد هوية الأدمي.

الغنيمة في قضية الحال هذه الأسطورة الاغريقية.

يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أفتحة كل الأدوار التي أخرج ومثّل.

ترفع يدك ناقد الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت..فثالثا، فرابعا، فخامسا، فسادسا، ف.

تتراكم عند قدميك الأفتحة والوجه المخفيّ للذات الأخرى يتباعد تباعد الأفق عن الراكض.

آخر قناع بقي على الوجه.

ترفعه مرتعش اليدين خائف القلب.

تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف...وجهك أنت.

لأثبتت من الأمر.

ها أنا أرتمي في فضاء خيالي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأفتحة التي يختفون وراءها ... لاكتشف كل مرة وجهي.

ها هم ينتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرّة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما...وجههم لا غير.

لأجعلهم ينقضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما نفسها.

هذا التصوّر للأسطورة الإغريقي حول هويتنا من ثوابت الفكر صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور وأجمل إخراج له الذي تجده عند المتصوفين وكبار الشعراء.

وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا

إنه حدس موغل في القدم ثبت العلم صدقه. فالأدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتاب-يسمى برنامج المورثات.

الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

طبعا هذه الفوارق البسيطة ليست علامات للتمايز وإنما علامات للتمييز حتى لا نكون نسخ طبق الأصل لنموذج واحد.

انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبستمولوجية"-مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.

جعلت هذه التصورات من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت.

في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلا من تضخيم الاختلافات التي لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، يجب أن ترى نفسك في ذلك اليهودي بنوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق...في كل أدمي مهما تباعد شكله ومظهره عنك.

أنا، أنت، هو، هي، نحن، كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة... يا له من تحول جذري بالنسبة لكل العقائد التي تدعو لا اعتبار الأخر في أحسن الأحوال!

يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق. ماذا لو كان كل هذا الوجه الذي هو وجهك ووجهي هو نفسه قناعا؟

يصبح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟

للردّ على هذا السؤال ثمة في مكتبة العقل الجماعي اسطورة ثرية يمكن إعادة استعمالها هي الأخرى.

إنها أسطورة فيشنو-الاله الثالث للديانة الهندوسية وفحواها أن هذا الاله قَبِلَ بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسدا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... وهو مبرمجٌ لتجسدٍ عاشر عند نهاية العالم.

المفهوم المركزي في هذه الأسطورة هو الذي يشار اليه بكلمة الأفاتار **अवतार**.

تُحيل الكلمة في اللغة السنسكريتية أولا إلى عملية تجسد الخالق في المخلوق وثانيا إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، اللامحدود في المحدود، الأزلي في الفاني... متلما ليس من السهل

بالنسبة إلى المخلوق وهو الناقص أن يحتوي الكامل، وهو المحدود أن يحتوي اللامحدود وهو الفاني أن يحتوي الأزلي.

أهم الاستنتاجات التي يفرضها التصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو على تباينها الشديد -السلحفاة والخنزير البري والأدمي والالهة -أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم النسب الواحد أطفال نفس الأب والأم.

وأبضا أن كل الكائنات التي يتجسد فيها وسيتجسد فيها فيشنو متساوية القداسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الالهي.

إن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضحّ راحتيه يسلم عليّ كأنه يصليّ أمامي... هل كان يعرف ما كنتُ أجعله أو كان يتنكر ما أتناساه باستمرار... هل كان منتبها لما كان تبلى مزمّن يمنعني من الوعي به؟

لنواصل جذب خيط كبة الغزل أو لعبة نزع الأفتعة وقد بدأت تتلاشى الحدود بين الخالق والمخلوق.

إذا كان الأدمي آفاتار من بين آفاتارات فيشنو، لماذا لا يكون فيشنو هو نفسه آفاتار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز بخصوص المفاهيم وكيف أنها تجسيد لأفكار بالغة العمق والتعقيد تُختصر في رموز تُوقر على العقول البسيطة مصاعب التنظير. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، ابليس كمفهوم مجسد للشر، افروديت كمفهوم مجسد للجمال.

ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟ أي قوّة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو لزمن محدد في كائنات جدّ متباينة شكلا وحجما مثل الأدمي والسمة والسلحفاة والخنزير البري وأن تتوزع في كل هذه الأشكال بتمامها وكمالها.

الإجابة الوحيدة: الحياة.

السؤال الآن كيف يمكن أن نصف العلاقة بين فيشنو الالهة وفيشنو المتجسد في الأدمي تجسده في السلحفاة والخنزير البري وبلغة العلم بين الحياة والكائن الحيّ مثل الأدمي الذي تتجسد فيه تجسدها في السمكة.

لنستعمل لغة رجال القانون وهم يحاولون التدليل على صحة ما يجب على القاضي (القارئ في قضية الحال) قبوله منهم كرأي سليم.

الجزء الأول من المرافعة:

وحيث أن الحياة هي نفسها داخل غلاف كل الأجساد الحيّة...

وحيث أنها موجودة بكامل خصائصها في الجرثومة والفيل، في الوردية وفي الزيتون....

وحيث أنها لا تميّز ولا تفاضل ولا تظلم عمدا أي من الكائنات التي تتبلور فيها....

وحيث أنها تتوزّع جيلا بعد جيل كتركة يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون كاملة لكل وريث ولو قسّمت ملايين المرات...

وحيث أنها مشروع متواصل حيث ستتجسد في أجناس حية من نبات وحيوان وفضور لا قبل لنا بتصورها...

الجزء الثاني من المرافعة:

وحيث أن الأدمي الذي تتواجد فيه مثل هذه المعجزة يتميز بشكل يختلف عن شكل السلحفاة والخنزير والسمكة...

وحيث أنه يتميّز عن هذه الكائنات بخصائص بيولوجية ونفسية وثقافية تجعل منه حالة من بين الحالات التي لا تحصى ولا تعد والتي تجربها الحياة في مختلف أشكالها ...

وحيث أنه لا يحتلّ إلا جزءا ضئيلا من الزمان نظرا لقصر عمره قياسا بعمر الحياة على كوكبنا الأرضي ...

فإن الأدمي **شكل حالة لحظة** من الحياة بلغة العلم أو **شكل حالة لحظة** من فيشنو بلغة الأسطورة الدينية.

كل هذا منطقي، لكن ماذا سنفعل بهذا المعطى وهو بدهة يتوقف عند جزء من هوية الأدمي.

ماذا لو كان فيشنو نفسه القناع على وجه مجهول والحياة نفسها ظاهرة تختفي ورائها قوة مجهولة ماء، فمن البديهي أنه لا يمكن لها أن تبرز من العدم ولا بدّ أن يكون وراءها قوة جبارة هي التي أوجدتها وهي التي ترعاها وتتحكم فيها؟

أطلق الأدميون على هذه القوة المجهولة التي رصدها الحدس منذ ظهور الوعي واللغة ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماء.

تخيّلوها تحت ألف صورة وصورة وانزلقوا في أخطاء جسيمة بإعطائها صفاتنا وتحميلها أحقادنا. تخاصموا من الأزل حول من ناله شرف معرفتها أحسن من الآخرين. أذكاهم من اعترف بأننا نتخذ طريقا خاطئا بالتسمية والوصف وتلبسها نوايانا.

الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد (لاو تسو)

أصل السماء والأرض واللاموجود

وهذا لا اسم له

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة يرتكب نفس الخطأ وهو يصف الكلمات لتصوّر ما يقول إنه لا يمكن لا تسميه ولا وصفه:

مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن

إنها حقًا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمى خارج المسمي، من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصةً لا تكون إلا يبطل محدّد الهوية.

كل ما يمكننا قوله بخصوص هذه القوة التي تتفرع عنها كل ما نعرف أو نرصد من قوى ان اللغة عاجزة عن اعطائها اسما لان اللغة لا تسمي الا ما نرصد بحواسنا المحدودة وبفكرنا المتحور طول الوقت، ان المخيلة لا تذهب بعيدا في تصورها وهي لا تفعل عبر الاساطير سوى اضافة صفات مضخمة لكنها صفات البشران العلم يمنع من تحميلها نوايا واهداف هي دوما من نوايا وأهداف البشر.

المخرَج الأمثل هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية هذا المجهول المطلق الذي لا بدّ من وجوده ليكون للحساب حلًا: " الشيء".

[إزاحة الستار عن آخر طبقات هوية الآدمي...تحيين حدس

قديم قدم الآدمية نفسها]

أن يكون " الشيء" بالنسبة للفكر مثل الأفق بالنسبة إلى الماشي لا يمنع من مواصلة البحث فيه كما يفعل الفيزيائي وهو يرصد حركة المجرات والنجوم دون فكرة واضحة ونهائية عن طبيعة القوى الحقيقية الموجودة وراءها.

ما الذي نستطيع القول بخصوصه ونحن واثقون أننا لا ننساق وراء نوع أو آخر من الهذيان؟

قلنا من أين للخلايا التي تشكل الأنسجة التي تشكل الأعضاء التي تشكل الأجساد التي تشكل الآدمية أن تتواصل وأن تتعاون لولا أن لها ذاكرة تغرس جذورها هي الأخرى في ذاكرة أعمق واشمل. إنها ضرورة ذاكرة اللبنة التي تتشكل منها هذه الخلايا وهي الذرات وما ورائها من قوى فزيائية لا زالت تحافظ على جلّ اسرارها. حتى هذه الذرات بحاجة لأن تغرس جذورها في ذاكرة أوسع واشمل وأعمق وإلا من أين لها المحافظة على وجودها وتواصل خصائصها عبر المكان والزمان.

لنجعل هذه الذاكرة القصوى أو المنبع أو سمها ما شئت ذاكرة "الشيء". هل يمكن للرؤيا دون تعسف على المنطق أن تجعل من الحياة هي الأخرى **شكل حالة لحظة** من "الشيء"؟

ما نعرفه عن الذرات التي تشكل الكائنات الحية أنها جزء بسيط من مجمل الذرات الموجودة في الكون وهي لبنات كل الكيانات التي لا حياة فيها كالصخور على الأرض والمجرات والنجوم والكواكب في الفضاء اللامتناهي. لا تعسف ولا تناقض إذن في جعل الحياة شكل من أشكال " الشيء".

ما نعرفه أيضا أن الحياة ليست إلا إحدى الحالات أو المراحل أو الأوضاع التي يمرّ بها " الشيء".

هناك حالاته وهو جماد. هناك حالاته وهو مرحلة انتقالية بين اللاحي والحَي. ربما له -أو ستكون له حالات أرقى- من الحياة تخيلها بعض كتاب الخيال العلمي في شكل وعي وفكر بلا جسد يسكن جوف الحواسيب على الأرض أو جوف بعض الكواكب والنجوم في الفضاء اللامتناهي.

تبقى نقطة اللحظة وهي الأسهل. فمن الثابت اليوم أن الحياة لم تظهر على سطح هذا الكوكب ولن تدوم إلا ما يدوم الشرار المتطاير بضعة ثواني من حريق له آلاف السنين.

يحق للرؤيا إذن أن تقرر أنه كما الأدمي (ككل كائن حي) شكل-حالة لحظة من الحياة، فإن الحياة شكل -حالة لحظة من "الشيء".

انتبه الآن لخطورة الاستنتاج الذي يفرض نفسه أليا.

إذا اعتبرنا أن الأدمي شكل-حالة لحظة من الحياة... وإذا اعتبرنا الحياة شكل-حالة لحظة من الشيء... فمعنى هذا أن الأدمي شكل-حالة لحظة من "الشيء"

أخيرا هوية الأدمي كاملة... أخيرا العلاقة الحقيقية بين المخلوق والخالق.

لا يوجد بين البشر من انتبهوا لهذه العلاقة قدر المتصوفة من كل الديانات والأعراق والأزمنة.

قال البسطامي أحد كبارهم في الإسلام: "خرجت إلى الحجّ فاستقبلني رجل في بعض المتاهات فقال لي: يا أبا يزيد إلى أين، فقلت إلى الحجّ، فقال كم معك من الدراهم، قلت معي مئتا درهم، فقال طف حولي سبع مرات وناولني المائتي درهم فإن لي عيالا، فطفت حوله وناولته المائتي درهم".

ثمة من لم ينتبهوا أو قل ربما انتبهوا لكن فضّلوا فلكلور البحث عن الحقيقة على الحقيقة نفسها وهي بوضوح الشمس في عزّ الظهيرة.

نموذجاً رهبان التبت البوذيين في اختيار مرشدهم وزعيمهم الروحي الدالاي لاما. هم يقضون كم من سنين ومن طقوس معقدة ومن ترحال في أبعد القرى الجبلية بحثاً عن طفل يفترضون أن روح الاله تقمصته بعد موت مرشدهم السابق.

كل هذا الجهد لا معنى له وأي طفل على قارعة الطريق يفي بالغرض.

الأهمّ اتضح عبث الشكوى من الخالق فما بالك بظلم الاتهامات التي نوجهها إليه ونحن في أوج التبدّل.

في رواية " الشياطين " للكاتب دستوفسكي يصف بطل الرواية شاتوف ما عاشه طفل من الهول وهو يُلقى به عاريا في غابة موحشة ليلا ثم يطلق عليه استقرطي مجنون كلابه وكأنه أرنب للصيد. يقول شاتوف بعد تبخّر في وصف آلام الطفل أنه لن يغفر أبداً لله ما مرّ به هذا الطفل مهما كانت الذرائع والحجج.

غريب يا ميخايل فيدورفيتش وأنت الكاتب الموهوب عدم فهمك أنه " هو لا غير" الذي كان يتعذب تحت أنياب ومخالب كلاب الصياد.

في نفس السياق، إذا كان الأدمي **الشكل - الحالة - اللحظة** "الشيء" فمعنى هذا أنه هو الذي رأيناه عبدا موثقا في قاع باخرة عبدي، أمراه تحتضر تحت وابل الرجم، جلادا يعذب وسجين سياسي يعذبه جلادا، الطفل الذي سمت عينيه ليذر مالا أكثر على عصابات التسول المنظم.

من أين لنا أن نلومه أو ان نحاسبه وهو لا يجرب ما لا يطاق من الأهوال والآلام إلا على ذاته ولسبب رأى أنه يستأهل كل ما عانى وما سيعاني؟

بطبيعة الحال ستواجه الرؤيا هنا باحتجاجات صاخبة ومفهومة إلى حد كبير: كيف يمكن قبول تصور كهذا يجعل من " الشيء" كائننا يمكن نعته بالسادية وقد رأينا أفعاله وهو يعذب ويحارب...وبالمازوشية وهو يقبل أن يكون طفلا يسطاد كالأرنب في غابة مظلمة أو أن يكون عبدا عائنا في برازه موثق بالسلاسل في قاع باخرة تجار عبدي على وشك الغرق؟

ترى أي معنى لهذه التصرفات وما المنفعة ورائها؟
المعنى؟ المنفعة؟

[آخر اللمسات في صقل لبنة المهمة]

لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسنانا حتى لا تصاب بالتسوس. هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. الخيط الرفيع الرابط بين المفهومين: نفع الشيء للأدمي.

انظر لكل الأشياء التي لا يثير وجودها لدينا أي تساؤل عن معناها وستجد أنها دوما ذات الوظيفة الواضحة في خدمتنا.

انظر كيف نقيّم الآخرين. اللامبالاة إن لم يلحقنا منهم ضررٌ أو نفع ومنتهى الكره إن أضروا بنا أشدّ الضرر ومنتهى الحبّ إن كانوا مصدر كل خير.

أنظر كيف يقيّم الأدمي حياته. بقدر ما يعترف له الآخرون بما قدّم للعلم، للفن، للوطن، للإنسانية بقدر ما يعتبر أن حياته حققت مراميها وأنه يمكنه الرحيل عن هذه الدنيا راضيا.

لكن هل بوسعنا ربط إيجاد العالم بهدف مثل تحقيق أقصى المنفعة للذات وللآخرين؟ إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ ما نفع إيجاد خلق العالم؟ الوجود... ما نفع الوجود؟ ها نحن ندور في حلقة مفرغة.

أضف لهذا بعد ثاني للمأزق يجب ألا يغيب عنا. عندما أقول إن حياتي تستمد معناها من كونها في خدمة الإنسانية فلأنني أعتبر أن بقاء الإنسانية أكبر وأهم من بقائي ومن ثم ضرورة التضحية بنفسي من أجلها.

أي شيء يمكن أن يكون أكبر وأهم من خلق -إيجاد العالم؟ طبعا لا شيء.

الخلل إذن في طريقة تفكيرنا عندما نسحب على مستوى منهجية لا تصلح إلا في مستوى آخر بعيد عنه كل البعد.

ما معنى أن نبحث للوجود عن منفعة وهو الذي يوجد النافع وغير النافع، الصالح والطالح، المفهوم وغير المفهوم، المنطقي والعبثي؟

أليس بديهيا أن الفرع لا يقيّم الأصل وإنما الأصل هو الذي يحدّد للفرع مكانه وقيّمته ومعناه داخل شبكة الأفعال والتفاعلات التي يسمح بها هذا الوجود

إيجاد-خلق العالم إذن لا هدف له إلا الإيجاد-الخلق. أما الوجود المنبثق عنه المتسبب فيه فلا غاية له إلا الوجود بما هو نقيض العدم الذي ترمز له الجنة... هذا الوجود قوامه حراك الزمان وصراع الأضداد، طاقته قوى الدمار وقوى الأعمار، فحواه استكشاف الطيف الشاسع لإمكانيات الإحساس والشعور والتفكير والتخيل والعمل عبر تجربة العالم وهو في حالته المباركة والعالم هو الجحيم على وجه الأرض... كل هذا لا المتعة الهدف ولا الألام الثمن، إنما هو الفعل من أجل الفعل كلعب الطفل من أجل اللعب وكإبداع الفنان من أجل الإبداع.

[الخبر الطيب]

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماع لمعرفة أسرارها. ماذا لو كانت "الحقيقة" أنه ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزخر به من قدرات في مجالي الفكر والخيال؟ ماذا لو كانت الوسائل أهدافا والأهداف مجرد وسائل؟

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طعاما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم فيه طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه.

ألا نصاب بخيبة الأمل عندما نصل إلى الذي ركضنا وراءه ونحن نكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمنّا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، منطلق طريق جديد. هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقتحم أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع.

صدق من قال: عندما تحقق هدفك اعلم أيضا أنك ضيّعت كل الباقي.

كم من أهداف جرينا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

لا حاجة لنا إذن ولا ضرورة لتقييم حياتنا بدرجة نفعها لقضية مهما كانت.

نحن لم نأت لنصل ونثبت على حالة واحدة ولو كانت السعادة أو التجلي أو الساتوري.

نحن لم نأت لنكتشف الحقيقة، ولو كانت اللغز المفترض للعالم، وإنما لتجربة الوجود.

نعم لا هدف للرحلة غير اعتصار كل ما تقدر عليه الذات من طاقات الشعور والفكر والفعل، غير بلورة كل الممكن من العلاقات مع الذوات الأخرى، فلا تحملوا على محمل الجد نتيجة جريكم وراء هذا الهدف أو ذلك، كل المهم الجري لا يهَم إلى أين. أخيرا الحرية... أخيرا مواصلة ما بقي من الرحلة.

كالموجة (لاوتسو).

على سطح المحيط

كالريح

بلا وجهة.

[إتمام لبنة الموت وقد أصبح الشكل العام للبنية واضحا]

كيف ستواجه الرؤيا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبدا ومن جهة قبول ضرورة نهايتها بل وبطبيعة خاطر؟
مثال الشجرة مرة أخرى.

اعتبر الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة. هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تُضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

لكن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق. هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة. هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصارة. هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائلة. إنها نفس العصارة الموجودة في كل الذوات الأدمية وغير الأدمية.

كورقة الخريف، تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارتها لا تموت وإنما تواصل ضخ طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى. مما يعني أن هناك جزء فاني للذات وجزء قديم قدم الحياة وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف مداها.

لقاتل إن يقول، لكن الذات كائن فريدٌ متميز يُضَيِّع الموتُ طرفته!

طيب، لكن ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد ونفس المخزون من تجاربه؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بأن تُعاش؟

انظر الآن كيف تحقق الرؤيا دون التعسف على منطقي كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها العصاره... والتجدد المتواصل عبر كل الأوراق التي تعيش فيها هذه الصورة منذ ملايين السنين والتي ستتواصل في كل أوراق المستقبل إلى أن تنتهي مغامرة الحياة نفسها.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه الموت للذات المرهقة الموجودة وعلى بابه توضع لافتة تُطمئن النفوس الفلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد في شكلك الماضي وفي القصة التي عشت". في جناح موازي أين الخلود ليس ثبات المخلوق وإنما ثبات الخلق تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لرحلات لا تعرف لها بداية أو نهاية.

هنا أشعر بك تهز الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرؤيا ستخلصني من خوف الموت وأنت تميّنتي ما لا يحصى ولا يعد من المرات كأن موتة واحدة لا تكفي. نعم، لكن أتعى بكل ما تريح في رؤياي وأنت تتجدد بعد كل موتة جاهزا لمغامرة جديدة كما هو الأمر وأنت تستيقظ من النوم جاهزا اليوم حافل آخر...

أليس هذا بالضبط ما عبر عنه حدس الشاعر!

"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بمبديي"

[اعلان انتهاء الأشغال...مؤقتا]

أعود للتصميم أبحث عن آخر نقص يمكن تداركه. كل شيء تمام: هوية الأدمي، سبب الرحلة، طبيعة عالمه، ترويض خوفه من الموت.

أليس رائعا في هذا التصور أن تُرجع طاولة القمار لك خسائرك وأن تسمح بمعاودة اللعب ولا حد للمرات أو للمبالغ التي تستطيع الرهان عليها؟ أليس مُعشًا للأمل أن يعيد لك الزمان كل مرة عقارب الساعة إلى الصفر؟ أتترك كل هذا لتسكن بالبيوت المغشوشة التي تزيد من أوجاع الروح! وفي كل الأحوال ما الأفضل بالنسبة لك؟ أن تكون عبدا لسيد ولو كان أحسن السادة، حيوانا شقيًا تأنها على حبة رمل في صحراء الكون أو أن تكون الشكل-اللحظة الذي تبلورت فيه ذات الذوات؟

مؤكّد أنني نسيئُ شيئا والأمر حتمي في كل عمل أدمي. ما اللبنة الناقصة؟ أه، تبرير وتفسير صعوبة الرحلة. ما الذي كنت ستشعر به لو كان الطريق سهلا والسهل هو الطريق؟ طبعاً أن العالم يستصغرك، إذن لماذا تشتكي؟

ليس هذا ما يريد لساني النطق به. ماذا إذن؟ لحظة! نعم أصدق رؤيا ليست التي تمتصّ من العالم كل أسرارهِ، إنما التي تضيف للأسرار أسراراً. .أليس هذا بالضبط ما تفعله روايتي هذه لقصة القصص؟ هل ثمة سرّ يضاهي سرّ هوية "الشيء" وكيف يتبلور في هذا الكم الهائل من الكيانات والكائنات وماذا في جعبته منها للأبديات المقبلة... ثمة إذن مجال لا متناهي لرواد فضائي الفكر والخيال تفتح لهم الرؤيا فاستكشاف طيب ومثمر يضيف لغرابية العالم مزيداً من الغرابية.

ثوّدعني مداعبا ومواشبا وأنت لا زلت مترددا في قبول هديتي هذه: والآن ماذا ستفعل بعد أن أنهيت الأشغال الأولية والتي لا شك أنك ستعود إليها مرارا وتكرارا؟ قد تتصوّر أنني سأعتكف في زاوية مسجد أو مغارة لأزهد في الدنيا وأتسكك منتظرا نهاية الحياة وبسمه بوذا على الشفتين! يا هذا، متى ستكفّ عن إساءة الظن بي والحال أنه لا دخل لي من قريب أو بعيد بهذه السيناريوهات؟ اختر لمثل هذه النهاية من فزوا من الحياة كالجنود الجبناء من ساحة المعركة وقد سمحوا لأنفسهم بالحق في السعادة النهائية -لو كانت ممكنة- وبقية الأدمية تتخبط في الشقاء.

وبالمناسبة سل هؤلاء المعتكفين في الأديرة وفي أبراجهم العاجية وقد حضنوا حقيقتهم الأزلية كالدجاجة بيضتها، هل وجدوا في ترديد نفس التصورات غير الروتين والملل؟ تريدني أن أفايض توأصل الانتباه بتبّد القناعات المطلقة وبلاهة السعادة المزمنا؟ وخلافا لهم سأواصل المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة، لا أشيخ ببصري هربا من فُبح أو ألم، لا أبحث عن سعادة أو "ساتوري" إلا كتجربة عابرة، تُضاف لكل تجاربي، مُنساقا مع حركة العالم، منخرطا فيها إلى آخر نفس.

المهم بالنسبة لك عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، أن الرؤيا -خلافا لبيتي في الفضاء الحسي- بيت مفتوح الأبواب طول الوقت، وكلّ أدمي مُرحّب به فيه متى شاء وللفترة التي يريد. لكن إن أردت أن تبني بيتك الخاص فخذ بهذه النصائح.

اترك الأفكار الجديدة تنضج ببالغ البطء والحذر.

لا تعجل عليها وإلا فرّت نحو الأعماق تتعاقبك على نفاذ صبرك بالاختفاء طويلا.

لا تتوقّف عن تفحص مقترحات وعيك الباطني.

إن تماشت مع العقل والفؤاد وإن لم تكذبها التجربة، اقبلها مرحليا.

إن ناقضتها، اتركها غير مأسوف عليها.

احذر من أفكارك قبل الحذر من أفكار الآخرين.

استعمل أذهانهم كمطرقة لتفحص متانة آرائك،

للمراجعة تلك التي يتّضح ضعفها،

الفاسدة لسلة المهملات غير مأسوف عليها

والتي تصمد لأشرس نقد في ملف القناعات المؤقتة.

النتيجة دوما تصورات تُحوصل كل ما تعرف وكل ما تجهل.

كن دوماً تلميذاً نفسك النجيب، أستاذها العطوف، وممتحنها الصارم،
كن عاقلاً لا ناقلاً، مبدعاً لا مُعلِّقاً، مجيداً لا مُردِّداً.
تساءل: هل يوسع الأفكار التي أنشرُ بين الناس أن تقلل من معاناة الكائنات.
إن كانت الإجابة بنعم، تعهدها بالسقي كما لو كانت أروع الأزهار.
اجتثها كالشوك بلا تردد إن كان الردّ بالنفي.

**

- يا بنت من أين لطفلة صغيرة أن... عُمُرُ كامل وأنا أولف هذه القصة ... وأنت تريدان بأعوامك الثمانية أن...؟!

تعود حرّة إلى القفز فوق السرير تَغَيّ صارخة: أنا، أنا! أنا أروي كلالللالل القصة.
- لكنك لا تعرفين حتى من هو آدم ولماذا هرب من الجنّة!

- أنا أعرف! أنا أعرف! أنا أروي القصة لا أنت!

لم لا؟ أليست كل تصوراتنا للعالم قصصا يرويها أطفال لأطفال؟ ما الذي يدعوني للاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟ ربما لديها أفكارٌ طريفة يمكنني السطو عليها لتحسين التي سأواصل كتابتها إلى عشية الرحيل.

- إن أيقظتِ هُنا تحمّلين وحدك مسؤولية تدخلها المتواصل. تفضلي. الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلالللالل الوقت.

تهمس الطفلة في أذني وقد اكتسبت ملامحها جدّيّة مفاجئة.

- جدّي لا أريد أن تموت أبدا... أبدا... أبدا!

- يا بنت، ماذا فعلتُ لك لكي تتمني لي شيئا كهذا. على كل حال ما زال أمامي الوقت لسماع روايتك حتى وإن كانت بطول رواية شهرزاد. انتبهي، من قواعد اللعبة- واسألني أمك- أن أفكّكها منك إن أخذتها في اتجاهٍ لا يُعجبني. كلّي أذان صاغية.

تُسلط حرّة نظرة أخيرة على أخت مغمضة العينين. تتنفس الصعداء وقد تأكدت أنه لا شبح ابتسامة على محياها يفضح تظاهرها بالنوم. تضع رأس "إيتي" على المخدّة بكثير من العناية. تحقّق في مبتسمة ثم تهمس: كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان أمير جميل اسمه آدم...

**

أو كيف استُجيب لدعاء المريض لتنتهي الرحلة على خير

حُكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به. ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف ونخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة.

فلا أحد يتذكر كيف كانت آخر اللحظات قبل أن يلفظه الرحم. كذلك لا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت وهو في وضعٍ آخرٍ همّه إملاء كلماته الأخيرة على كاتبة جالسة حدوّ فراشه وهو يحتضر.

لا يبقى عليّ إذن إلا استباق الأحداث والاستجداء بالخيال لوصف نهاية الرحلة، لا يهّم مدى قربها وابتعادها مما يسمونه الحقيقية فدعامة النصّ قناعةً ثابتة أن هذا عالمٌ واقعُه خيالٌ وخياله واقع، وأن المتبدلون وحدهم من يضعون الحدود التي لا تخترق.

لذلك التزّما إلى آخر نفس بخطها التحريري، فإن الرواية ستُنتهي رحلة الأدمي في هذا العالم على أحسن حال. لا تُحدّثوني عمّن قضوا نحبهم صعقا وحرقا وشنقا وغرقا وذبحا وجوعا وعطشا وإجهادا وانتحارا. لنقل إنها بعض مبالغات "الشيء" في نزعة التجربة، وعلى كل حال هو كما أثبتت الرؤيا لم يجرب إلا على نفسه.

ما يهمني هو أن نجعل الأدمي، خاصة إذا كان صاحب النصّ، يغادر العالم دون مزيد من المشاكل له ولغيره، وأن ينصرف بالحدّ الأدنى من الامتتان لِمَا عُرف من روائع العالم وبأقل قدر من الاحتجاجات العبيئية.

إذن يتواصل النصّ بالكيفية التالية.

يتصاعد من مكبّر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التّقدم حالاً إلى بوابة المغادرة.

غريب كأنني أعرف هذا المكان...أهو الذي نزلت فيه...!؟

يتسّمّر البصر على جحافل المغادرين وهو يتوجهون إلى باب دوار ضخم وعلى الوجوه قلق لا يتجحون في إخفائه.

بعضهم يجرّون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثاً، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة لبقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

من مقعدي ببهو انتظار المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مفترقاته. كم أودّ أن أسألهم واحدا واحدا: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظر وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدّد الأزلي؟

يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرّة بتخصيصٍ يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء: الرجاء الآن من السيّد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أواصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفات لم تصلها بعد حمى التيبوب.

يتجدّد النداء بحدّة تتّم عن توتّر عصبي: المطلوب من المدعوّ غريب النقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سببُ عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يترثر في صالون حلاقة المطار، أو هو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من تدبّيج تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّبك أيّ تقرير جدّيّ يمكنك كتابته وهذا عالمٌ تعبّره وأنت كمن يزور مدينةً سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... أو كقاعة سينما تدخلها لتشاهد فيلما بدأ قبل وصولك بكثير ويُطلب منك الخروج حتى قبل أن تجد الوقت الكافي لاكتشاف أحسن مقعد وأريح وضع للجلوس. نعم كم أود أن أعرف كيف سننتهي قصص الأفراد والشعوب الذين عايشت بعض فصولها ولا أتخيل كيف سننتهي.

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاً فسترى ماذا سنفعل بك.

تفتّ فؤادك الأيام فتنا وتنتحت جسمك الساعات نحنا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أنتا

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبيكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار. متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراض بالتهاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتبخر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.

يصرخ الآن في المصدح ذكّر يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا سيد غريب آخر آخر انذار.

يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوت فرصة لثتمه وها هو الآن يماطل ويسوّف ويؤخّر لحظة الرحيل عنه.

كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مغايرة تماما.

نعم ما زال هناك أمامي الكثير لإنضاج تصوّراتي عن هذا المبهم الأصلي الذي أسميه "الشيء"، عن مغامرته في عالم-كائن، في كائن-عالم اسمه الأدمي عن وضعه فيه الشيء ونقيضه لكي توجد أحداث مادتها النقص ومحركها خلل يبحث دوماً عن التوازن عن القبح والنشر وكل الأخطاء والخطايا التي تحمّل ومارس ثمناً لتجارها لا بدّ منها لتحرير تجربة الوجود من جمود الكمال.

يعود الصراخ من مكبّر الصوت لنفس الموظف المتزايد توتراً: تعال يا روح أمّك طلّعت روحنا الله يطلع روحك بأسرع ما يستطيع.

مهما صرخوا لن أتحرّك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصياً مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحبهم بما فيه الكفاية.

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى لحظة الوداع الأخير، هلاً أشبعت فضولي بالرد على سؤال لم أتجاسر يوماً على إلقائه يوماً على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقاً -كما أردت- في التفاصيل سيرة ذاتٍ وفي الثوابت سيرة كل ذاتٍ؟

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطباً كل من يسمع: أنه من قوم حاول نبيهم أن يعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيراً ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنيايه وأظافره بخشب الطاولة.

أغادر الوليمة جائعاً؟

كم يخطئ هذا الموظف الدعيّ في حقي كما أخطأ في حقي عدد كبير من البشر وكما أخطأت في حقّ عدد أكبر.

طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبتُ العلم

فأعطاني مشاكل للحلّ

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عقبات أتسلّقها

طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت
لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج

نعم نلث من الحياة كلّ ما تقدّر عليه من عطاء.

يا للوليمة التي نهلت منها والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شعر الحبيبة،
الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر! يا للوليمة وهو روائح الحبق
والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسل عن عطر النساء! يا للوليمة وهو طعم
التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن والماء الزلال! يا للوليمة وهو خرير ماء
السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي،
نداء عشق حسون اعتلى شجر الثوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدة
تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!

لم يبق لي إلا تسلّم آخر العطايا: الموت.

نعم لكن يجب إتمام وصيتي والتأكّد من خلّوها من الأغلاط النحوية والمطبعية التي
تلاحقني في كل النصوص.

وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم
الذي تغادر! ثم ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعيّ تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب
ان يعلم؟ ... أن العالم على الدوام واحد-عدد، عدد-واحد ... أن العالم مُغامرة لم تقرّر
بعُد مسارها ومرفأها لا مُعطى حدّدت له خصائص ومهام منذ الأزل... أنه لا قدرة
لدين، لفلسفة، لعلم، على استفاد ثرائه الفاحش وحراكه المتفجّر... أن كل الرؤى
عنه تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى
الواحد... أنه يجب استكشاف ما تيسّر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك
العقل... أن أكبر خطر يتهددنا فيه تبلّد مز من يُطْفئ فيه جذوة الاعجاب والعجب... أن
الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على عمود، على
العمود المقابل قائمة الخسائر... أن الأناية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة
الأخريين من الحب... أنه لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطيئة الاحتقار... أن
الغبي من يضحك من الأخريين واللبيب من يضحك من نفسه... أن عليك في موضع
ضعف ألا تستسلم، في موضع قوة ألا تنتقم... أن السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي
الأوامر... أنه من الغباء محاولة تغيير العالم ومن الإجماع عدم المحاولة... أن الفشل
ليس ألا تنجح في تحقيق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... أنه لا النجاح هدف الرحلة
ولا أي فشل مهما كان هو فشلها... أن النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان
لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقل...

صراخ متفانم الحدة وبداية تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبي
المعني بالشتيمة، كائن من هيكل عظمي يحمل منجلا يربط به على كتفي: يا الله،
أمامي يا فخامة الحاج الدكتور الأستاذ الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال
القوة.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، أليته مشفوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف أحملك على محمل الجد خاصة وقد كتبت منذ دقيقة أن الموت آخر هدايا الحياة؟

ما لكم كلكم ضدي هذا اليوم؟ ثم متى كنت متوافقا دوما مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟ هنا أسلط عليك نظرة أتكلف فيها كل الممكن من البرودة عليها لتثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي برصد كل تناقضاتي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه إن ترك لك الوقت.

بداهة عزرائيلهم هذا مصرّ على ألا يهتمّ إلا بي وأنا وكان له معي ثأر شخصي قديم. روايتان لما حدث بني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار مبالغ فيه] أنني نهضت من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدرت البصر باحثا عن مهرب، أن ملاك الموت انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي أخذا بخناق، أنني أفلت منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنت أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جراً من تحت الأريكة ففرت على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناق، وأنا الممسك بخناق، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأني بقيت أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الوصية، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعوّ الشرفي، تفضلتُ قاصدا الباب الدوار بمشيئتي العسكرية، أن المسكين ركض وراني غير مُصدّق أنني لم أعصّه وهو الذي صدّق -مثل الكثيرين- كلّ الإشاعات عني، أنني غافلته لألصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى بلا حسرة فاتحا ذراعِي لما سيأتي بلا وجل.

يتوقّف الطبيب عن إعاش عيبي محدّقا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوفٍ أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبّعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر.

دمعة حارقة تسيل على خدّ سيسكنه الصقيع إلى الأبد، تذرفها أصعبُ بنت على أصعب أب. تتدافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أجزاء مفككة من أحاسيس ومشاعر وأفكار وذكريات...

أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لذّة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولىة عهدا... كم وقف عند هذا الجبل من زُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابية والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار!

يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكارٍ قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتخفض، تتسارع وتنباطاً فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل الموسيقى ذروة الجمال والجلال والأدمية تتزّرع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه. Bleib bei uns. كأنّ الصدى هو الذي ينفخ بقوة في منديله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بأن أبقى معكم!

لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته وراء ستار الموت والمطية أجمل الأنغام. بهمس شبّح الجدّ المهيب: لا تخف عبرت قبلك، الجسم مهياً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل لك العبور.

الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجنة في رحم الخيال. تتدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا! أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال برافو، أحببت أدائك... من رأى أينفناس؟ آه أخذ ملقه للمهمة الجديدة غاضبا وشمتم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستاهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرّة العقرب... آه، هذا أنت من لا عيني دور "ح"! لماذا لم تردّ أو لم تردّ على سؤالي وأنا أضملك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك رأيت في مرآة ذاتك أجمل صور ذاتي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم... لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ ... آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة... خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سيالك... رجاء لا تعد إلى التدخين تردد إنها سيجارتي الأخيرة... آه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرت لك أنك كنت أول من بثّ في هاجس الموت، حظّ سعيد في رحلتك المقبلة

وحذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت "هنا"! كنتَ أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ ... آه كنتَ تمثّل! طبعاً وأنا أيضاً، كلنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنتَ لاجئاً ماهراً وخبيثاً، أجبرتني على أن أسئل من أعماقي كلّ طاقاتي لمواجهة ضرباتك الموجهة، وأنا أيضاً أوجعتك كثيراً! شكراً على الشفاء... وأنت، مَنْ أنت، لا أتذكرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكلَ كبدك ونحن نشرحُك؟ كنتَ تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتكَ تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك لما فررتُ أغالب الغثيان! يا خروف سابقاً، أولاً لم يكن معي ما كافي لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتَ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! ... على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسراً من أعالي السحاب على طريدتك، أن تنقضّ عليها نمراً من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضاً وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمرٌ مفهوم، لكن ما الذي دهاك لثجرتَ شيئاً بغياب الوجود خروفاً؟ ... آه ماذا دهاني لأجرب الوجود آدمياً؟ عفوا لم أقل شيئاً.

اكتملت الرحلة والذات بالوجود نالت كل مراميها.

يتوقف عازف البيانو عن النقر. تتفكك النصوص إلى الحروف الأولى. يبهتُ تدريجياً بريق النجوم. يتعمق صمت الصحراء. تتلاشى ربع ابتسامة خجولة من الأفق.

تتحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج بعد مرور العاصفة.

انتهى العالم من جمع أشيائه وكلّ أدوات الإغراء.

تبدأ اليدُ الخفية في خلط الأوراق من جديد ليتخذ الهباء أشكالاً لم توجد من قبل أبداً.

الذاتُ الآن كقطرة عبّرت السماء سحاباً عرفتْ وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل رَحْم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيع وتتجدد في أوسع ذاتٍ، في الذات الأوسع... في الذات القنوس.

نفد الزيت (كبير)

صمت الطيل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد.

افتحي باب شساعتك يا عثمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترققي بأناتي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلَة إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البحار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه
لعودة المدّ انتهى جزر الزمان.

ما أن جذبت كفني على عينيّ متنفسا الصعداء (هايكو مهدي إلى نكري إيسا)
حتى انطلقت الصرخة الأولى من ألف حنجرة
وأنا -أنت كل مولود جديد.

**

عالم الأدميين، 350.000 جيلا بعد طوماي، 78 حولا بعد هيروشيما
اليوم 28470 من الرحلة

معلّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
"الشيء" هو كل الأشكال، كل الحالات وكل الزمان،
مثله كمثّل دَوْحة ولّادة يَبْلَى الزمانُ ولا تَبْلَى،
ثمارها نَمَلٌ، نَحْلٌ، فِطْرٌ، طَيْرٌ، شَجَرٌ، بَشَرٌ،
كل ما كان وما سيكون من كائنات-عوالمٍ
تتبارى كلّها غرابةً وإعجازاً،
تتساوى كلّها قيمةً وقداًسةً،
أمامها تُحنى الهامات اعجاباً وتهيباً،
و "الشيء" كالْفَنانِ في أَوْجِ الخلقِ، كالطفلِ في عَمرة اللّعبِ،
يستكشف عبرها الطّيفَ اللّامتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا أبدع من وحي خياله عالَمنا هذا،
أقطعه طرفاً من المكان، أجازَه قبساً من الزمانِ،
سنّ ألاً حراكٍ فيه إلا وهو صراعٌ-تعاضُدُ الأضدادِ،
فلا نظام دون الخواءِ، لا حياة دون الموتِ ولا سلام دون الحربِ،
لا جمال دون القبحِ، لا متعة دون الألمِ ولا خير دون الشرِ،
عالم مبهر مرعب، لا نفاذ لعطاياه، لا حدّ لقسوته،
عالم لا سكون فيه إلا استعداداً للكرّ والفرّ،
الكلّ فيه آكلٌ ومأكولٌ، الكلّ فريسةٌ وصيادٌ،
البناء والهدم من الأزلِ، الدمار والإعمار إلى الأزلِ،
عالم على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالآلام النقص والخلل.
على أحسن حال ودواليبه الصامته تعدّل كل عيب بذكاء عجيب.
على الدوام جحيمٌ وسط الجنّة، إلى النهاية جنّةٌ وسط الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والأدمية الفاعل، المفعولُ بها والفعل،
يتبلور "الشيء" مستكشفا جيلا بعد جيل،
عبر قصص الأمم والشعوب والأشخاص،
في كلِّ ممثِّل، في كل مخرج وفي كل الأدوار،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يَعش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده المتعة والألم، النجاح والفشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكابوس تأتي كالخُلم،
وفيك كما لو كنتَ محاولته الأولى،
كما لو كنتَ رهائه الأخير،
يواصل سبر أغوار خُلو ومُرّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكلّ،
الإنسان شيء ليس كمثل شيء لأنه الكلّ في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا هدف للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو غاية،
الموت تفكيك القديم لتكوين الجديد بنفس اللبنة،
عند هذا المنعطف من طريق لا تُعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي
أتممت على أحسن وجه أعظم مهمة،
أثوجت هامتك بإكليل الغار أو بإكليل الشوك،
كيف ولا وقد أوجدت وتعهّدت عالما طريفاً آخر،
ارتحلت حياة كاملة بين أهواله وروائعه،
وأنت بعض من خيال "الشيء" يمشي على قدمين.

**

